الأمير شكيب أرسلان

إلى العرب

بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية



الأمير شكيب أرسلان / إلى العرب

إشراف وتحرير:

د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١_٥/٣١٠٠٥٥ - ٩٦١_٥/٣١١٥٥٥

E – mail: moukhtarainf@terra.net.lb
http ://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

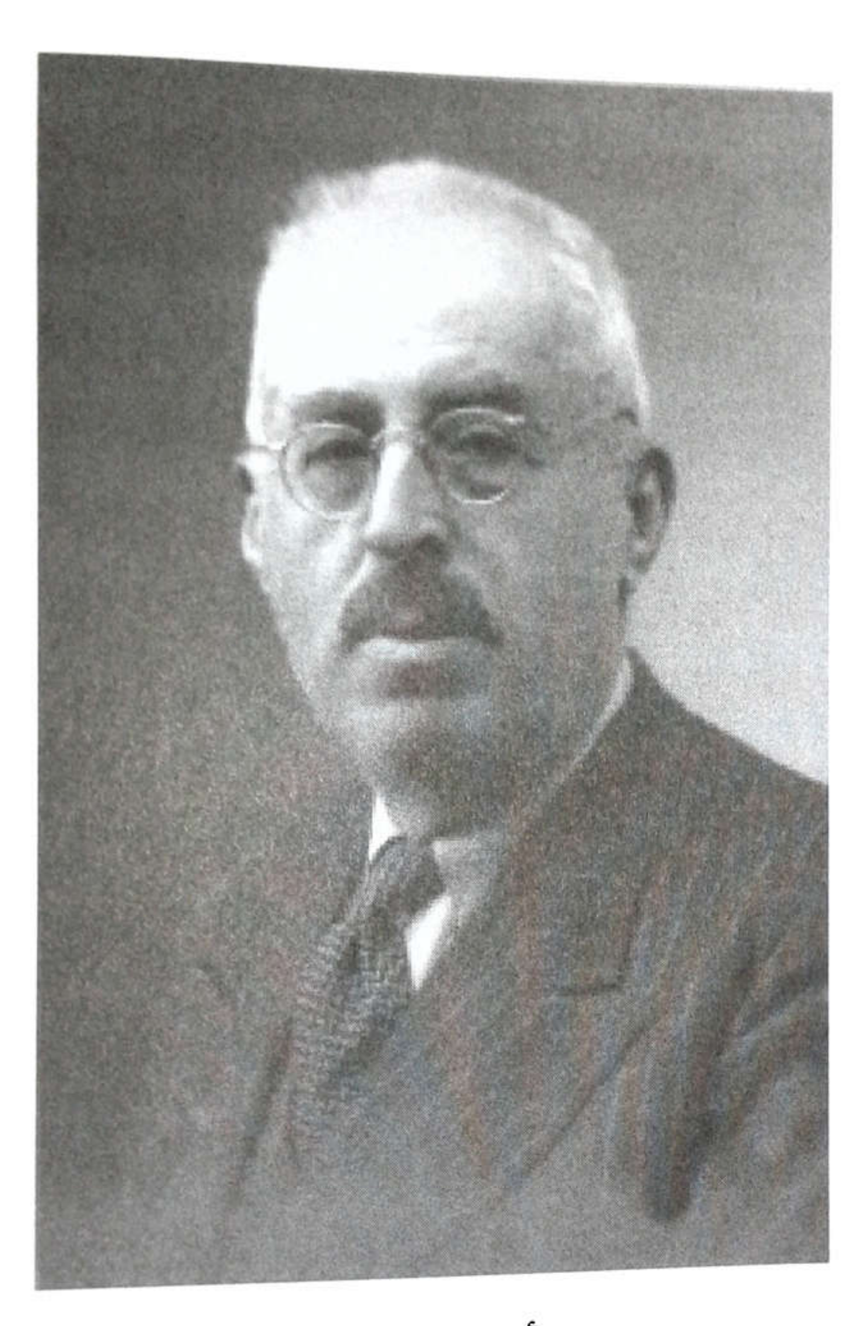
الأمير شكيب أرسلان

إلى العرب

بيان للأمّة العربية
عن
حزب اللامركزية

إشراف وتحرير:
د. سوسن النجّار نصر

الدار التقدّمية



أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

مقدّمة الناشر

يقول الأمير شكيب أرسلان: «... فكون الشريعة المحمَّدية السمحاء شريعة عامّة للبشر، مبنيّة على أتمّ المساواة، سائرة في أمور الدنيا على قاعدة العدل الذي يوفّر لكلّ أحد حقّه، بدون نظر إلى أصله وفصله، وفي أمور الآخرة، وعلى قاعدة تقوى الله تعالى حتّى دان بها إلى يومنا هذا أكثر من ثلاثمائة مليون نسمة من بني آدم، لا يعلم الواحد منهم نفسه مسلمًا حتّى يرى نفسه متحقّقًا بأخوّة محكمة متينة العرى تربطه بهؤلاء... من أصناف السلائل البيضاء والسوداء والصفراء... وهذا المبدأ المقدّس هو الذي في صدر الإسلام...».

نعم، لقد جمع الإسلام أممًا وشعوبًا، على اختلافها، وعلى تنوّع عصبياتها ومشاربها على كلمة واحدة، كلمة السلام والحقّ والعدالة، والمساواة. ولعلَّ هذا المنطلق كان دافعًا للأمير شكيب أرسلان في كتابته لهذا البيان الذي صدّره بعنوان «إلى العرب»، بحيث توجّه فيه إلى الناطقين بلغة الضاد، يردّ إليهم من خلاله على بيان آخر جاء على لسان «حزب اللامركزية»؛ هذا الأخير الذي كان من العاملين على مناهضة دولة بني عثمان في الشرق.

لن ندخل هاهنا في تفاصيل هذا البيان والملامح التي يرسمها، فتقديم سعادة السفير حسَّان أبو عكر الذي سيلي، كافٍ ووافٍ، ولكنّنا سنتوقّف عند بعض الملاحظات التي لا بدَّ منها، والتي التمسناها من خلال إعادة نشر هذا البيان الذي جاء في نسخته الأم الصادرة عن دار السعادة (والعائدة إلى عام ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣م) في شكل كُتيِّب صغير يضمّ في دفّتيه ١٧٥ صفحة. فقد صادفتنا الكثير من الأخطاء المطبعية التي كانت تشكّل حائلاً دون قراءة النصّ بشكل صحيح. وقد عبّرت دار السعادة عن ذلك بوضوح كامل حين ذكرت في خاتمة الكُتيِّب: «قد كان الأمير

كتب هذا الكتاب وهو في الطريق سائرًا إلى المدينة المنوّرة وأرسل به للطبع في الأستانة، فلم يتيسّر له الوقوف على طبعه ووقعت فيه أغلاط مطبعية كثيرة واختلاف في ترتيب الصفحات أدّى إلى إعادة طبعه الآن مُصحَّحًا ومضافًا إليه بعض جمل أثناء التصحيح». هذا، عدا عن غياب إشارات الوقف بشكل شبه كامل، ممّا زاد في صعوبة متابعة المعنى في بعض الصفحات، ناهيك عن وجود الكثير من الألفاظ التي لم تعد مستخدمة في يومنا الحالي، الأمر الذي اضطُرّنا إلى معالجة هذه الألفاظ ضمن التعليق على الحواشي، الظاهر بكثرة في المؤلَّف، وضبط إيقاع النصّ من خلال وضع بعض الإشارات الضرورية لاستقامة المعنى. كلّ ذلك، دون المسّ بروحية النصّ لجهة احترام خصوصية أمير البيان الكتابية والجمالية المميّزة. وهمّنا في ذلك أن نكون قد أخرجنا هذا المؤلَّف إلى النور بكلّ وضوح ومصداقية.

«بيان إلى العرب»، مؤلَّف جديد تضمّه الدار التقدّمية إلى مخزون تراث الأمير شكيب أرسلان الغنيّ، وهو من محفوظات مكتبة معالي الأستاذ وليد جنبلاط، وقد وقعنا عليه بالصدفة، وعملنا على إظهاره إلى النور، تاركين للقرّاء الأعزّاء حرّية الحكم عليه، وعلى الفترة الزمنية المرافقة له، خاتمين بقوله تعالى: ﴿ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نَحْبَه، ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلاً﴾.

الدار التقدّمية

في، ٤ تموز ٢٠٠٩

قراءة في بيان إلى أمّة العرب

بقلم: السفير حسّان أبي عكر

في صيف عام ١٩١٣ تداعى ممثّلو هيئات سياسية واجتماعية وشخصيّات مستقلّة في السلطة العثمانية ومن مصر وأوروبا والمهاجر إلى اجتماع في باريس أُطلق عليه فيما بعد المؤتمر العربي الأول.

وكانت مواقف ومطالب المجتمعين متفرّقة ومتنوّعة تعبر كلّها عن معارضة السياسة التي تنتهجها السلطة العثمانية تجاه رعاياها العثمانيين العرب وتطرح بدائل لإصلاحات سياسية ملائمة يمكن أن تختصر بمبدأ اللامركزية وما يتفرّع عنها من سياسات تطبيقية.

وقد صدر عن المؤتمرِين بيان للأمّة العربية سمّي بـ «بيان للأمّة العربية من حزب اللامركزية». كما صدر عن المؤتمر مجموعة مقرّرات، أهمّها:

- ضرورة تمتّع المواطنين العرب في السلطنة العثمانية بحقوقهم السياسية والمشاركة في الإدارة المركزية اشتراكًا فعليًّا.
- إنَّ الإصلاحات في السلطنة واجبة وضروريّة ويجب أن تنفّذ بوجه السرعة.
- ضرورة نشوء إدارة لامركزية في كلّ ولاية عربية، تنظر في حاجاتها وشؤونها الخاصّة.
- تعريب الإدارة وتعريب التعليم في جميع الولايات العربية.

وحظي المؤتمر العربي لاحقًا لدى الحركة الاستقلالية باهتمام وبإعلام كافيين. ونشرت وثائقه على الملأ كخطوة أساسيّة للانتقال إلى مراحل أعلى في النضال السياسي ضدّ السلطنة العثمانية.

وكانت الجمعيّات العربية قد بدأت تنشأ وتنشط في كلّ من سوريا والعراق والأستانة، وكذلك في مصر وأوروبا، وفي المهجر. وظهر قسم من هذه الجمعيّات علنيًّا في حين بقي الآخر سريًّا، بخاصّة في أراضي السلطنة، ولم تتّضح معالمه إلاّ بعد قيام الحرب العالمية الأولى ومشاركة تركيا فيها.

وقد كان للتطوّر السياسي الذي حصل في مصر منذ وضع البريطانيين يدهم عليها في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، وبداية انتشار أفكار النهضة على يد إصلاحيين مشهورين ـ وكان لهذا الوضع تأثير بارز اقتدى به إصلاحيّو سوريا والعراق ـ فأصبحت مصر موئلاً لطالبي الإصلاح وقاعدة لانطلاق أفكار تختلط فيها العروبة والإسلام ونظريّات التمدّن والحداثة واقتباس مفاهيم قادمة من الغرب الأوروبي.

وفي المقلب الثاني، كانت السلطنة العثمانية تداوي عجزها بمسكّنات وتدابير اعتبرها المسؤولون كافية لوقف النزيف والتدهور، ولإعادة الاعتبار لمظاهر السلطنة والخلافة؛ فأصدرت عددًا من التشريعات القانونية والتدابير الإدارية مثل «مجلس المبعوثان» وبعض الصلاحيّات للولايات.

وإذا كانت الجمعيّات العربية ومطالبها ما زالت في تحرّكاتها السلمية حتّى ذلك الحين، فإنَّ شعوب البلقان قد أخذ بها الشعور القومي مأخذًا استقلاليًّا انتهى بحروب وبانفصال عن السلطنة بعد عام ١٩١١.

كما أنَّ التدخّل الدولي الخارجي خطا خطوة استعمارية جديدة تمثّل باحتلال ولاية طرابلس الغرب الليبية التابعة للسلطنة بعد عام ١٩١٢، وتمثّل كذلك بضرب مرفأ بيروت من قبل البحرية الإيطالية في العام نفسه.

وفي خضم هذه السلطنة، وفي هذا الوضع المتردّي المرافق لها، كان الأمير شكيب أرسلان يخوض السياسة.

فاعتبارًا من عام ١٩١٣ أصبح نائبًا عن جبل الدروز في «مجلس المبعوثان»، خارج حدود متصرّفية جبل لبنان، حيث باشر عمله سابقًا كموظّف عثماني منذ ما يزيد عن عشر سنوات.

وفي عام ١٩١٢ قاد مغامرة مع مجاهدين من جبل لبنان وجبل الدروز توجّه بهم إلى السواحل الليبية عبر مصر لمحاربة التدخّل الإيطالي، ولمساندة مقاومة السيِّد السنوسي. وإذا لم تصل هذه الحملة أبعد من مصر لمنعها من قبل الإنكليز، وإن دلّت على معنى، فعلى الحماس والاندفاع اللذين كانا يجيشان في صدر ذلك المناضل الأربعيني، وعلى حرصه للذود عن أملاك السلطنة. وكان «مولاي السنوسي»، كما كان يسمّيه الأمير شكيب، نموذجًا للمقاومة الإسلامية ضدّ التدخّل الغربي ومحطّ تقدير وإجلال في كتابنا الحالي.

كما ساهم الأمير رسميًّا في حملات الإغاثة في حرب الروملي، كمبعوث من قبل الأستانة بعد عام ١٩١٢.

وكما تقول ملاحظة الصفحة الأخيرة من المنشور الكتاب، أنه توجّه بعد تحريره إلى المدينة المنوّرة لتأسيس مدرسة فيها، تخبرنا وثيقة جديدة موجودة في المركز الوطني في صنعاء، بتاريخ ١٦ كانون الأول ١٣٢٩ هجرية، تتضمّن كتابًا مرسلاً من الأمير شكيب إلى وزير الداخلية العثماني طلعت بك يخبره فيه أنه أسّس جمعيّة إسلامية في المدينة المنوّرة، ويطلعه على جهوده لجمع شمل المسلمين في الجزيرة واليمن، وكذلك في السند والهند، تحت راية السلطنة.

إذًا، ما زال الأمير شكيب مناضلاً عثمانيًّا بامتياز في ذلك الحين. ولم يكن يتصوّر أنَّ ذلك العالم الإسلامي المترامي الأرجاء يمكن أن يكون له كيان دون دولة الخلافة الممثّلة بسلاطين بني عثمان. وفي مقابل الدول الغربية المسيحية، والتي تعلن نصرانيّتها وتفاخر بحضارتها، لا بدّ من دولة إسلامية تجمع شمل المسلمين وتبشّر بتعاليم الإسلام وتفاخر بالحضارة الإسلامية.

كما لا يمكن لهذه الدولة أن تقف بوجه الأطماع الاستعمارية الغربية دون وقوف المسلمين كافّة إلى جانبها. وكلّ دعوة خارج هذا الإطار تعتبر خيانة وتدميراً للخلافة.

هكذا ينظر الأمير إلى الاستقلاليين أو اللامركزيين، وإلى تحرّكاتهم واجتماعاتهم ومنشوراتهم، بخاصّة إذا طلعت من عواصم غربية، وكانت مموّلة من الدول الغربية، كما حصل مع المؤتمرين في باريس. فهو يعمل على تفنيد آرائهم وحججهم: إنّهم «سماسرة الدعوة الأجنبية ويسعون إلى استقدام الأجانب إلى داخل السلطنة بذرائع متعدّدة. كما أنَّ دعوى اللامركزية هي الخطوة الأولى نحو الانفصال».

كذلك يجتهد في الدفاع عن السلطنة ويفنّد أسباب ضعفها، ويضع اللوم الأكبر على العوامل الخارجية المتمثّلة بالأطماع الغربية الأوروبية، والتي تبدأ من المسألة الشرقية التي يعتبرها الأمير مسألة استرجاع الأراضي التي استولى عليها العثمانيون من أوروبا المسيحية. حتّى إنَّ الحروب الصليبية السابقة، هي ذاتها، تحوّلت إلى المسألة الشرقية على حدّ زعمه.

صحيح أنَّ الأمير يعترف بضعف الدولة العثمانية وبتقصيرها، وبضرورة «الإصلاح »، لكنَّ الوقت الذي تتمّ فيه تلك التحرّكات غير ملائم؛ إذ تتعرّض السلطنة إلى اقتطاعات وتعدّيات غربية، كما حصل في الحرب مع البلغار أو في احتلال ليبيا من قبل الطليان.

ويصل في منافحته عن السلطنة في أحد المقاطع إلى القول:

«يمكنني أن أكون عدوًّا للاتّحاديين مع بقائي عثمانيًّا صادقًا عدوًّا لكلّ من يمسّ العثمانية بسوء».

وما يلفت النظر، أنَّ مفهوم العروبة لم يكن قد استوى بعد لدى الأمير. فهو يهزأ من أولئك «العروبيين» ويعتبر قسمًا منهم عملاء، وقسمًا آخر غير ممثّل

للزعامات العربية الأصيلة، ويناضل قسم آخر منهم من مقاهي القاهرة.

وإذا كان شعور العروبة حافزًا للاستقلاليين آنذاك، فإنَّ هذا الشعور لدى الأمير لم يكن إلاّ ردّة فعل على المشاعر الغربية الأوروبية، وتأثّرًا بالصحافة الأجنبية والتبشير. ويتّهم العرب بالغلوّ بالعصبيّات. كما أنَّ النبي محمَّدًا (صلعم) لم يعقل أن تطيعه كلّ العرب لو لم يأتِ نبيًّا مرسلاً إلى الكافّة.

ويركّز على أنَّ الحضارة العربية لم تنتشر إلاّ على يد دول وشعوب غير عربية، ابتداءً من الأيوبيين، وانتهاءً بالعثمانيين.

فالعصبيّة الدينية مقدّمة على العصبيّة الجنسية باعتقاده.

هنا يقف الأمير شكيب في نضاله قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى داعمًا لوجود الدولة العثمانية، ذلك الحائط الوحيد للمسلمين عن المعمور كلّه.

ولسنا في وارد تفصيل مساعي الأمير في سيرة حياته عن تجنيب بعض أعيان المتصرّفية أثناء حكم جمال باشا الاعتقال والإعدام في الحرب العالمية الأولى.

ويحدث أن يوثّق عثمانيته بزواجه من ابنة وجيه عثماني كان مقيمًا في بيروت عام ١٩١٦.

وبعد...

ماذا جلبت نتائج الحرب الكونية للأمير وللاستقلاليين دعاة اللامركزية؟ وماذا حلّ بالفريقين؟

إذا كان الاستقلاليون، كما يسمّيهم الأمير شكيب، قد تبع معظمهم مسار الثورة العربية الكبرى التي انطلقت مع الشريف حسين وأبنائه، ثمَّ بدأوا يداوون إحباطهم بعد اكتشاف مراسلات سايكس ـ بيكو ووعد بلفور، ثمَّ التحقوا فيما بعد بكيانات أسفرت عنها اتّفاقات الإنكليز والفرنسيين السرّية في كلّ من سوريا

الفيصلية وإمارة شرقي الأردن وإمارة الحجاز، ثمَّ المملكة الفيصلية في العراق، إذا كان هذا قد حصل مع الاستقلاليين، فإنَّ الأمير شكيب لم يقطع مع ماضيه ولم تفرغ يده نهائيًّا من سلطنته إلاّ بعد انحراف الاتّحاديين عن الماضي الأمبراطوري العثماني.

فبعد عام ١٩٢٢ تمّ إلغاء الخلافة، وتحوّلت السلطنة إلى جمهوريّة تركية بعد مؤتمر لوزان، ثمَّ أسفرت عن وجهها العلماني والأوروبي فلم يبقَ من ذلك الماضي الأمبراطوري إلاّ الذكريات والبطولات... وبطاقة هويّة لسلطنة بائدة!

ولكنَّ الأمير لم يعترف كذلك بما استجدّ في تركيا، كما لم يعترف بالكيانات التي أنشأها البريطانيون والفرنسيون، فراح يهاجم الاتّحاديين السابقين، الذين دافع عنهم في كتابنا الحالي ووجد لهم المبرّرات حينذاك. واعتبر أنَّ توجّههم الجديد لا يقلّ خسارة عن خسارة الحرب! وبقي يمتدح ماضي السلطنة: إذ «لم يعهد أنَّ دولة بلغت مدى هذه الدولة من جهة إعطاء الحرّية للأديان والألسنة».

أخيرًا، علينا أن ننتظر تلك التغيّرات اللاحقة لنرى تغيّرًا جديدًا في فكر وفي ممارسة الأمير السياسية، يتمثّلان في تصويب الاتجاه نحو العروبة والجامعة الإسلامية، وذلك في مؤلّفات ومقالات كثيرة لاحقة تناولت هذا الموضوع بجلاء بيّن ومنصف.

وما تجدر ملاحظته ختامًا، أنَّ الأمير حين تحدّث بإيجاز عن المؤتمر العربي في سيرته الذاتية بعد عشرين سنة، فإنّه كتب عنه بنبرة هادئة وبأسلوب تصالحي مع الاستقلاليين السابقين الذين عاد ليتابع مع بعضهم مسيرة النضال السياسي، كما لم يأتِ على ذكر الردّ المطوّل الذي وضعه آنذاك.

صنعاء، في ٢٠٠٨/١١/٩

السفير حسّان أبي عكر

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على النبي العربي الكريم

وبعد، فإنّه ما زال التنافس من شأن النفوس البشرية، ينافس الأخ أخاه، وكلاهما ابن عمّه، والبطن الواحد من العشيرة البطن الآخر، والقبيلة الواحدة القبيلة الثانية وهما من شعب واحد، وأرومة فردةٍ، وعلى مذهب جامع، وإلى غاية غير مختلفة. وقد امتازت الأمّة العربية، وهي أمّة واحدة بين جميع الأمم، بالغلوّ في العصبيّات والتمسّك بالكلالات؛ فهي تجعل هذا الأمر فوق كلّ أمر، وتجد من غضبها لأنسابها وحميّتها لأصولها ما لا تجده في أمّة أخرى من الأمم الشرقية ولا الغربية، وما ترى الغارات لأجله متّصلة، والثارات غير نائمة لحظة إلى يومنا هذا، فهذه سنّة الله في خلقه، على تفاوت في درجات التمكّن، غلب سلطانها على الأمم البادية ولم تخلص من تأثيرها الأمم الحاضرة، بل الأمم المتمدّنة الراقية، فترى في أوربا أشدّ المناظرات قائمًا بين أقسام الشعب الواحد الذي تجمعه جامعة واحدة ويظلّله لواء فرد، نظير الممالك الألمانية، ونظير النمسا والمجر، ونظير غيرها من الممالك التي تنطوي أحشاؤها على نزاع كثير، ولا يأخذ بحجزاتها عن إعلان الانفصال سوى الخوف من شرّ أعظم والاستهداف لسهم أنفذ، بل تجد الدول العظام، التي بينها من الأحن القديمة العصور والحزازات المتراكمة في الصدور، ما لا يكاد يسعه التاريخ، قد سبقت إلى الاتّحاد من جهة أخرى حفظًا للتوازن الذي هو أقوى شرط للسلام، ودفعًا لتسلّط الراجح على المرجوح، وهي في الواقع ماشية في ذلك على حدّ قول القائل من شعراء الحماسة:

وذوي ضبابٍ مضمرين عداوةً ... قرحى القلوب معاودي الأفناد
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم ... وهُمُ إذا ذكر الصديق أعادي

كيمـا أعـدهـم لأبعـد منهم ولقد يجـاء إلى ذوي الأحقاد

ولقد وجدت السلطنة العثمانية أكثر الممالك أجناسًا، وأحصاها طوائف، وأغربها عناصر، وفيها العرب والترك والكرد واللاز والأرناؤوط والروم والأرمن واليهود وغيرها، وكلّ من هذه الشعوب قائم بنفسه، مستقلّ بلغته، حافظ لقديمه، متمسّك بأحاديثه وتواريخه، لم تكن الدولة العليّة، أيّدها الله، لتزعجه في شيء من جهة قوميّته، ولم يعهد أنَّ دولة بلغت مدى هذه الدولة من جهة إعطاء الحرّية للأديان والألسنة حتّى جعل كثير من علماء الاجتماع ذلك هو السبب في كثرة مشكلاتها وتوالى فتوقها، وما أنهك قواها من مصائبها.

وبديهي أنَّ اختلاف الأديان واللغات وافتراق الأصول والأجناس هما ممّا يُورث المناظرات والمنافسات، ويقف حائلاً دون الالتحام التامّ والالتئام الذي يكمل به النظام، وممّا يُوجِد الوحشة بين القلوب ويمنع أنسة الأجناس بعضها ببعض، فلذلك طرأ على عصبيّة الدولة العثمانية من الوهن وداخلها من الاسترسال ما تظهر لنا آثاره يومًا بعد يوم، وما، لو كان في مملكة أخرى، لانحلّ نظامها وانتثر سلكها ودخلت في خبر كان منذ أزمان، ولكن الذي نسأ[1] في أجَل الدولة العثمانية مع ما هي مصابة به من أمراض الداخل ومحاطة به من دسائس الخارج، هو كون مادّتها الكبرى هي الإسلام، وأنَّ المسلمين مهما افترقت أجناسهم وتباينت لهجاتهم يجمعهم الدين جمعًا لا يجمع أمّة غيرهم، ويزيل من الفروق العميقة والأبعاد السحيقة بينهم ما لا يزيله شيء، وأنَّ المسلم العربي يرى المسلم التركي والمسلم الأرناؤوطي أخًا له نظير أخيه العربي بدون فرق، عملاً بمحكم الكتاب الذي نزل فيه ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾، واقتداءً بسنّة الشارع الأعظم (ﷺ) القائل: "ترى المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كالجسم الواحد إذا تألّم منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".

وكذلك غلبت العصبيّة الدينية في الإسلام على كلّ عصبيّة سواها وطمستها، فلا تكاد تجد لغيرها أثرًا بين المسلمين؛ لأنَّ هذه الشريعة السماوية، وإن جاء بها

(١) بمعنى "أخر".

أعرب العرب، ونزل كتابها بأفصح لغات العرب، هي شريعة تامّة مبنيّة على المساواة التامّة وبعيدة عن الأثرة الجنسية وصاحبها يقول: ليس منّا مَن دعا إلى عصبيّة. ويقول أيضًا: إنّما بعثت إلى الأحمر والأسود. ولو كان في الإسلام أدنى أثر للأثرة الجنسية ما انتشرت شريعته في الأرض، ولا اتّبعها الأحمر والأسود، ولا ضربت من المشرق إلى المغرب، حتّى ولا اجتمع عليها العرب أنفسهم الذين هم قبيلان كبيران متناظران متنافسان، قحطان وعدنان، فإنَّ الأثرة الجنسية كان يمكن أن تلقي العداوة والنفاسة لقحطان على عدنان بمكان هذه من قرابة النبيّ (ﷺ)، وكونه من سرة بطحاء قريش، والعرب أشدّ الناس حميّة للعصبيّات، فلا يعقل أن تطيعه العرب بأجمعها لو لم يكن نبيًّا مرسلاً إلى الكافة، ناشرًا دعوة المساواة، صادعًا بآية: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، ولو لم يكن نزل عليه من ربّه: ﴿ما كان محمَّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله﴾.

فكون الشريعة المحمَّدية السمحاء شريعة عامّة للبشر، مبنيّة على أتمّ المساواة، سائرة في أمور الدنيا على قاعدة العدل الذي يوفّر لكلّ أحد حقّه بدون نظر إلى أصله وفصله، وفي أمور الآخرة على قاعدة تقوى الله تعالى الذي يحاسبهم بأعمالهم يوم لا أنساب بينهم ولا يتسآلون، هو الخصلة الكبرى التي نشرت هذه الشريعة في مشارق الأرض ومغاربها حتّى دان بها إلى يومنا هذا أكثر من ثلاثمائة مليون نسمة من بني آدم، لا يعلم الواحد منهم نفسه مسلمًا حتّى يرى نفسه متحقّقًا بأخوّة مُحكمة متينة العرى تربطه بهؤلاء الثلاثمائة مليون من أصناف السلائل البيضاء والسوداء والصفراء، يشعر شعورهم في السرّاء والضرّاء، ويشاطرهم وجدانهم في الشدّة والرخاء، وهذا المبدأ المقدّس هو هو الذي في صدر الإسلام جمع هذه الأمّة العربية مع إغراقها في تقديس عصبيّاتها وإطاعتها دواعي أحقادها على كلمة واحدة، خرجوا بها من هاتيك الجزيرة القاحلة ففتحوا الأقطار ودوّخوا الأمصار، وملكوا ما وراء البحار، ووطئوا مناكب الملوك الكبار، وثلّوا عروش كسرى وخاقان وقيصر، وورثوا أراضي العجم والروم والزنج والبربر، ولو لم تتلاشَ العصبيّة الجنسية بالعصبيّة الدينية

لبقي العرب محصورين في جزيرتهم، لا تعلم بهم الأمم ولا يذكرهم التاريخ إلاّ لماماً، ولكانوا إلى يومنا طرائق بدداً خضعاً رقابهم لعدوّ يأتيهم من طرف العراق بأسم كسرى ومن طرف الشام بأسم قيصر. فقد ذكر المؤرّخون، ومن جملتهم ابن الأثير الجزري، أنَّ العرب لمّا قصدوا بلاد الفرس بعد الإسلام، ما زالت الفرس تقول لهم عند محاورتهم ومراسلاتهم في حروبهم: كنتم أقلّ الأمم وأذلّها وأحقرها. ثمَّ إنّه لمّا ملكت الحبشة اليمن وهزموا ذا نوّاس مَلِكها، قتلوا ثلث رجالها وأرسلوا ثلث سباياهم إلى النجاشي. ولمّا اختلف أرياط، قائد جيش الحبشة، مع أبرهة الأشرم الحبشي وتبارزا، وحمل عتودة، غلام أبرهة، على أرياط فقتله، قال له أبرهة: احتكم. فقال: لا تدخل عروس على زوجها من اليمن حتّى أصيبها قبله. قال ابن الأثير: فبقي يفعل بهم هذا الفعل حيناً، ثمَّ عدا عليه إنسان من اليمن فقتله. وأخيراً، لمّا لم يقدر العرب على دفع الحبشة عن اليمن، وفدوا على كسرى أنو شروان يستنصرونه على الأحباش، ويطمعونه في مُلْك اليمن وكثرة مالها، فاعتذر لهم بصعوبة المسالك. ولمّا وفد النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند، ودارت المفاخرة بين الأمم، قال كسرى: يا نعمان، لقد فكّرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم فوجدت الروم لها حظّ في اجتماع إلفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها، وأنَّ لها ديناً يبيّن حلالها وحرامها ويرد سفيهها. ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبّها، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعاتها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيّتها وهمّتها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وأنَّ لها ملكاً يجمعها. والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش وقلّة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضمّ قواصيهم وتدبّر أمرهم، ولم أرَ للعرب شيئاً! (إلى أن يقول) ما خلا هذه التنوخية التي أسّس جدّي اجتماعها ومنعها من عدوّها، وإنَّ لها مع ذلك آثاراً ولبوساً[1] وقرى وحصوناً تشبه بعض أمور الناس، يعني اليمن، إلى آخر ما

(١) دروعاً.

قال، فأجابه النعمان عن كلّ ذلك وقال له عن مسئلة[1] تحارب العرب وأكْل بعضها بعضًا، إنّه يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم، وأمّا العرب، فإنَّ ذلك كثر فيهم حتّى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكًا أجمعين، مع أنفتهم من أداء الخراج. وأمّا اليمن التي وصفها الملك، فلمّا أتى إلى جدّ الملك مَن أتاه من اليمن عند غلبة الحبشة له على ملك متّسق، وأمر مجتمع، فأتاه مسلوبًا طريدًا مستصرخًا، ولولا ما وتر[2] به مَن بليه من العرب، لَمَال إلى مجال، ولوجد مَن يجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار، انتهى.

ومن مثل هذا يظهر ما كان مَن تفرّق أمر العرب قبل الإسلام وتغلّب الأمم عليهم، ولم يكن مقصدنا من نقل هذه الأمور تصغير شأن العرب الذين نفتخر بكوننا منهم، ونعتقد أنهم خير أمّة أخرجت للناس نسبًا وحسبًا وصفاء قريحة ووفاء سجيّة وعلوّ همّة، ولكن قصدنا أن نظهر درجة ما أبرز الإسلام من معادنهم النجيبة التي كانت محجوبة بظلمات الجاهلية، وأنه نقلهم من الحضيض الأوهد إلى السنام الأمجد، وأنه لولا الإسلام لبقوا ممزّقين كلّ ممزّق، وحقًّا لولا اتّساع فلواتهم الضاربة في شمالي جزيرتهم بالمفاوز والسباسب[3]، والمتّصلة إلى باطن بلادهم بالمعاطش والمجادب[4]، لكانوا قد أصبحوا تحت استيلاء الأمم المجاورة لهم، وكانوا ضربوا عليهم الذلّ والمسكنة كما ملك الحبشة السود اليمن، وهو أعمر إقليم لهم، وأقدمه ملكًا، وأحصن بلادهم موقعًا، وأصعبها مرتقى. فبعد أن كان مثل الأحابش من سود أفريقية يغزون العرب في عقر دارهم ويقومون في وسط أوطانهم من صعارهم[5]، ويهدّدون كعبتهم بفيلتهم، ذلك بعدم انتظام كلمتهم وبتفرّق أهوائهم، جاء الإسلام فجعلهم، بوحدته الدينية وبنهيه عن العصبيّة، أمّةً واحدة وكتلة فردة،

(١) مسألة.

(٢) شدّ، أو علّق وترًا.

(٣) الأرض المستوية البعيدة.

(٤) المقصود هنا الصحراء.

(٥) كِبَرهم.

اندمج فيها المصري باليماني، وامتزج القحطاني بالعدناني، فكانت أعراف السعد ذالّة لهم، ومناكب المجد موطأة لأقدامهم، وأبواب الفتوح مشرّعة أمامهم، وصارت الأمم الحاكمة عليهم خولاً لهم وأتباعًا، وأصبح الحبش لهم عبيدًا. ولمّا ضعفت فيهم الملكة الدينية، وبَعُدَ عهدهم بعصر النبوّة وبخلافة الراشدين، عادت تحيا فيهم عصبيّات الجاهلية وتتجدّد مناظرات القيسية مع اليمانية، حتّى عاد بدرهم عرجونًا[1]، ورجع كوكبهم نورًا ضئيلاً. ومع هذا، فإنَّ الإسلام كان أثر تأثيره في العالمين ودخلت فيه الأمم أفواجًا، ووجدوا في شريعته من آثار عدم الإيثار ما زادهم فيه رغبة وعليه إقبالاً، فلمّا ضعف العرب بتشظّي[2] عصاهم[3] عن الاستقلال بحمايته، قام مقامهم الترك والديلم والجركس والعجم، وغيرهم من الأمم، فلم يكن لعربي أن يعترض على خضوع المسلمين، حتّى العرب منهم، لسلطان من غيرهم، ما دام قائمًا بأمر الإسلام، حافظًا لحدود شريعة سيِّد الأنام. وكانت في الإسلام، منذ القرون الأولى، دول في الشرق كالدولة البويهية، والدولة السامانية، والدولة الغزنوية، والدولة السلجوقية، والدولة الأيوبية، قد فتحوا الفتوحات ونشروا كلمة التوحيد في قاصية الأرض، ووقف كثير منهم مواقف الخلفاء الراشدين والأئمّة المهديين؛ وكذلك في الغرب قامت دولة المرابطين العريقة في البربرية، فكان لها من الأثر في الذبّ عن بيضة الملّة والنشر لكلمة الإسلام في المغرب والأندلس ما لا يحتاج إلى بيان في مثل هذه العجالة.

ولو لم تكن عصبيّة العرب الدينية هي الغالبة، ولو كان قد قام العرب ينافسون اَبن سلجوق لكونه تركيًّا، واَبن أيوب لكونه كرديًا، واَبن تاشفين لكونه بربريًّا، وأوصى علماؤهم بخلع طاعة هؤلاء الملوك لمخالفتهم لهم في الجنس، أو سمحوا بنقض بيعتهم، أو قيل لأهالي مصر والشام ما لكم تطيعون هذا الكردي وأنتم عرب وهو ليس منكم ولا ممّن يفتخر بقحطان. بل ممّن يعتزّ بالإسلام؟ لكان وقع

(١) وهو أصل الغِدْق (الثمر)، الثمر الذي يعوجّ ويبقى على النخل يابسًا. والمعنى هنا "أفل"، لأنَّ لون العرجون يميل إلى لون الدم أو الزعفران، هو اللون عينه الذي نراه عند مغيب البدر. (المحقّق)
(٢) بتفرُّق.
(٣) اجتماعهم وائتلافهم.

الخلف وتفرّقت الكلمة، ولكان الإفرنج أخذوا جميع بلاد الإسلام، وغير الإفرنج أخذ الباقي، وصيّروا المسلمين خولاً وطمسوا معالم الإسلام من كلّ بقاع الأرض، وصارت هذه الأمّة أثرًا بعد عين، وربّما قال بعض أولئك الذين نعلم ما هي مبادئهم وما ذا هناك من المصيبة بزوال الإسلام وسيبقى لنا قحطان؟! وما أشبه ذلك من الأقاويل، فعندها نقول لهؤلاء: نحن إنّما نتكلّم مع مَن يريد أن يبقى مسلمًا، فأمّا الذين يقولون علنًا إنّنا نحن نفضّل عربيّتنا على الإسلام، وإنّنا نحن عرب في الدرجة الأولى ومسلمون في الدرجة الثانية، كما أخذ يشيع ويذيع الآن ولو كان ذلك القول خلافًا للشرع، فلا كلام لنا معهم حينئذٍ؛ وإن أردنا أن نجود عليهم بجواب، قلنا لهم: إنّه لولا أولئك الملوك الذين أسلموا من الترك وسائر الأعاجم، لم يكن فقط سقط الإسلام، بل لسقط قحطان الذي تفتخرون به نفسه، وأصبح مَن ينتمي إليه أذلّ من النقد، نقول لهم ذلك ولو ثقل عليهم الأمر، لأنَّ الحقيقة مقدّمة على كلّ شيء ﴿والحقّ من ربّك فلا تكونن من الممترين[1]﴾.

لو قال عرب الأندلس، أصحّ العرب الطارئين على الآفاق نسبًا، للمعتمد [بن المعتضد] بن عبّاد صاحب أشبيلية: ما لك تستصرخ ذلك البربري الذي لا يفقه من العربية حديثًا، وهو إذا ملك الأندلس انتزع من يدك ملكك؟ وأطاعهم ابن عباد في هذا القول لمّا كان ظهر المسلمون في وقعة الزلاقة ذلك الظهور الهائل، ولمّا تأخّر إخراج المسلمين من الأندلس مئات من السنين، ولكنَّ ابن عباد العربي القحطاني اللخمي اليماني آثر دينه على دنياه وفضّل أن يأخذ بلاده البربر، وهم مسلمون، على أن يبقى هو تحت سيطرة الإفرنج ولو ملكًا، وقال: فإن كنتُ مأكولاً فكن أنتَ آكلي. ورُوي عنه تلك الجملة السائرة عندما نبّهوه إلى ما يخشى عليه من ذهاب ملكه لو استصرخ أفريقية، وهي: «رعي الجمال خير مَن رعي الخنازير».

بلغت الوحدة الدينية بالمسلمين أنَّ التتار الذين خرّبوا جميع بلاد الإسلام في المشرق، عندما دخلت ملوكهم في الإسلام أطاعوهم حالاً إطاعتهم للأئمّة من

(١) المتساقطين.

قريش، بناءً على كون الإسلام يجب ما قبله كما لا يخفى، وأنه كان يأتي المملوك الذي أصله جركسي، بل رومي أو أرمني، فينشأ في الإسلام ويقرّبه مولاه ويقدّمه حتّى يصير وزيرًا، ثمَّ إذا مات مولاه بدون عقب بويع مكانه سلطانًا، فكان من هؤلاء المماليك دول عظيمة ونبغ منهم أعاظم الرجال، ولا سيّما في مصر، كالظاهر بيبرس وابن قلاوون، وغيرهما ممّن لهم الآثار الباهرة في إحياء المدنية والمواقف الجليلة في دفع الأعداء عن بلاد الإسلام وحسبك أنهم رضوا بإمارة كافور الأخشيدي، وهو خصي أسود من أبناء حام، ولم تثقل عليهم إمارته ما دام قائمًا بأمر الدين، ذلك عملاً بمبدأ المساواة المطلقة الذي وضعه القرآن الكريم، واقتضاءً لسياسة نبيّنا (ﷺ): «أطيعوا مَن وُلّي عليكم ولو عبدًا حبشيًّا رأسه زبية[1]» وبالجملة، فلم يَدرْ في خلد أحد أن يخلع بيعة هؤلاء الملوك الذين كانوا مماليك، والذين أصل كثير منهم إمّا من الروم أو من الأرمن، ما داموا قد نشأوا في حجر الإيمان وشبّوا على خدمة هذه الدعوة، فكانت العرب تنقاد لهم انقيادها لساداتها وأمرائها وتحوط بهم شملها، وتصل حبلها، لا لجهلها بأنسابهم وأصولهم، بل لأنَّ الإسلام محا كلّ عصبيّة جنسية من أهله وقام هو مقامها.

إذا كان هذا شأن الملوك من أبناء المماليك الذين لا يُعرف لهم أصل ولا منبت أسلة[2]، فما قولك بأسرة آل عثمان، أقدم أسرة مالكة في هذا العصر؟ وهي التي حاطت الإسلام منذ ستّمائة سنة وقامت بدفع دول أوروبا عن المشرق بأسره منفردة بنفسها. قد اتّفق[3] عليها دول النصرانية تسعًا وأربعين مرّة، مثنى وثلاث ورباع وخماس، وكان العجم في أيام الدولة الصفوية، ومن بعدهم، يهاجمونها من الوراء عند كلّ حرب صليبية تصليها[4] عليها أوروبا، وهي تقوم في وقت واحد بدفع أعداء الإسلام من الأمام، ودفع العجم من الوراء، وقمع الفتن الداخلية من الوسط، وتوغل

---

(١) الزبية: رابية لا يعلوها ماء، حفرة. (المحقّق)

(٢) جمعها آسل، وهو نباتٌ دقيق الأغصان يُتخذ منه الغرابيل بالعراق.

(٣) اتّفقت.

(٤) تدخلها إيّاها.

في الفتوحات حتّى تبلغ عاصمة النمسا، وحتّى ينزل جنودها في سواحل إيطاليا، وفي نيس من فرنسا، فلا جرم أنَّ دولة هذه آثارها في حفظ البيضة المحمَّدية لا تكون إلاّ محمودة. بل مقدّسة عند العرب الذين درج هذا الدين من وكرهم وترعرع في حجرهم؛ فأحبُّ الملوك إلى العرب من نصر هذه الدولة التي أصلها من العرب، ومرجع قوّتها إلى العرب، وإلى مَن دانوا بدين العرب. ومَن قرأ تاريخ آل عثمان علم أنَّ لهم من تعظيم شعائر الدين ومن التمسّك بحبال الدعوة المحمَّدية ما لم يَفُتْهُم فيه أحد من ملوك العرب أنفسهم، بل ما فاتوا هم فيه الجميع، حاشا الخلفاء الراشدين. ومن شاء أن يعلم درجة خدمتهم للحرمين الشريفين وبرّهم بأهل الحجاز، فليقرأ تواريخ علماء العرب، كـ «تاريخ الفتوحات الإسلامية» لخاتمة المحقّقين، لسان الصدق، السيِّد أحمد دحلان المكّي، الذي لا يجسر أحد أن يتّهمه بالملق ولا بالمبالغة، ولهذا حامت حول بني عثمان قلوب جميع المسلمين، عربًا وعجمًا، والتفّت عليهم وشائج القلوب والأفئدة، وتوسّموا في دولتهم مجد الإسلام وسعادته منذ كانوا بعد في الروملي والأناضول. وكان الغوري سلطان مصر يقول: أنا لا يهمّني الإفرنج، لأنهم إذا زحفوا إلى بلادي كان الإسلام كلّه معي، ولكن أخوفُ ما أخاف هو من ابن عثمان الذي لو قصد بلادي مال إليه المسلمون ولم أقدر أن أستعديهم عليه. وقد كان الغوري عند خوفه من ابن عثمان، لأنه لمّا سار السلطان سليم لفتح البلاد العربية، ألقى أهلها إليه بالمقاليد وتلقّوه برًّا وترحيبًا، ونزل له الخليفة العبّاسي الباقي [الذي] كان بمصر عن الخلافة الكبرى، واتّفقت الأمّة الإسلامية على مبايعته بالأمر الأعلى الذي لا يقوم إلاّ بمثل عصبيّة ابن عثمان في وقته؛ ولا تزال هذه العصبيّة إلى يومنا هي العصبيّة الوحيدة التي يمكن إسناد هذا الأمر العظيم إليها.

طالما نفخ المفرّقون في نفير العصبيّة الجنسية، وحالوا إثارة العرب على الدولة بحجّة أنها دولة تركية، واتّخذوا من حوادث الزمان أسبابًا، ومن غلطة بعض إخواننا الأتراك أوتادًا، وأرادوا تغليب العصبيّة الجنسية على العصبيّة الدينية، وأن يوقدوا هذه الفتنة بين ذينك الشعبين الكبيرين اللذين هما قوام الدولة الإسلامية، فصدّهم

عن ذلك، لا حبَّ العرب لسواد عيون الترك، ولا ذلَّهم لسطانهم، وهم أقلّ الأمم قرارًا على الضيم وأسرعهم إلى السيف، ولكن حبّهم ببقاء الخلافة الإسلامية، وخوفهم من تسلّط الأجانب عليهم؛ يمحون استقلالهم، ويعارضونهم في أعزّ شيء لديهم، وهو دينهم، ويسومونهم سوء العذاب، ويبتزّونهم أراضيهم ومرافق بلادهم بالطرق المتنوّعة والحيل المتعدّدة، فآزروا الترك الذين لا تجمعهم معهم إلاّ رابطة الدين على الأوربيين الذين لا تجمعهم وإيّاهم رابطة ما، والذين يُخشى منهم على الدين والدنيا معًا، وما أكثر الشواهد على ذلك بين أيدينا!

وعلى فرض أنه كان هناك مهانئ من العيش البهيمي تحت سلطة الأجانب، وهو ما لا يزال يمنّي به سماسرة الدعوة الأجنبية أهالي البلاد العربية منذ قديم، فإنَّ الاستقلال مع الفقر خير من الاستذلال مع الثروة، وإنَّ الاستقلال هو الحياة الحقيقية وهو مصدر العزّ والقوّة ومنجم المال والثروة وأصل الصدق والفضيلة، وإنَّ الأمر لَكَما قال السيِّد جمال الدين الأفغاني، غفر الله له، وهو أنَّ شرف النفس يقودها لاختيار الموت الفاضل على الحياة تحت سلطة أجنبية، وإن اقترنت برغد العيش وطيب المطعم والمشرب.

ولنجتزئ من الشواهد كلّها بمثل طرابلس الغرب التي يعلم كلّ أحد أنها كانت أشدّ ولايات الدولة فقرًا، وأعظمها إهمالاً، وطالما استغاث أهلها بالباب العالي طالبين تحكيم أسباب دفاعهم، وتحصين ثغور بلادهم، وإمدادهم بالسلاح والعدّة، وتدريب شبّانهم على الحركات الحربية، وطالما كتب عمّال الدولة أنفسهم إلى الأستانة بوجوب تأسيس معامل للخرطوش في نفس البلاد خوفَ أن تسطو عليها دولة بحرية، فيحول دونها ودون الدولة المتبوعة، لضعف الأسطول العثماني اليوم، فذهب كلّ هذا الصريخ صرخة في وادٍ، ونفخة في رماد؛ فكان أهل طرابلس الغرب أحقّ رعيّة الدولة بالنفور منها والحقد عليها، وكانت أحوال بعض عمّال الحكومة العثمانية ممّا يزيد لها البغضاء ويوجب الجفاء. ورأى الطليان هذه الحالة هناك، فتوهّموا أنهم يستثمرونها لفائدتهم، وأنهم يوقدون نارها لهداهم، وأنفقوا الأموال. واشتروا ذمم

الرجال، وسعى بعض سماسرتهم من أبناء ذلك الوطن بأخذ تواقيع بعض الرؤساء والمشايخ بقبول سيادة إيطاليا، كما يسعى الآن، ويا للأسف، ويا للخجل، بعض سماسرة سورية لاستجلاب قلوب المسلمين إلى جهة فرنسا، ويسعى آخرون باستمالتهم إلى إنكلترة، وكلّ فئة لها جواسيس وروّاد وسماسرة على البلاد.

فماذا ظهر بعد ذلك لإيطاليا وغير إيطاليا؟ ظهر أنه لمّا أجلبت إيطاليا على طرابلس، ووصل أهلها إلى حيّز العمل، ونظروا فرأوا عَلَم الهلال قد غاب عن أبصارهم، وحلّ العَلَم الإيطالي محلّه، بكى منهم حتّى النساء، ونهضوا بدون زاد ولا سلاح، وقالوا: مهما بلغ من بغضنا للأتراك، فإنّهم إخواننا في الإسلام، ومهما أهملتنا الدولة بغرور بعض رجالها، فلن يحملنا ذلك على ترك وطننا للأجنبي انتقامًا من الدولة، وما زالوا يكافحون الطليان في إقليمَي طرابلس وبرقة منذ ٣٦ شهرًا، ولم يسكنوا في إقليم طرابلس طوعًا إلاّ من نفاد العدّة والذخيرة، كما أنهم في برقة لا يزالون إلى ساعتنا هذه يجاهدون في عدوّهم الذي يربي عدد عسكره على ثمانين ألفًا، وهم في أشدّ حال من الجوع والحاجة إلى كلّ شيء، وذلك كلّه بفضل السيِّد السنوسي الكبير الذي أبى أن يسلّم وطنه إلى العدوّ المعتدي، وفيه، وفي العصابة السنوسية الفاضلة رمق من الحياة.

كم حاول الطليان في أثناء هاته السنوات أن يستميلوا عرب طرابلس وبرقة، وأن يخدعوهم بالأماني والمواعيد، وأن يستسلوا حقودهم بالعطايا والألطاف، فلم يقدروا أن يملكوا قلوبهم، ولا أن ينزعوا ما فيها من غلّ عليهم، حتّى ولا أن يسلوهم محبّة الدولة العثمانية التي سلطانها يقول: لا إله إلاّ الله محمَّد رسول الله، ويتولّى القبلة الشريفة كما يقول، ويتولّى عرب طرابلس وسائر العرب.

جميع السادة السنوسية يروون عن مؤسّس طريقتهم العالية سيدي محمَّد بن علي السنوسي، جدّ سيدي أحمد الشريف، الأستاذ الحالي، أنه رأى النبي (ﷺ) في المنام، فقال له: ما قولك يا رسول الله في بني عثمان؟ فرفع رسول الله بيده الشريفة

بساطًا ظهر من تحته باب جهنّم بأهوالها، فقال له: هذا مقعد مَن يريد بالدولة العثمانية سوءًا، والذي، نفس محمَّد بيده، ما رأيت لهذه الأمّة أرحم من بني عثمان!

سيقول أولئك الجماعة من المفرّقين المكذّبين المستهزئين بالدين وآياته، كما تدلّ عليه كتاباتهم، وتنمّ حركاتهم وأقوالهم، أفنبني أحكامنا على المنامات ونحن الآن في عصر الحقائق؟! فنجاوبهم على هذا، بأنهم إن لم يكونوا مؤمنين بصحّة الرؤيا، مثل رؤيا ذلك الوليّ الصالح لجدّه المصطفى (ﷺ)، فإنّه لا بدّ لهم من التسليم بأن تناقل هذا القول بين السنوسيين، وعملهم به الظاهر المحسوس إلى اليوم، وإلى ما شاء الله، دليل واضح على كون افتراق غرب أفريقية عن الدولة العثمانية، بالجنسية، لم يكن له تأثير في شدّة ارتباطهم بها، وأنهم يرون هم بهذه العين مباءة[1] مَن يكره هذه الدولة، ويعدّون مقعده جهنّم وساءت مصيرًا.

فالشيخ السنوسي الذي يسمح له هؤلاء الدعاة الأدعياء إلى العربية بأن يكون عربيًا، والذي نظنّهم يحكمون لقومه بالأهمّية مع استقلالهم وحدهم بدفع دولةٍ قاعدةٍ في صفّ الدول السبع العظام، هو الذي يدعو جميع عرب أفريقية إلى تفدية الدولة العثمانية بأنفسهم وأموالهم، وإيطاليا قد عرفت ذلك، وعلمت أنها عندما صدّقت بأنَّ العرب يكرهون الترك، لم تكن إلاّ في غرور، وفرنسا نفسها تقرّ بأنَّ جميع تبعتها من المسلمين يسؤوهم ما يسوء الدولة العثمانية، ويسرّهم ما يسرّها، وأنه لا شيء يفكّ عروة حبّها من قلوبهم؛ مع أنَّ عرب شمالي أفريقية اليوم، ومَن جاورهم من البربر المستعربين، لا يقلّون عن ٢٠ مليونًا، وهم جميعًا بهذه الدرجة من الارتباط بالدولة العثمانية، فهل يسمح لنا السادة المصلحون، دعاة اللامركزية، وورثة علوم حمورابي، بأن نعدّ هذه العشرين مليونًا عربًا، أم يسقطونهم من عداد العرب كما أسقط بنو العبّاس نسب زياد بن أبيه من دفتر قريش؟ ولا يبقى معدودًا في العرب إلاّ بعض من أصلهم ترك أو جركس، وروم أو أرمن، وهم، لو كانوا عربًا؛ مع هذا لا همّة لهم إلاّ في صدع البيضة الإسلامية التي إذا انصدعت، لم يبقَ هناك

(١) منزل.

عرب ولا عجم، وأخنى على الجميع الذي أخنى على لُبَدِ[1].

ما زالت أوربا منذ قرون تقابل الدولة العثمانية من أمامها، ومن عن يمينها وعن شمالها، وتناجزها الحروب، صليبية وسياسية وتجارية، وتهاجمها منفردة ومجتمعة، فكان للدولة في البداية الكرّة على أوربا، والريح الهابّة في البحر المتوسّط، وكان الأعداء يكافحونها كفاح الضعفاء الذين، عدا تماسك بعضهم ببعض للمقاومة، كانوا يلجأون إلى إثارة الفتن في داخل بلاد عدّوهم، ليشغلوه عنهم، فكانوا يدسّون الدسائس، تارة في البلقان، وطورًا في سورية، وأحيانًا في بلاد العرب، ويمدّون أيدي المصافحة إلى العجم. وكانت الحروب، داخلاً وخارجًا، تتوالى على هذه الدولة الفريدة الغريبة في أوربا إلى أن أفقرت دمها، وأنهكت، مع تتابع الأعصر على هذه الحال، قوّتها، واستغرقت أموالها في الإعدادت الحربية، وحالت دون ترقّيها في العلوم والصناعات، وأخذ السيف حصّة القلم، فغلب على الأهالي الجهل، وخبا نور العلم، فضعفت التربية العامّة، وانقرض الأعلام الذين يحثّون على الفضائل والمكارم؛ فنزلت الهمم، وفترت العزائم، وعمّ فساد الأخلاق، وصار الضعف يجلب بعضه بعضًا، وكلّما آنست أوربا فينا ضعفًا من جانب، حملت علينا حملة شعواء خلال الضعف، واتّخذت قاعدة سارت عليها، ولا سيّما أمّة السلاف[2]، وهي عدم إمهالنا أن نلمّ شعثنا ونرأب صدعنا أبدًا، لئلاّ نرتاش ونقوى وتصعب إزالتنا من الوجود؛ فيقال إنَّ بطرس الأكبر، عاهل الروسية، أوصى بحربنا كلّ مدّة ٢٠ سنة، وقد قام السلاف بهذه الوصيّة تمامًا، فضلاً عمّا قام به غيرهم من أصناف الأوربيين. فكان ضعفنا بهذه الوسيلة متّصلاً، وسكوننا محالاً، وكان توفّرنا على نشر المعارف في بلادنا كما هي في بلاد غيرنا متعذّرًا، وصارت بلادنا ميدانًا للفتن والهزاهز، وصار الأوربيون يسمّون هذه الحالة بالمسئلة[3] الشرقية، والحقيقة أنها هي مسئلة محمَّد، عليه الصلاة والسلام فأتباعه أخذوا الشام، ومصر، وأفريقية، والأناضول، والقسطنطنية العظمى،

(١) أتى عليهم وطال وأهلكهم. ولُبَد: هو آخر صقور لقمان. (المحقّق)
(٢) شعوب روسيا.
(٣) مسألة.

والبلقان، من أتباع عيسى، عليه الصلاة والسلام، فهؤلاء يريدون أن يسترجعوها ويتمكّنوا فيها لا أكثر ولا أقلّ. ويلقون على هذه المقاصد، بعد أن اصطبغوها ظاهرًا بصبغة التمدين، أستارًا من السياسة تخفي على الغبي أسرار مساعيهم، ويتجانفون عن استعمال الألفاظ المثيرة للعواطف، المحرّكة للحفائظ. ففي الأعصر الغابرة، عندما كانوا أصدق لهجة وأصرح ضميرًا، كانوا يسمّون هذه الحروب المتواصلة مع الدولة العليّة، حروبًا صليبية، وفي هذا العصر، صاروا يسمّونها بالمسئلة الشرقية! لكنَّ الصغار منهم مثل ملوك البلغار واليونان والصرب والجبل، قد صرّحوا في الحرب الأخيرة بما كان يصرّح به ملوك أوربا سابقًا، وأبوا هذا الرياء كلّه، وسمّوا الأشياء بأسمائها، وفعلوا الأفعال التي حقّقت الأسماء، وأوربا تصفّق لهم من ورائهم، وناهيك أنَّ ملك رومانيا الذي مملكته صديقة موالية للدولة العثمانية، ومشهورة باعتدالها مع المسلمين، قد صرّح أخيرًا لبعض مراسلي الصحف، أنَّ سكوت رومانيا في أول الحرب البلقانية مع الأتراك لم يكن من مصلحتها، ولكنّها اضطرّت إليه خدمة للنصرانية، لأنَّ الدول الأربع اللائي كنّ يحاربن الدولة العثمانية كان مقصدهنّ إنقاذ النصارى من سلطة المسلمين؛ فلم يكن يليق بدولة نصرانية كرومانيا أن تشاغلهم عن إتمام هذا الأمر، ولو خالف ذلك مصلحتها الخاصّة، فإذا كان هذا إعلان الملك الصاحب، فماذا نقول عن المحارب؟

ولقد تمكّنت أوربا بعد مصارعة ستّة قرون من استرجاع جزء كبير ممّا كان أخذه المسلمون من ممالكها، وتقدّم الصليب وتأخّر الهلال، وهكذا حال الدنيا يوم عليك ويوم لك، والله تعالى يقول: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾.

ولم يكن تأخّر الدولة العليّة أخيرًا، ونكوصها أمام دول أوربا، عن ضعف في المنعة أو سقوط في الهمّة أو فقر في معادن النجابة والشجاعة، بل جاء بأجمعه من انفرادها وحدها مع شدّة اختلاف سكّانها وتخاذلهم عنها، وتألّبهم هم، أي الأوربيين، عليها لَبُدًا[1] وإذا اختلفوا فيما بينهم تراضوا فيما بعد من أملاكها وتقسّطوا من حقوقها.

(١) كثيرًا، جمًّا.

وقد جاء في المثل: ضعيفان يغلبان قويًّا، فما قولك إذا كان ثمّة عدّة أقوياء وكلّ منهم يحارب بسلاح، والساكت منهم رِدْءٌ[1] للمتحرّك، رابض للوثبة عند الحاجة، والجميع يمشون نحو غاية واحدة.

فلو انتصرت الدولة على البلقانيين في هذه الحرب، لكان قصارى ما تمكّنت منه حمل البلقانيين على جزء من نفقات الحرب، فلمّا أدال[2] الله لهم علينا أسرعت أوربا بإعلان تمكينهم من اجتناء ثمرات انتصارهم، وإباحتهم الولايات الستّ التي كانت لنا في الروملي مع ولايتين في جزر البحر الأبيض، وذلك خلافًا لإعلان كانت أعلنته في أول الحرب بأن ليس للمنتصر أن يضمّ إلى ملكه أراضي جديدة أيًّا كان. ثمَّ اعترفت أوربا أنَّ إعلانها الأول وقع منها على ظنّ أنَّ النصر سيكون للدولة العثمانية، فأيّ حرب تكون أظلم وأعمق من هذه الحرب؟ وأيّ حياد حفظته الدول وهنَّ لا يلزمن الحياد إلاّ إذا كنّا نحن المغلوبين؟!

وهذا ما نذكره من جهة الحرب المادّية التي هي عبارة عن طعن وضرب وفتك وهتك وتجريد جيوش وسوق أساطيل.

وهناك حرب أخرى تثيرها علينا أوربا ليست بأقلّ تأثيرًا من الأولى، ألا وهي الحرب السياسية والعلمية والاقتصادية، أي الحرب المعنوية.

فمن جهة الحرب العلمية، فمدارسها ومكاتبها، حتّى مستشفياتها، في الشرق، كلّها مواقد إثارة على الدولة، ومنافخ نار يخرج منها التلاميذ كارهين كلّ شيء عثماني، بل كلّ شيء إسلامي، وما شذّ عن ذلك فيكون من متانة تربية الأولاد وتأثير والديهم بهم في البيت، لا مَن توقّي أساتذة تلك المدارس الطعن لهم في دينهم ودولتهم، بل هم يطعنون ما يطعنون في أهل الإسلام، ويشوّهون ما يشوّهون من محاسنه، ويغمطون[3] ما يغمطون من أياديه البيض على الإنسانية، ويقلبون الحقائق

---

(1) العون والناصر.

(2) من الإدالة، وهي الغَلَبة.

(3) يستحقرون ويزدرون به.

التاريخية والعلمية، وإذا عاتبتهم على صنيعهم هذا، قالوا لك: إنّما نريد لنعلم الناشئة «الحقائق»، فكيف تريد أن يخرج مَن تخرّج في هاتيك المدارس؟ لا جرم أنه يخرج حربًا لدولته وملّته، بل ولوالديه اللذين ربّياه صغيرًا.

وأمّا الحرب الاقتصادية، فهي الآن أهمّ حرب عندهم، وأمضى سيف في أيديهم؛ فإنَّ الشرقي في أكثر البضائع لا يقدر أن يباريهم ولا أن يزاحمهم، والشرقيون عيل عليهم في استمداد النقود، فهم لا يستطيعون معهم قبضًا ولا بسطًا، وتراهم يقتلون كلّ مزاحمة لهم في أية صناعة وفي أية تجارة، إلاّ النادر الذي لا يُعتدّ به، وعدا هذه الحرب الاقتصادية التي هم مصلوها[1] أمم الشرق، فإنّهم يثيرونها أحيانًا على الدولة نفسها. ولولا شدّة تزاحمهم فيما بينهم وما يفضي من ذلك إلى خلافهم وسباقهم إلى المرافق، لكانوا يسدّون على الدولة كلّ باب اقتصادي ويخنقونها في أرضها، ولكن وجدوا دون ذلك عوائق جمّة، كما حصل في مسئلة أدرنة أخيرًا، فلقد قطعت الدول عنها كلّ مدد مالي هذه المدّة كلّها وعاشت الدولة بواردها الخاص، وأعاشت الجيش الذي كان مرابطًا أمام البلقانيين بدون أن تعقد قرضًا، حتّى لقد قال كاتب إيطالي عظيم في جريدة «استامبا»: إنَّ تركيا ذات حياة قويّة؛ لم يستطع شيء ما أن يتغلّب عليها، وهي لا تعرف الفناء، وتتعوّد ضنك العيش وتتحمّل الظروف القاتلة. فتهديد الدول لها بقطع المال عنها لم يخف أحدًا، وفضل عدول الدول عن التضييق المالي لا يرجع للدول، فإنَّ هذه تعمل جهد استطاعتها على فناء الدولة ودمارها وقد رأت تركيا حتّى اليوم أنها مغبونة من الدول المسيحية لأنها لا تعاملها معاملة الكفء للكفء، بل تعاملها بعدم المساواة والظلم. انتهى كلام الكاتب الإيطالي.

وأمّا الحرب السياسية، فإنّها على شقّين منها، مواطأتهم بعضهم مع بعض علينا في الخارج، ومنها دسائسهم علينا في داخل بلادنا. فأمّا المواضعات والمواطئات على ابتلاع بلداتنا، فكاتّفاق فرنسا وإنكلترة على مصر ومراكش السودان، واتّفاقهما مع إيطاليا على مسئلة طرابلس، واتّفاق النمسا وألمانيا وإيطاليا في مسئلة بوسنة، واتّفاق

---

(١) استوعبوا ما فيها.

البلقان الأربع بإرشاد دولة روسية على اقتسام ولايات الروميلي، وكاتّفاق إنكلترة والروسية على فارس، وهلمَّ جرًّا...

ومنها دسائسهم في داخل بلادنا، وذلك كدسائس السلاف في الروميلي منذ أعصر، ودسائسهم مع الأرمن في الأناضول، وتحريك إيطاليا للإدريسي في عسير، وما كانت تدسّه في طرابلس قبل دخولها إليها، ومنها تحريكات النمسا وإيطاليا في البلقان ومداخلات فرنسا في سورية؛ وهذا في سورية أمر قديم يبتدي منذ أيام الصليبيين، وقد كانت أصابع الأكثرين منهم تلعب في سورية بسبب كثرة المسيحيين فيها، واتّخاذ أوربا مسئلة المسيحية متسلّقًا لمداخلاتها، ولو لم يطالبها المسيحيون بذلك. وفي أيام الأمير فخر الدين المعني عقدوا معه حلفًا وسافر هو إلى توسكانا في إيطاليا، وكذلك كانت كاترينا، إمبراطورة الروس، تُداخل ظاهر العمر الزيداني في عكّا. ولسنا هنا في تعداد الدسائس الأجنبية في بلاد الدولة وسائر أصقاع الشرق، فإنّه يطول جدًّا، ولكنّنا نريد من هنا الوصول إلى مسئلة الحركة اللامركزية التي قامت في إبّان حرب البلقان، فإنّها من بعض الدسائس الأجنبية أيضًا، ومن جملة الحرب السياسية المثارة على الإسلام، والأشراك الموضوعة لسقوط الشرقيين الأخير؛ والغاية من هذه الحركة مشاغلة الدولة عندما تكون مدهوشة بحرب البلقان، منصرفة إلى الدفاع عن عاصمتها حتّى تضطرّ إلى إعطاء الولايات العربية الإدارة اللامركزية رغم أنفها، خوف انتقاض العرب عليها، فتكون اللامركزية هي الخطوة الأولى نحو الانفصال. ثمَّ تحدث حوادث أخرى وتثور مشاكل جديدة، والمشاكل إلى الدولة العثمانية بفضل أوربا أسرع من الماء إلى الجذور، فتُعطى الإشارة إلى أولئك الدعاة أنفسهم بإعلان الاستقلال تمامًا في أثناء ذلك البحران التي تكون حكومة الأستانة قد وقعت فيه، وتكون هذه هي الخطوة الثانية بأن يخدع أولئك السماسرة قسمًا من الأهالي كما هم خادعوهم الآن بألفاظ الإصلاح والفلاح والنجاح وما أشبه ذلك، ويكون الميدان يومئذٍ أصبح أوسع للجولان، لأنه ممّا لا مشاحة فيه أنَّ نفوذ الحكومة المركزية يكون أضعف في الولايات المستقلّة بإدارتها، اعتبر ذلك في جبل لبنان وقسه ببقيّة

الولايات فتعرف الفرق، فهذا ما يمنّي الأجانب أنفسهم به من اللامركزية ببلاد العرب العثمانية لتكون الحرّية أوسع والمقاومة أسهل، وتصير الأساليب أطلى وأفتن، والألفاظ أعظم وأضخم، ويقال حينئذٍ الخلافة العربية، والدولة القحطانية، والاستقلال القومي، والتحرير الوطني، وخلع الربقة، ورفع العبودية، وغير ذلك من الألفاظ الطنّانة والكلمات المستعذبة، خصوصًا عند الشبّان، فيتحمّس لها بعض مَن لا يعلمون عواقب الأمور، ويرفعون لواء الثورة ويتبعون مثل البلغار عند استقلالهم عنّا، فتقع بينهم وبين الحكومة المتبوعة الواقعات وتسيل الدماء، وينتصر للحكومة فريق الأهالي الذين يعلمون ما وراء الأكمّة، فتموج الأمّة العربية بعضها في بعض ويفجّر الدماء بعضها بعضًا، ويعاد في بلادنا ـ والعياذ بالله ـ تمثيل رواية الروملي، ولا يتمارى[1] اثنان في كون انقلاب كهذا في بلاد العرب لا يمكن أن يحصل بدون حرب داخلية دموية تكون هي القاضية على استقلال العرب بدلاً من أن تكون هي مبدأ استقلالهم، فتأتي الدول الاستعمارية بأساطيلها وتدّعي كلّ منها وقاية مرافقها، وينتهي الأمر فيما بينها بإنزال عساكرها: كلّ عسكر في منطقة ليتمّ التراضي بينهن، فيكون نزول عساكر الإنكليز في يافا لمحافظة الأمن في فلسطين، والفرنسيس في بيروت لمحافظة سورية ولبنان، والألمان في مرسين وإسكندرونة، إرضاءً لهم وثمنًا لسكوتهم.

هذه نتيجة حركات اللامركزيين الذين يزعمون أنهم هم قائمون لأجل تقوية الوطن ضدّ الغارة الأجنبية، وهم يمهّدون سبل الغارة الأجنبية، ويداوون العلّة بالتي كانت هي الداء.

والخصال التي دعت هؤلاء الجماعة إلى هذا العمل عديدة، والأسباب متنوّعة، ولكنَّ المرجع الأصلي هو طمع الأجانب في بلادنا والتحريك المتواصل سرًّا فيها، والمبالغ السرّية التي تتسرّب من صناديق وزارات الخارجيات إلى جيوب الصحافيين والمكاتبين ممّا لا ينكره إلاّ كلّ مَن على بصره غشاوة أو في قلبه مرض.

---

(١) يشك.

وإنّ فريقًا من الذين قاموا بهذه الحركة إن لم يكونوا يأكلون من مال الأجانب، فإنّهم ناقمون على الاتّحاديين إهمالهم إيّاهم بعد إعلان الحرّية، مع أنهم كانوا من أنصارهم على عبد الحميد في أيام الاستبداد، فلا يريدون أن يغفروا لهم زلّة تكبّرهم وتجبّرهم عليهم بعد الفوز، وعدم تذكّرهم من كان يألفهم في المنزل الخشن، وأنّ آخرين وُعدوا بأشياء لم تُنجز لهم، وآخرين تطالوا إلى مناصب عالية، فضنّ الاتّحاديون بها عليهم، فشمخوا بانو فهم وصاحوا بالانتقام، وصاروا يتربّصون بالدولة الدوائر ويتوقّعون الفرص الملائمة للقيام [بالردّة]؛ فأقصت الدولة بعضهم، وعزلت بعضهم، وأسقط الاتّحاديون ترشيح بعضهم لمجلس الأمّة، فهناك اشتدّ الحنق وغلت مراجل الحقد، وتنازعت الريح مع السفينة، فدارت الدائرة على البحرية كما يقال، ونحن في هذه البلاد التاعسة لم نقدر إلى الآن أن نفصل بين المسائل العمومية والمسائل الشخصية كما هو في البلاد الأخرى، فعندنا مثلاً اسماعيل كمال بك الأرناؤوطي، مواطئ اليونان منذ مدّة طويلة على دولته ووطنه، ومعلوم أنه لم يكن يدع فرصة حتّى يتورّدها لأجل إثارة بني جلدته على الدولة وسفك الدماء، فكلّ مَن غضب من طلعت بك أو جاويد بك، أو غيرهما من رؤساء جمعيّة الاتّحاد والترقّي، تراه ينضمّ إلى اسماعيل كمال ويصفّق لعمله طربًا، ويستزيده ممّا هو فيه بدلاً من أن يقول إنّني ولو كرهت طلعت أو جاويد، أو أيّ رئيس كان من رؤساء الجمعيّة، فلا ينبغي أن أستحسن الحركات الموجّهة ضدّ دولتي وبلادي، ولا أن أصافح الأيدي العاملة في خراب بيتي وبيوت إخواني، ويمكنني أن أكون عدوًّا للاتّحاديين مع بقائي عثمانيًّا صادقًا عدوًّا لكلّ من يمسّ العثمانية بسوء.

وعندنا صادق بك الذي طالما وضعه أعداء الاتّحاديين في صفّ أعاظم العثمانيين، قد تكرّرت منه مؤخّرًا التلغرافات إلى قيصر الروس في معنى دعوته للتدخّل في شؤون الدولة العثمانية، ولو كان في ذلك من فقد الحقوق ومسّ الاستقلال ما فيه.

وعندنا شريف باشا، سفير الدولة السابق في استوكهولم، بعد سقوط وزارة كامل باشا كتب في الجرائد طالبًا من فرنسا وإنكلترة إرسال أساطيلهما لإسقاط محمود

شوكت باشا من الباب العالي بالقوّة في وسط الأستانة. فانظروا إلى درجة صدق هذا العثماني ومبلغ وطنيته وتأمّلوا واحكموا. وأغرب من هذا أنه كتب إلى صديق له في مجلس نوّاب فرنسا كتابًا يعاتب فيه الحكومة الفرنسية على تساهلها مع ضبّاط الاتّحاديين في المرور من تونس إلى طرابلس، وقد قام ذلك النائب يتلو كتابه هذا في بهوة المجلس حتّى تحيّر من عمله أنفس الفرنسيس[1] الذين يقدّرون قدر الوطنية. فانظروا أيضًا إلى هذا العثماني الذي لا يهمّه الدفاع عن طرابلس وعن الشرف العثماني، بل يهمّه سرعة استيلاء الطليان على طرابلس غيظًا بالاتّحاديين، وهو يغري الفرنسيس بالمجاهدين.

ويقال إنَّ كبيرًا من الحزب المعارض للاتّحاد والترقّي ورد مصر في أثناء حرب طرابلس، فعذل[2] الحكومة الإنكليزية على إغضاء الطرف على ذهاب الضبّاط العثمانيين إلى الجبل الأخضر، وشدّدهم في قضيّة منع الإمدادات عن مجاهدي العرب، ليُسقط في يد الاتّحاديين من جهة طرابلس، وينكسر نفوذهم. واستدلّ الناس على ذلك بكون الإنكليز شدّدوا المراقبة جدًّا على الحدود من بعد مجيء ذلك الكبير إلى مصر. ومن أجل هذا وأمثاله نفر كثيرون من الحزب المعارض للاتّحاد والترقّي، وأكبروا خلط الأحقاد الحزبية بالمصالح الوطنية العمومية، وعادوا يثنون على الاتّحاديين جميلاً؛ حتّى لقد ألّف أحد هؤلاء المعارضين في هذه المدّة كتابًا سمّاه «إفلاس المخالفة»، بيّن فيه بهذه الشواهد أنَّ الحزب المعارض أسقطته أعماله المخالفة للعثمانيين عامّة، لا للاتّحاديين خاصّة. وهناك أمور أخرى لا تعدّ ولا تحصى من هذا القبيل. فهل يظنّ القارئ أنَّ دعاة اللامركزية الذين يدّعون الآن الإخلاص للدولة العليّة، والقيام لمجرّد الإصلاح فقط، ينكرون شيئًا من هذه الأعمال أو يقبّحون هذه الحركات التي لا يمكن أن ينطبق عليها إلاّ اسم الخيانة، أو يبرأون من هؤلاء المعارضين يومًا؟ كلاّ، والله إنَّ أكثر مَن نعرف من رؤساء هذه الحركة هم يد واحدة

---

(١) الفرنسيين.

(٢) لام.

مع هؤلاء، وإنّهم يلتمسون لهم الأعذار ويقيمون على صحّة مبادئهم الأدلّة، وإن قُبِّح منهم أحد أفعالهم، فيكون ذلك رياءً وسمعة وخوفًا من غضب الأمّة فقط.

وهل يوجد دليل على كون وجود هذه الإحساسات الخبيثة في صدورهم أوضح ممّا ظهر منهم أثناء الحرب، وما بدر على ألسنتهم وأقلامهم يوم استردادنا أدرنة؟ فقد كان ذلك اليوم عند الأمّة عيدًا، وعند بعض أولئك المجانين مأتمًا شقّ فيه عليهم دخول العثمانيين إلى أدرنة أزيد ممّا شقّ على البلغار الذين خسروا عليها ٢٠ ألف رجل، وذلك خوفًا من فوز الاتّحاديين وارتفاع شأن الدولة بعد أن انخفض في عيون الأمّة الإسلامية، ولم ينسَ الناس ما كانت تكتب في هذا الصدد جرائدهم التي بقيت تأمل أنّ أوربا تطرد العثمانيين من أدرنة، إلى أن أتى سفراء البلغار إلى الأستانة يطلبون الصلح، فأيقنوا بفوز الدولة وكان ذلك لهم خذلانًا عظيمًا.

ولقد بلغ بعضهم من التهوّر في البغض والانحطاط في الأخلاق إلى أن كانوا يشمتون بانهزام العسكر العثماني الذي، بانهزامه، أُهِين كلّ عثماني، بل كلّ مسلم على وجه الأرض، وكانت تبدو عليهم لوائح السرور بأخبار البلقان حتّى في أيام الوزارة الكاملية، ممّا يدلّ على أنّ عداوتهم هذه لم تكن للاتّحاديين وحدهم، بل للأتراك، بل للمسلمين أجمع. ولا شكّ أنهم ينكرون كلّ هذه المسائل، ولكنّ إنكارهم هذا لا يفيدهم أصلاً، لأنه ممّا نمت عليه خوائن الأعين وخوافي الصدور، وهم يخطئون جدًّا إن كانوا يظنّون أنّ حقائق أمورهم مجهولة عند الناس.

ومهما يكن عند امرئ من خليقةٍ　　　وإن خالها تُخفى على الناس تُعلمُ

والحاصل أنّ عداوة الحزب تنقلب عند كثير من أبناء هذا الوطن التاعس إلى عداوة الدولة نفسها، وبغض الأتراك يتحوّل إلى بغض الخلافة والإسلام؛ حتّى لقد سجّلوا على العرب عار الإجحاف بالدولة والمقاومة للخلافة في إبّان الشدّة التي يأبى العدوّ أن يشاغب فيها، فضلاً عن الصديق، مع أنّ العرب هم أولى الأمم كلّها بالالتفاف حول الخلافة، وأنّ الأتراك هم تلاميذ العرب بالإسلام.

وعليه، فهذه الفئة من العثمانيين هي التي وجدها، ولا يزال يجدها، الأجانب أحسن آلة في أيديهم لقضاء أوطارهم الاستعمارية، وهي التي لا يزالون يتقدّمون إليها في نقض بنيان الجامعة العثمانية، وفكّ عرى الرابطة الإسلامية؛ فمنهم مَن يَسْتَعْدُونه على الدولة بتحريك الجنسية، ومنهم مَن يستميلون بالمال، ومنهم مَن يؤكّدون له مصير هذه البلاد إليهم، فهو يريد أن يزرع منذ اليوم عندهم مودّة تحفظ عليه مكانته ومصالحه عندما يصيرون أصحاب البلاد ـ لا سمح الله ـ ومنهم يائس قانط من رحمة ربّه، نظر في وجوه الوسائل لنهوض الإسلام فوجد الفرق عظيمًا في القوّة، فلم يقدر على حلّ هذا المشكل بعقله وعلمه، وبإيمانه، فاستسلم إلى اليأس، وذهب به الخوف أن يظنّ أنَّ الأوربي لو شاء أن يمنعنا ورود الماء على الفرات، ونحن معطّشون لخمس، لأمكنه ذلك بمجرّد الفكر، فرمى بنفسه في حضن هذه الفئة من شدّة اليأس؛ ومنهم ناقم على الاتّحاديين أو على الأتراك أمورًا شخصية وسفاسف لا طائل تحتها، ومنهم معتقد أنَّ تعيُّن المأمورين من الأستانة مانع من تقدّمه، فاللامركزية في الولايات هي التي تكفل له رقيّه وصعوده. ومنهم طائفة لم يبلغ بهم سوء الظنّ ولاستبدال شكل الإدارة الذي لا شكّ في وجوب تبديله، وحفظوا محبّتهم للدولة وحميتهم على الوطن، وهؤلاء هم الفئة الوحيدة الصادقة من أصحاب هذه الحركة. وهم في حقيقة الأمر متّفقون معنا، بل مع الباب العالي نفسه على أكثر النقط، وإن كان ثمّة اختلاف في الأنظار فيكون على أعراض غير ذات بال، وتكون الطرق كلّها إلى وجهة واحدة؛ هي تمكين الدولة ووقاية الاستقلال العثماني.

نعم، عند هذه الفئة بعض أغلاط في القياس؛ مثل تجويزهم إعطاء سورية في حالتها الحاضرة، والعراق إدارة لامركزية بناء على كون ألمانيا، مثلاً، هي ذات إمارات وإدارات متعدّدات، ولم يمنع ذلك من وحدتها الألمانية، ولا أوهن ما بينها من الرابطة العامّة، أو أنَّ أستراليا، مع استقلالها الداخلي، لا تزال شديدة الارتباط بأمّها إنكلترة؛ وغير ذلك ممّا يلقيه أولئك المغالطون فيلقفه هؤلاء بدون رويّة، ولا يفكّرون أنَّ بين ألمانيا والبلاد العربية بونًا شاسعًا من جملة وجوه، وأنه كلّما كانت الرابطة المادّية

قويّة ضعيفة لزم أن تكون الرابطة المادّية قويّة، ومتى تقوّت الرابطة المعنوية وقامت المعاني التي في الصدور مقام الأوامر والقوانين، فعند ذلك لا يبقى مانع من الاستقلال الإداري لأنه يسرّع بحركة التقدّم دون أن يضرّ بالوحدة الضرورية لبقاء الدولة ونجاة الوطن.

وممّا ينزع إليه الصادقون من طلاّب الإصلاح ولا يخالفهم فيه أحد يحبّ الحقّ ويتوخّى المصلحة، هو المساواة في الحقوق بين الأجناس، وإعطاء الولايات أقساطها من الإصلاحات على نسبة واحدة؛ فهذا مطلب حقّ لا يقدر أن ينازع فيه تركي ولا عربي، ولا يجوز للدولة العليّة أن تنحرف عنه قليلاً ولا كثيرًا، ولا سيّما بإزاء أمّة نجيبة كالعرب، قد آتاها الله من معادن الفضل، ومدارج النبل، ومطامع الذكاء، ومنابت الشجاعة، ومقاطع الكرم، ما لم يؤته غيرها من أمم البسيطة. فالدولة العثمانية خليقة بأن تستوري[1] زناد العرب الأذكياء في إدارة أمورها، وأن تنثلّ[2] لحياطة هذا الوطن العثماني، كنائن القرائح القحطانية والعزائم العدنانية، وهي هي الملومة على إهمال هذا الأمر دون غيرها، ولكن هناك أمور لا بدّ لنا أن نستوقف عندها أنظار المعارضين والمعترضين سواء كانوا من الفئة الصادقة المعتقدة صحّة مذهبها، أو من الفئة المفسدة الرائدة للأجانب، أو الفرقة الضالّة على علم، ليعلم الجميع ما لنا وما علينا.

إنَّ هؤلاء جميعًا يقولون إنَّ العرب غير متمتّعين بنعمة المساواة مع إخوانهم الأتراك، غير مشاركين لسائر الأمّة العثمانية في إدارة المملكة، وإنَّ الولايات العربية مهملات تمام الإهمال، عاطلات من حلى الإصلاح، تأخذ الدولة ريعها وتصرفه في تنظيم الولايات التركية جزافًا، وإنَّ أكثر عمّال الدولة هم من الترك والجركس والأرمن وغيرهم، وإنَّ أكثر الوظائف هي لهم، وإنَّ أكثر الأرزاق هي دارّة عليهم، إلى غير ذلك ممّا يكرّره هؤلاء الناس بكرة وأصيلاً، ولم يبقَ عثماني ولا أجنبي إلاّ وقد سمع به.

---

(١) أن تستند إليه.

(٢) أن تنصبّ.

فالجواب على ذلك أنَّ المملكة العثمانية هي على مستوى واحد، وأنَّ حاجتها إلى الإصلاح هي في كلّ الولايات بدون استثناء، وذلك، كما قلنا، بسبب الحروب والفتن والمشاكل الداخلية والخارجية التي نزفت ثروتها وأفرغت خزّانها، والتي مصدرها مطامع وأوربا المتكالبة عليها من كلّ جهة، ومناصبتها إيّاها منذ ٦٠٠ سنة.

وإذا نظرنا إلى ولايات الدولة، رأينا الولايات العربية، مع فقرها، أسعد حالاً وأرقى في درجة المدنية من ولايات الأناضول التي هي عشّ الأتراك ومضرب عسلتهم، ورأينا الأناضول أحطّ المملكة في كلّ ضرب من ضروب المدنية، مع أنه في الحقيقة هو مادّة الدولة التي تُستمدّ منها الحياة، وهو القلب الذي يدفع دم القوّة إلى الأطراف، وهو الذي عليه المُعوَّل في النائبات، فكيف بعد هذا يقال إنَّ الدولة تؤثر الأناضول على بلاد العرب، وتستأثر بريع الولايات العربية لتصرفه في الولايات التركية؟ وهل يجوز رمي الكلام بدون تحقيق، وتضليل الأفكار على علم، وإغضاب العامّة بدون أساس صدق، والمشي بالخلف بين هاتين الأمّتين اللتين إذا افترقتا سقطنا جمعًا وهل يسامحنا الله في آنٍ نزعم كون الترك ينظّمون ولاياتهم من ريع ولاياتنا، وأن نهيّج بالزور والبهتان حفائظ العرب، وتكون بلاد الترك هي بالنسبة إلى بلادنا في العمارة كما هي بلادنا بالنسبة إلى أوربا وأميركا، ومَن شاء الاطّلاع على ذلك فما عليه إلاّ بالسير والنظر في البلادين. كذلك طالما سمعنا من جملة أوضاعهم أنَّ نظارة الأوقاف تأخذ ريع أوقاف العرب لتصرفها في الأستانة والأناضول، وهي فريّة ما زالوا يغيرون بها قلوب العرب على دولتهم ولا يرقبون وجه الله فيما يقولون، ولا مصلحة الأمّة فيما يغيرون ويوغرون، والحال أنَّ الحقيقة هي خلاف ذلك، وهاك واردات ومصروفات أوقاف ولايات برّ الشام بموجب جدول رسمي مصدّق من نظارة الأوقاف:

مصاريف السنة الحالية	الواردات بحسب إجمالات سنة ١٣٢٧ المالية	التحصيلات من إجمالات سنة ١٣٢٧ المالية	
باره غروش	باره غروش	باره غروش	ولاية
١١٢٧٤٨٥	١١٧٢١٦٦٢٥	١٠١١١٤١٩١١	بيروت
٢٠٢٩٦٧٥٢٤	١٥٧٩٣٦١١٦	١٤٤١١٢١٦٠٨	حلب
١٦٥٢٦٦٩٣٧	١٢٤٣٢٢٨٢١	١١٠٣٢٠٢٩٣٤	سورية
١٥١٢١٨٥٢٦	٣٢٥٦٣٩١٠٧	١٣١٤٤٠٦٣٠	قدس
٦٣٢٢٠١٦٠٧	٦٢٥١٢٤٧٢٩	٤٨٦٩٠٧٢٠٣	

بقيت هناك مسئلة العمّال والمأمورين والوظائف والمعاشات، وهذه لا ينكر أنّ الترك مستأثرون فيها بالشقّ الأوفر، وأنهم قلّما يتعاطون التجارة والصناعة والزراعة، بل جلّ مُعوَّلهم، لسوء الحظّ، على وظائف الدولة، وهي بليّة من بلايا المملكة العثمانية، ومرض من أعضل أمراضها، نرجو الله أن يمصحه[1] منها ولو تدريجًا، لأنّ انصراف الترك إلى الوظائف ودوران معايشهم على محور الاستخدام جعل جميع متاجر الأستانة وأخذها وعطائها وحِرَفها وصناعاتها في أيدي الأرمن والروم والإفرنج، ولم يكن منه في أيدي الترك إلاّ سُداد من عوز؛ فأموال الدولة تدخل على الأستانة والجانب الأكبر منها يدخل على الأرمن والروم والأوربيين، ولكن هذه الحالة هي، في الحقيقة، خاصّة بأتراك الأستانة، نظرًا لمجاورتهم للباب العالي، ولاعتيادهم الوظائف والتعيّش من خدمة الحكومة. فأمّا أتراك الأناضول، فإنّ نصيبهم من الوظائف نصيب سائر المملكة، ونصيب العرب أنفسهم. إذًا، فليس استئثار الترك بالوظائف هو لمجرّد بغضهم العرب، أو لكونهم لا يريدون أن يستخدموا إلاّ أبناء جلدتهم، ولو كان ذلك كذلك لوجب أن يتساوى أهل الأناضول مع أهل الأستانة في هذا الأمر، لأنّ جميعهم أتراك، وإنّما غلب الوظائف أتراك العاصمة بسبب الجوار والألفة،

(١) بمعنى يذهب وينقطع.

كما قلنا، ونحن نعلم أنَّ سكّان مركز الولاية في كلّ الولايات يكون منهم عدد المستخدمين والمأمورين أكثر من سائر الولاية بأسرها، فإذا نظرتَ إلى ولاية الشام مثلاً، وجدتَ أكثر مأموريها هم من نفس دمشق، أو ولاية حلب، كان أكثر مأموريها من نفس حاضرة الشهباء، وكذلك الألوية، أكثر مأموري اللواء يكونون من نفس مركز اللواء لملازمتهم باب الحكومة، وكونهم أقرب إلى الدوائر الرسميّة من أهل القصبات والقرى، فإذا قلنا إنَّ العرب مظلومون أو مهضومون من هذه الجهة، فلا يكونون مظلومين أكثر من أهالي الأناضول مع مراعاة النسبة في عدد الولايات. وإذا أخذنا حاضرة الشام، أو حاضرة بغداد، أو حاضرة حلب، وقسنا مَن له اتّصال فيها بخدمة الحكومة إلى أمثالهم من مركز ولاية سيواس، أو إزمير، أو أطنة مثلاً، لم نجد أهل هذه المراكز أكثر مأمورين أو أوفر رواتب من أهالي دمشق، والزوراء، والشهباء؛ وقس عليه البواقي. نعم، المزية في الاستكثار والاستئثار لأهل الأستانة نظرًا للمجاورة والمعاشرة، ولدينا مثل أوضح وأجلى، وهو أنَّ أهالي جبل لبنان يناهزون خمسمائة ألف نسمة، وأهالي قصبات دير القمر، مصيف المتصرّفية، وقرية بعبدا، مشتاها، لا يكادون يبلغون خمسة آلاف نسمة، ومع هذا، فإنَّ ثلث مأموري لبنان هو من هاتين القصبتين، فإن قلنا إنّه يجب توزيع الوظائف على نسبة العدد، فإنَّ الخمسة الآلاف لا يمكن أن تكون ثلث الخمسمائة ألف، وما الأصل في ذلك هو امتيازهم على بقيّة أهل الجبل؛ فأهل الجبل متساوون في كلّ الحقوق، ولكنَّ الأصل فيه قربهم من مركز الحكومة واعتيادهم خدمتها. ومن الأمور البديهية أنَّ الأقرب دارًا إلى النهر يكون أقرب ورودًا وأيسر ماءً، ومع هذا فليس منّا مَن يجادل أو يكابر في وجوب توفير حقوق العرب وعدم بخسهم ميزانهم، لأننا إذا كنّا ناقمين على بعض العرب التكلّم في الجنسيّة، والدعوة إلى إيثار أنفسنا على الأتراك بكونهم إخواننا في الإسلام والعثمانية، فنحن بالأولى ننقم على الأتراك إيثار أنفسهم على أبناء جلدتنا، مع كونهم لا يفضلون العرب في شيء، لا أصلاً، ولا فصلاً، ولا كفايةً، ولا فضلاً.

وهناك أمر آخر لا بدّ أن نسترعي له أسماع أبناء السلالة العربية، وهو أنَّ العرب إلى يومنا هذا لم يقفوا في جانب الدولة موقف الأتراك، ولا رضوا أن يستأنسوا بالحكم والنظام جميعًا، بل إذا عددنا العرب العثمانيين اثني عشر مليونًا أو خمسة عشر مليونًا من الأنفس مثلاً، لزم أن نقسمهم إلى ثلاث طبقات، **الأولى**، البوادي، وهم أكثر من ثلث هذا العدد، وربّما ناهزوا نصفه، والدولة لا تستفيد منهم سوى شنّ الغارات، وإفساد السابلة، وإقلاق راحة المعمورة، وهي لا تأخذ منهم عسكرًا ولا خراجًا؛ وإذا استوفت بعض رسوم على مواشيهم، فبالمقدار الزهيد الذي لا يوازي الوظائف والجعائل المعيّنة لمشايخهم. والخلاصة أنَّ هؤلاء خارجون عن الدائرة التي الكلام فيها، فليس لهم إلاّ الفائدة المعنوية من إطاعتهم للخلافة، وكونهم من جملة الرعيّة. نعم، هم سياج المملكة الذي لا تُخترق نواحيه، وعضد الدولة الذي لا يُفتّ فيه إذا وقعت، لا سمح الله، غارة أجنبية. **الطبقة الثانية**، حَضَرُ جزيرة العرب، كاليمن والحجاز ونجد والبحرين وما ماثلها، فإنّه لا يقدر أن يقول أحد إنَّ الدولة تستفيد من هؤلاء فائدة مادّية أصلاً، بل هي تخسر على تأمين بلادهم وإدارة أمورهم أموالاً طائلة كلّ سنة، فاضلة على ما تأخذه من خراجهم. ومعلوم أنَّ الحجاز معيشته من الدولة العليّة والعالم الإسلامي، وهذه طبقة لا تقلّ عن أربعة ملايين ليس منها للدولة سوى الدعاء لمولانا السلطان والتأييد المعنوي الذي لا شكّ فيه. **الطبقة الثالثة**، الحَضَرُ الذين في برّ الشام وفي العراق والجزيرة، وهؤلاء هم الذين تُجنِّد منهم الدولة العساكر، وتأخذ الجبايات، كسائر أهل السلطنة، لكنّهم لا يزيدون على ثلاثة ملايين، ولذلك كانت دعوى بعض إخواننا العرب، بأنهم هم أكثر من نصف المملكة، صحيحة من جهة العدد، وغير صحيحة من جهة التكاليف الأميرية، وكان على بعض العرب، قبل تعريض هذه الدعوى، أن يشمّروا عن ساق الجدّ ويدخلوا في المدنية وينشروا العلم في طبقاتهم، ويتقرّبوا إلى الدولة بإحصاء نفوسهم وبقبول الخدمة العسكرية في صفوف الجيش، بعد ذلك يصير لهم الحقّ بالمطالبة والمحاسبة حسبما يقولون الآن، وينتخب لهم نوّاب في مجلس الأمّة بنسبة عددهم.

ولنفرض أنَّ كلّ هذه الدعاوى صحيحة، وكلّ هاتيك الاعتبارات وهمية، فما معنى القيام للمطالبة بالحقوق بهذه النعرة الجنسية المشعرة بالمقت والانشقاق، الطالعة بالجفاء والازورار؟ وما فائدة فكّ رابطة الإسلام لإقامة رابطة الجنس مقامها؟ وما مدخل العصبية القومية في قضيّة فتح مدرسة أو عقد قنطرة أو مدسكة أو إتمام إصلاح، ما إلاّ أن يكون هناك سبب هو غير داعي الإصلاحات، ودسيسة خارجية هي عبارة "إفساد لا إصلاح"؟ فعلى الأمّة العربية أن تحذر من الحركات الماشية بين ظهرانيها، وتنتبه إلى السمّ المدسوس في طعامها. إنَّ الأوربيين، مع ما بلغ بالإسلام من الضعف والتلاشي، ومع سقوط أكثر الحكومات الإسلامية المستقلّة، لا يزالون ينظرون إلى الإسلام نظرهم إلى القرن المصارع والخصم المضارع، يتذكّرون ماضي الإسلام ويخشون كرّاته، وربّما وضع بعض مؤلّفيهم الكتب في التحذير من مستقبل الإسلام والتنبيه إلى اتّقاء خطر الجامعة الإسلامية أو الاتّحاد الإسلامي المسمّى عندهم بالبانيسلاميسم، والذي، إذا تمثّل طائفه في النوم لأحد قياصرتهم أو رجال سياستهم، هبّ مذعورًا.

وقد أصبح عند إنكلترة مائة وعشرون مليون مسلم، وعند فرنسا نحو أربعين، وعند الروسية ثلاثون، وعند هولندة نحو خمسة وثلاثين. هذا عدا ما عند النمسا في البوسنة، وألمانيا في أفريقية، وما تحاول إيطاليا أخذه في طرابلس، وإسبانيا في شمالي المغرب الأقصى، وعدا مسلمي البلقان. وإنَّ ألطف الدول المسيحية معاملة للمسلمين هي أميركا في الفيليبين والحبشة في بلادها.

فهذه الدول، لا سيّما الأربع اللاتي عندهن القسم الأكبر منهم، لا تخشى من شيء كخوفهن من الرابطة الدينية التي تربط جميع المسلمين بعضهم ببعض، كما أنها تربطهم جميعًا بالدولة العليّة. ولا ترين يومًا أسعد من اليوم الذي تجدن فيه خطبًا حلّ بالدولة العثمانية. ولم يُكرث[1] هؤلاء المسلمين الذين تحت سلطتها، ولا أقام قيامتهم، ولقد استعملت ضروب الحيل في إبعاد هذه الأمم عن الدولة، وإقامة

(١) اشتدّ عليهم الغمّ.

الحواجز والسدود، ودخلت عليهم من أبواب عديدة، واجتهدت في تقطيع آمالهم من الدولة أقصى الاجتهاد، فلم تستفد من كلّ مساعيها فائدة تُذكر، ولم يفتأ أولئك المسلمون يذكرون الدولة العثمانية ويدعون للسلطان العثماني على منابرهم، وإن منعوهم من الدعاء له جهرًا، دعوا له سرًّا، وأوربا ترى أنَّ هذه الحركة بدلاً من أن تضعف بضعف الإسلام، قد أخذت تزداد وتنمو، وأنَّ المسلمين قد ابتدأوا يشعرون شعورًا عامًّا ويستيقظون من سباتهم العميق، وصارت تبدو منهم أمائر النزوع إلى وحدة تجمع شملهم وتمنع ذلّهم وتقيهم خطر السقوط التامّ الذي يتهدّدهم. فكان لهذه الحركة الروحية التي تختلج بالمسلمين ما يقيم أوربا ويقعدها ويحفزّها على تدارك عواقبها، فهي ترى المسلم الصيني يتلاقى بالمسلم المراكشي، والمسلم الفيلبيني يتصافح مع المسلم الهندي كأنهما شقيقان ولدهما أب واحد وأمّ واحدة، ولا تجد هذه الأُخوَّة حيّة في حيّ من الأحياء أو شعب من الشعوب كما تجدها بين المسلمين، ولا تعلم لها سببًا سوى جامعة هذا الدين الحنيف؛ إذ كانت عناصر هذه الأمم متباعدة فيما بينها تباعد الأرض عن السماء، فأوربا بعد أن حاربت الدولة العليّة بجميع أنواع الحروب، جاءت تحاربها الآن بحرب جديدة هي إحياء الجامعة الجنسية بين الأمم الإسلامية، لأجل أن تتفكّك بها أوصال الإسلام، ولا يبقى محلّ لحنين المسلم الصيني إلى الهندي، وإلى التركي، وإلى العربي، ولهذا لا تكون كتلة واحدة. ولمّا وجدت بعض العرب أو المستعربين مستعدّين لقبول هذا الفساد، وكانت ترى أنهم هم الذين يقدرون على مشاغلة الدولة أكثر من سواهم، وأنهم هم الذين يمكنهم إحياء العصبية الجنسية ومهاجمة الدولة بها فتصير الدولة مشغولة في بلادها بالمسئلة العربية، كما أنَّ تلك الدول مشغولة في مستعمراتها بالمسئلة الإسلامية، أخذت تدسّ إلى بعض الصحافيين في المشرق بأن يتكلّموا في الجامعة القومية ويحيوها في صدور العرب، وشرع رجال السياسة الأوربية، ومَن يبثّ دعوتهم من الشرقيين، يضربون على هذا الوتر في عرض النصيحة، قائلين إنَّ المسلمين لا يبلغون من النجاح غاية يبينون بها حتّى يضارعوا الأوربيين في ترك الدين والتمسّك بالجنس،

وإنَّ الأمم المتمدّنة الراقية اليوم لا تقيم للدين وزنًا، وعلى فرض أنها احترمت الأديان ظاهرًا، فإنّها لا تعمل بها، ولا تبني سياستها عليها. وآمن كثير من الأغبياء بأقوال الأجانب هذه وتمويهات سماسرتهم، وذلك لقصور اطّلاعهم وركاكة عقولهم، وأخذوا يقلّدون أولئك النفر في الكلام تقليدًا أعمى، ويقولون: لا أمل بالرقيّ بواسطة الدين الإسلامي. فما علينا إلاّ أن نعود إلى الرابطة القومية بدون نظر إلى العقيدة الدينية، اقتداء بأوربا التي أصبحت الرابطة الدينية عندها نسيًا منسيًّا.

ولو كان أولئك المساكين على إنارة مَن علم، لكانوا علموا أنه لم يأتِ يوم واحد نبذت فيه أوربا الرابطة الدينية، أو قصّرت في حرمتها، وأنَّ الإنكليز الذين يحسبهم الشرقيون مثال التمدّن والارتقاء هم أشدّ الأمم تمسّكًا بالدين المسيحي، وإن كان تمسّكهم مقرونًا بالمدنية لا كنصرانية الأمم السلافية التي أفعالها ظاهرة للعيان. ومن الغريب أن نكون نحن قاصدين الاقتداء بأوربا، قائلين: حسبنا من الرقيّ نصف ما بَلَغَتْهُ منه، وعندما نصل إلى مسئلة الدين نحسب أنفسنا أرقى من أوربا ونطالب أقوامنا بإطراح [1] الجامعة الإسلامية، عندما لا تكون أمّة من أمم أوربا رضيت سرًّا أو علنًا بإطراح الجامعة المسيحية التي لا تزال هي مدار سياسة أوربا إلى يومنا هذا.

ومن أوهى الاعتراضات على وجود الجامعة المسيحية بينهم، قول المغالطين المضلّلين إنَّ الدول لا تستنكف عند اقتضاء سياستها من أن تعاضد دولة إسلامية على دولة نصرانية، كما حصل في حرب القريم مثلاً، والجواب أنَّ الجامعة الدينية لا تنفي وقوع الخلاف بين أبنائها؛ فالنصارى يتشاجرون، والمسلمون أيضًا يتشاجرون، والصحابة الكرام، رضي الله عنهم، تشاجروا، وهم أساتذة الإسلام، وكلّهم مجتهدون، وأنَّ البابوات المعصومين من الخطأ في الكنيسة الرومانية كانوا يختصمون، فيقوم اثنان فيدّعي كلّ منهما أنه هو البابا الحقيقي، وكلّ هذا لا يمنع من أن تكون بين المتشاجرين جامعة تجمعهم على مَن هو خارج عنهم. ولا يصحّ أن يقال إنَّ أوربا أصبحت غير ذاهبة مع التعصّب الديني وإنّها لا تعرف إمامًا لها إلاّ الإنسانية إلاّ متى صارت تنظر

(١) رمي وقذف.

إلى المسلمين نظرها إلى المسيحيين بالتمام، ومتى أبطلت صحفها الشهيرة ورجال سياستها القول بدول النصرانية ومصالح النصرانية إلى غير ذلك، وأثبتت بالدليل تلو الدليل على أنَّ المسلم والمسيحي واليهودي عندها شرع لا فرق بينهم، عند ذلك نقول، بطلت الجامعة الدينية من بينهم، هذا بدون نظر إلى مسئلة ما إذا كان جائزًا ترك الرابطة الدينية مع الاعتقاد بالدين.

فأوربا لم تترك[1] من النصرانية إلاّ المبادئ الإنجيلية الشريفة المبنيّة على محبّة القريب وترك الطمع والزهد في الدنيا والصدق في المعاملة، ولم تعرف النصرانية إلاّ في الشكل الذي أتى به بطرس الناسك، أي شكل إبادة المسلمين، مع أنَّ النصرانية الصحيحة هي الشقّ الأول الذي تركته أوربا؛ وأمّا الشقّ الثاني، فهو مناقض من جميع الوجوه لتعاليم المسيح عليه السلام. وإنَّ كثيرًا من فضلاء النصرانية في الشرق والغرب يقرّون بكون أفعال أوربا منافية للنصرانية رأسًا. ولقد تألّف كتب كثيرة في أوربا تشهد عليها بظلمها للمسلمين، ومؤخّرًا صدر كتاب بأسم «الحرب الصليبية البلقانية» لبعض أفاضل الفرنسيس من الحزب الاشتراكي، وفيه مقدّمة لأحد نوّاب الأمّة الفرنسية ورد فيه من هذا الباب ما فيه مقنع لمن يريد أن يكون ريّان من هذا الموضوع. وقد جاء في كتاب وارد من رئيس نقابة المحامين في جنيف إلى لجنة المحامين في أثينا الجمل الآتية:

«إنّنا تتبّعنا بألم شديد حوادث القسوة والتوحّش البربري التي جرت في البلقان أثناء الحرب، وقد رمى المتحاربون بعضهم بعضًا بها، وأظهر كلّ منهم وثائق وأدلّة بحجج ممّا أصبحنا لا نقدر معه على تعيين درجة المسؤولية، ولكنّنا نقول على وجه الإجمال إنّنا شهدنا مشهدًا هو من الفظاعة في عصرنا، ومن المخالفة لدين المسيح الذي بأسمه أُريدَ طرد الأتراك من أملاكهم التي في أيديهم منذ مئات من السنين، بحيث يمكننا أن نتساءل عمّا إذا لم يكن المغلوبون هم الذين ساروا في أثناء هذه المجازر الفاجعة بأحسن سيرة إنسانية جديرة بأن تستميل عواطف العالم المتمدّن».

---

(١) تترك هنا تأتي بمعنى «تُهمل».

أمّا ظنّ هذا الفاضل بأنّ سيرة الأتراك جديرة بأن تعطف عليهم العالم المتمدّن، فالحقيقة أنها لا تعطف منه سوى نفر من الأحرار المتحقّقين بالفضل، وفئات من الاشتراكيين الكارهين لهيئة أوربا الاجتماعية الحاضرة، وما بقي، فإنّهم لا يبالون بأيّ شكل قتلوا الأتراك ولا على أيّ شكل صلبوهم، وكذلك ليسوا أعطف على العرب ممّا هم على الأتراك. وهذه حروب أفريقية الحاضرة لدينا والعرب يسامون[1] فيها أنواع البلاء من كلّ جانب، والسيف واقع فيهم من كلّ صوب، وما لهم عن حياض الموت تهليل؛ فالحرب الصليبية، لسوء البخت[2]، لا تزال قائمة من أوربا، وإذا قام من كتّابنا مَن يستغيث منها ويلتمس الإنصاف، ويدعو قومه إلى التماسك والتعاضد، ويقول ما دام هذا التحامل واقعًا في كلّ بقعة على المسلمين فأحرى بهم أن يتعارفوا وأن ينهضوا يدًا واحدة لوقف هذا الاعتداء عند حدّ، قام بعض روّاد الإفرنجة مِن الشرقيين يسلقونه بألسنة حُداد ويرمونه بالتعصّب الديني، ويتّهمونه بالتفريق بين المسيحيين والمسلمين، وقام بعض المسلمين يجارونهم في هذا الافتراء ويوافقونهم على هذا القول ليثبتوا لهم أنهم قوم متمدّنون متهذّبون، وأنهم، والحمد لله، من الطبقة الراقية، وأنهم من العلماء الاجتماعيين.

فكأنه من الواجب أن تأخذ إيطاليا طرابلس وترتكب فيها ما ارتكبت، وأن تغزو فرنسا مراكش وتقتل القوم في وسط ديارهم، وتزحف الروسية إلى العجم وتقتل كبار مجتهديهم في أوائل المحرّم؛ وتصلب صاحبنا الإمام ثقة الإسلام التبريزي في يوم مأتم الحسين، رضي الله عنه، وتضع خيولها في مساجدهم المقدّسة، وأن يستأصل البلقانيون مسلمي الروملي قتلاً وأسرًا، ويهتكوا أستارهم، ويسبوا ألوفًا من نسائهم، ويحملوا منهم نحو ١٥٠ ألفًا على النصرانية بالسيف، ويقلبوا مساجدهم كنائس ويستبيحوا فيهم كلّ محرّم، ولا يجوز أن يرفع مسلم أو إنسان مطلقًا صوته بشكوى، ولا أن يتلفّظ بذكر هذه الفظائع حتّى يقام عليه النكير ويُنسب إليه التعصّب الديني

(١) يذوقون العذاب وينالهم الشرّ.
(٢) الحظّ.

الذميم، وهذه لعمري نهاية النهايات في احتقار عقول الناس وأحلامها والهزوء بحقوقها.

ولقد شاهدنا بعض الجرائد المأجورة للأجانب من الجرائد العربية قد سكتت سكوتًا تامًّا عن فظائع البلقان، مع تواترها حتّى في صحف أوربا. ورأينا جريدة «المقطّم» أحيانًا تحاول إنكارها، لأنَّ ثبوت هذه الأفعال الوحشية مع سكوت الدول العظام عنها عبارة عن إعلان أوربا الإفلاس الأدبي وسقوط الأوربيين العالين في نظر أهل الشرق من جهة الأخلاق، كما هم ساقطون في نظر أهل الصين الذين يسمّون الأوربيين بربرًا، فلا ينتظم ذلك مع مبدأ الصحف التي تدعو إلى قبول السيطرة الأوربية، والتي لا تزال تترنّم بمنازع العدل الأوربي، ولكن قد افتضح هذا الأمر رغم سكوتها، وظهر للناس عدم تحرّي هذه الجرائد الحقّ، وإنّما ذكرنا «المقطّم» في هذا الباب دون غيره لأنه يستحقّ الذكر ويصحّ أن يوجّه إليه الملام بخلاف غيره.

ولقائل أن يقول: ما مدخل هذا البحث الذي هو إثبات تحامل أوربا علينا في قضيّة طلب الإصلاحات من الدولة العثمانية على قاعدة اللامركزية، وإنّنا مسلّمون مؤمنون بوقوع هذه الحرب الصليبية علنًا، ولذلك نحن نطلب الإصلاحات ابتغاء تحصين الوطن في وجه العدوّ الطامح إليه؟ **والجواب**: سترون أنَّ البحث واحد، وأنه سلسلة آخذ بعضها برقاب بعض. ولسنا نقبل منكم المغالطة، فأنتم لم تقوموا فقط لطلب إصلاحات واستفتاح مدارس واستثمار مزارع واستخراج كنوز واستنباط عيون، بل قمتم من أول ما قمتم بالعصبيّة العربية الجنسية، وصحتم بالنعرة القومية ودعوتم إلى حمية الجاهلية المنهى عنها في الشرع الإسلامي، وأخذتم تسدون وتلحمون[1] في موضوع تنفير العرب من إخوانهم الترك ممّا لم تخلُ منه كتابة من كتاباتكم، وكذلك كنتم تشيرون من طرف خفيّ إلى وجوب إطراح الجامعة الدينية الإسلامية والعروج إلى المعالي بمدارج الجامعة العربية فقط، وهذا قد نمّت عليه كثير من أقوالكم وحركاتكم؛ وإن كنتم لم تصرّحوا به إلى غاية ما في نفوسكم، فإنّما هو مداراة

(١) ومنها السَّدى واللحمة؛ والسَّدى هو ما نُسج في الثوب طولاً، أمّا اللحمة، فهي ما نُسج عرضًا.

للعامّة، وخوفًا من سخط الدهماء التي لا تزالون تخدعونها بزخرف الإصلاحات وتنكرون عليها حقيقة مقاصدكم من جهة الدين، ومع هذا، فأيّ تصريح تريدون أعظم من استشهاد رفيق بك العظم، رئيس حزب اللامركزية، بقصيدة اليازجي السينية التي اختارها له من بين جميع قصائده في حفلة تشييع رفاته بمحطّة مصر؟ وهي القصيدة التي يقول اليازجي فيها:

دع مجلس الغيد الأوانس ... وهوى لواحظها النواعس
واسل الكؤوس يديرها ... رشأ كغصن البان مائس
وذر التنعّم بالمطاعم ... والمشارب والملابس
أين النعيم لمن يبيت ... على بساط الذلّ جالس
ولمن تراه بائسًا ... أبدًا لذيل الترك بائس

إلى أن يقول:

فإليكم يا قوم فاطرحوا ... المدالس والموالس
وتشبّهوا بفعال غيركم ... من القوم الأحامس
بعصائب جاءوا فجادوا ... بالنفوس وبالنفائس
هبّت طلائعهم يليها ... كلّ صنديد ممارس
تركوا جميع الترك تعصف ... حولها النكب الروامس
ملأوا البطاح بهم فداس ... على الجماجم كلّ دائس

يشير إلى حرب الروس للعثمانيين سنة ١٨٧٧.

فاستوقدوا لقتالهم نارًا ... تشبّ لكلّ قابس
وعليهم اتّحدوا فكلّكم ... لكلّكم مجانس
أَولستم العرب الكرام ... ومنهم الشمّ المعاطس

ودعوا مقال ذوي الشقاق — من المشايخ والقمامس[1]
يمشون بين ظهوركم — تحت الطيالس[2] والأطالس[3]
فهم رجال الله فيكم — بل هم القوم الأبالس
فالشرّ كلّ الشرّ ما — بين العمائم والقلانس

فنحن نوافق على مضمون قول اليازجي:

أين النعيم لمن يبيت — على بساط الذلّ جالس
ولمن تراه بائسًا — أبدًا لذيل الترك بائس
ولمن يرى أوطانه — دمنًا[4] وإطلالاً دوارس[5]
كسبت شحوب الثاكلات — وكن قبلاً كالعرائس
عج بي فديتك نادبًا — ما بين أرسمها الطوامس
واستنطق الآثار عمّا — بين هاتيك البسابس[6]
عن عزّة كانت تذلّ لها — الجبابرة الأشاوس
ومدائن غنّاء قد كانت — تحف بها الفرادس[7]
أين المكاتب والمصانع — والمدارس والمغارس
بل أين هاتيك الألوف — بها فسيح البرآنس[8]

---

(١) القمامسة: البطاركة من أقباط النصارى (التاء في الجمع للعُجمة).

(٢) مفردها طَيْلَسَان، وهو كساء مدوّر أخضر لا أسفل له، لحمته، وقيل سَدَاه من صوف، يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، وهو لباس العجم، ومنه قولهم في الشتم: "يا ابن الطيلسان!"، أي أنك أعجب، وهو تقريب تالِسان بالفارسية.

(٣) مفردا أطلس، وهو الثوب الخَلَق، ويدلّ على رمي الرجل بالقبيح. (المحقّق)

(٤) سواد النخيل.

(٥) من دَرَسَ: الرسم من دُرُوسًا: عفا، فهو دارس جمع دوارس أو أداريس.

(٦) الأقفار.

(٧) جمع الفردوس.

(٨) مفردها بُرنُس، وهي قَلَنسوة طويلة كانت تُلبس في صدر الإسلام، وهو أيضًا كلّ ثوب رأسه ملتزق به.

ونرفض الذلّ ونطلب المساواة، وننشد الإصلاحات، ونبغي عمران الأوطان، ولكنّنا لا نجعل السبب في انحطاط هذه الأوطان سوى صليبيات أوربا، وتحاملها إلى يومنا هذا على الإسلام، وعدم إمهالها الدولة العثمانية فواقًا[1] أن تنهض أو تتنفّس، وعدّها عليها أنفاسها ذنوبًا وحسناتها عيوبًا، وزحف أمثال أولئك الذين جاؤوا وجادوا بالنفوس وبالنفائس، وداس منهم على جماجمنا كلّ دائس كلّ مدّة بضع سنين مرّة بحيث لم تقدر هذه الدولة أن ترمّم شيئًا من ذلك الخراب الواسع إلاّ بشقّ الأَنْفُس.

ولكنّنا لا نوافق على مضمون الشماتة بالترك الذين هم إخواننا في الدين والتابعية، والذين نذلّ بذلّهم ونعتزّ بعزّهم، شئنا أو أبينا. فأمّا رفيق بك، أستاذ اللامركزية، فقد أقرّ بأنه قال إنَّ هذه القصيدة ما قرئت على ملأ إلاّ وجمعت بين الشتيتَين، يشير بذلك إلى مسلمي العرب والنصارى منهم، وهو مقصد حسن لو وقف عند هذا الحدّ ولم يجئ مقرونًا بعدوان الدولة والافتراق عن الترك.

وهنا أيضًا موقف آخر مهمّ؛ وهو أننا لا نفكّر أبدًا في الانفصال عن نصارى العرب بدون نظر إلى قضيّة كونهم عربًا أو مستعربين، أو أصلهم من أمم مختلفة، أو كون جزء يسير منهم عربًا والباقي قد استعرب بكرور الأيام، فإنّنا نحن نعلم[2] كلّ النصارى الذين يتكلّمون بالعربية عربًا، ونريد أن يبقى الاتّحاد بيننا وبينهم، وأن تكون المساواة شاملة لنا ولهم، وأن لا يمتاز المسلمون عنهم بشيء من الحقوق، ولكن على شرط، أن لا يَدْعُونَا ذلك إلى ترك رابطتنا الدينية بالأتراك وسائر مسلمي المعمور، وأن لا نزعم كوننا نُحلّ الجامعة الجنسية العربية محلّ الجامعة الإسلامية، وأننا أصبحنا لا نعرف المسلم التركي ولا الفارسي، فليصبه ما أصابه، فلا شأن لنا به، ولِتُهْتَكْ أعراض مسلمي الروملي، فأي علاقة لنا معهم؟ هم ترك وبلغار وبشناق ونحن عرب، ولينصرهم البلقانيون، فلا يعنينا من هذا الأمر شيء؛ فإنَّ هذه الأمور

(١) ما يأخذ المحتضر عند النزع؛ وهو أيضًا الوقت الفاصل ما بين الحلبتين، لأنَّ الناقة تُحلب ثمَّ تُترك سُويعة لتعود وتدرّ ثمَّ تُحلب ثانية. (المحقّق)

(٢) وردت هكذا في النصّ، ولكنَّ معناها يشير إلى كلمة "نعتبر".

لا نقدر أن نسلّم بها طرفة عين، وليست هي شرطًا لازمًا للإخاء مع نصارى العرب، فقد كان العرب، نصرانيهم ويهوديهم ووثنيهم قبل الإسلام، يجتمعون على قتال الأعاجم، كما حصل في وقعة ذي قار وإلى اليوم، يمكن أن نكون يدًا واحدة مع نصارى البلاد العربية لأجل الدفاع عن أوطان هي لنا ولهم معًا، ويبقون هم نصارى ونبقى نحن مسلمين، لأنه ليس في ديننا ولا في دينهم ما يمنع من الإخاء فيما بيننا والاجتماع على غاية واحدة. ولكن لمّا كانت أوربا نفسها لم تنكر إلى اليوم الرابطة الدينية، وكانت فرنسا، أمّ التمدّن، تدّعي حماية الكاثوليك في الشرق بحجّة اجتماعهم معها في كنيسة واحدة، مع أننا لو نظرنا إلى العنصر لوجدناهم أقرب إلى المسلمين نسبًا وأمسّ رحمًا ممّا هم إلى الفرنسيس، إذ كانوا والعرب من السلالة السامية. كما أنَّ الأتراك أقرب إلى المجار والبلغار نسبًا ومحتدًا، وهم مع ذلك أعداء لهؤلاء وإخوان للعرب بالرابطة الدينية. فإنّنا لا نريد أن ننكر هذه الرابطة ولا أن نعمل على توهّنها وحدنا ونجعل فرنسا أقرب منّا إلى التديّن، ويا ليت شعري لو لم تكن الدولة العثمانية في الوجود فمَن ذا الذي كان يضطرّ البلغار إلى ترك البوماق المنصَّرين جبرًا يرجعون إلى الإسلام؟ ومن يقسر البلغار على إعادة الألوف من السبايا إلى والديهن كما اشترطت الدولة ذلك في عقد الصلح مع البلغار أخيرًا؟ ومَن ذا الذي كان يجبر البلغار على إنزال مئات من النواقيس من رؤوس المآذن وإعادتها إلى النداء بكلمة لا إله إلاّ الله كما كانت؟ وإن قال أولئك القائلون بالجنسية دون غيرها: وماذا يهمّنا من أمر البوماق والبوشناق والترك ما دام هذا الأمر لم يقع مع العرب؟ أجبناهم، فلو خطر في بال فرنسا أو إيطاليا أن تنصر العرب في أفريقية جبرًا كما فعل البلغار مثلاً، فهل يوجد مانع يمنع هذه الدول من ذلك غير الدولة العثمانية التركية؟ أفلا يرى الناس إلى أعمال المبشّرين البروتستانت في مصر وإهانتهم للدين الإسلامي وصاحبه علنًا في الشوارع؟ مع أنَّ مصر لا يزال يقال إنّها عثمانية، ولا تزال مِلك الدولة العليّة، فكيف لو خرجت من مِلك الدولة؟ أفلا ترون أنَّ أهمّ شروط معاهدات الصلح بينها وبين إيطاليا هو حفظ الحرّية الدينية الإسلامية والأوقاف، ومع البلغار كان المحافظة على الجماعات الإسلامية في بلاد البلغار، وعلى أوقافهم ومساجدهم وتأمين حرّيتهم

الدينية بأوسع ما يتصوّر العقل، وأنَّ الذي يؤخّر عقد الصلح بينها وبين اليونان ما هو إلاّ طمع اليونان في اعتراض المسلمين الذين [هم] عندها في أمورهم الدينية، بل محاولتها الاحتفاظ ببعض شؤون تخالف الوجه الشرعي. وإن ظنّ بعض سفهاء الإسلام كون الدولة العليّة لا تقدر على حماية دين الإسلام لو تألّبت أوربا عليه، وإنَّ ترْك أوربا للإسلام حرّيته الدينية هو من بعض مظاهر العدل الأوربي، فهو وهم باطل؛ فإنَّ أوربا تفهم أنه مهما بلغ الضعف من المسلمين، فإذا مدّت يدها إلى دينهم وعرضهم نهضوا نهضة رجل واحد واستماتوا لا يلوون على شيء، وجعلوا مستعمرات أوربا في خطر الضياع، وكان لهم من الدولة العثمانية رأس تنتظم به كلمتهم وتتّحد حركتهم؛ فهي تهدأ عن هذا الأمر ما دامت الدولة العثمانية في الوجود، لأنَّ قطع الأعضاء مع بقاء الرأس لا يمنع وجود الجسم وحياته. ولقد شهدنا أنَّ رجلاً كسيدي أحمد الشريف السنوسي، صفته مشيخة طريقة من طرق الإسلام، قاوم دولة عظيمة ٣٦ شهرًا ولا يزال يقاومها، ويوالي على جيوشها الهزائم، وذلك بسبب كونه رأسًا مطاعًا في بلاده، تجتمع عليه كلمة العرب هناك، فكيف يكون شأن السلطان العثماني إذا اشتدّ بالمسلمين الخناق والتقوا حوله؟

لا جرم أنَّ وجود الدولة هو الذي وقف بمظالم أوربا للإسلام عند هذا الحدّ فقط، مترقّبة زوال الدولة، لا سمح الله، لتأخذ في المسلمين حرّيتها التامّة. وقد يعترض حزب المتمدّنين المتهذّبين، والذين ليسوا نظيرنا من المتعصّبين بأنه، ما شأننا بالدين ودعوته؟ وما ذا يهمّنا من حفظه وعدمه، ونحن دعاة مدنية لا دعاة دين؟ فنجاوبهم، هل يسلّمون بأنَّ دول أوربا دول مدنية أم لا؟ فإن كانوا، ولا شكّ، لا يسلّمون بكون دعوتها للمدنية فقط، قلنا لهم: هل إذا قامت الدولة العثمانية تحمل نصارى أقلّ قرية من قرى الشام على الإسلام قسرًا تسكت أوربا عن هذا العمل، أم تتوسّط الأمر بالنصيحة أولاً، وإن لم تعجَّ[1] النصيحة، فبالسيف ثانيًا؟ فإذا قالوا: كلاّ، لا تقبل أوربا ذلك، أجبناهم: إنَّ المدنية لم ترفع الدين إذًا.

---

(١) تقوم فيه.

نعم، إنَّ وجود الدولة العثمانية هو الحافظ الوحيد للمسلمين في المعمور كلّه دينهم وعرضهم، وإذا تأذّن الله بزيالها[1]، لا قدّر الله ذلك، رفعت دول الاستعمار القرآن حالاً من أيدي المسلمين وحملتهم على النصرانية قسرًا، وأنشأت لهم برنامجًا خاصًّا للتعليم ينشأ نشئهم[2] الجديد عليه حتّى ينسوا معنى الإسلام بالكلّية، وتذهب منهم روح المقاومة وتأمن أوربا على مستعمراتها، وتنتهي مصارعة الهلال للصليب بعد أن استمرّت بضعة عشر قرنًا. هذا ما ستبادر إليه أوربا إذا زالت دولة اَبن عثمان، لا سمح الله، وهذا ما تتوخّاه كلّ دولة منها بمفردها، وينوب المسلمين من كلّ دولة يومئذٍ ما نابهم في الروملي من البلغار واليونان والصرب والجبل الأسود في الكائنة الأخيرة التي لم يقع في تاريخ الإسلام ما يضاهيها سوى ثلاث مصائب؛ **الطامة الأولى**، الحرب الصليبية التي أُخذ بها بيت المقدس وأكثر الشام وأصبح الحجاز تحت الخطر، **الثانية**، الحرب التاتارية التي خرّبت بها جميع بلاد المسلمين، ما خلا مصر وأفريقية، وسقطت بها خلافة بغداد وبقي بعدها الناس ثلاث سنين بدون خليفة، **الثالثة**، المصيبة الأندلسية التي زال بها مُلْك الإسلام في تلك الجزيرة بعد أن استمرّ فيها نحو ٨٢٠ سنة، وهذه الفادحة البلقانية هي **الرابعة** إذا كانت صدور الأمور مؤذنات بإعجازها، فهذا ما ستفعله أوربا في ذلك اليوم - لا أراها الله إيّاه - ولا ينكر ذلك إلاّ من سفّه نفسه وكذَّب حسّه، وكابر في المحسوس وتناكر مطالع الشموس. فإنَّ تحامل أوربا على الإسلام والدولة العثمانية قائمة، والدول المتناظرة تتشطّر[3] أضرعها في طلب المرفق، وينافس بعضها بعضًا عليه؛ هو ما نراه وما نحسّه في كلّ نبأة. فما ظنّك به وقد فَقَدَ الإسلام حاميه وراعيه وأصبح أبناؤه هملاً وانقلبوا لغيرهم خولاً - والعياذ بالله؟ هل تنفعنا يومئذٍ اللجنة العليا لحزب اللامركزية في كشف تلك الغمّة، أم نلجأ إلى عمّون وزينية وغانم ونجّار وخير الله ومن شاكلهم، مناشدين إيّاهم باللحمة العربية

---

(١) زوالها.

(٢) نشؤهم.

(٣) تُصرُّ. وفي هذه الجملة استعارة يُراد بها أنَّ الدول المتحاملة على الإسلام والدولة العثمانية تُحجم عن إظهار ما لديها إلى أن يتسنّى الوقت لناسب لذلك، "فتحلب" خيرات تلك الشعوب، تمامًا كما تحلب الناقة. (المحقّق)

العزيزة عليهم أن يشفعوا لنا لدى دول أوربا بما لهم من دالّة[1] اللحمة الدينية معها، في الكفّ عنّا والرفق بنا وإعطائنا حرّيتنا والمحافظة على عقائدنا وعاداتنا؟!

لا أظنّ نصارى العرب وحدهم عاجزين عن إدراك تلك الغاية، بل لو توسّط الأمر حضرة البابا نفسه، ومن ورائه الكرادلة والبطاركة، وصاروا وكلاء عنّا، ما سمعوا لهم كلامًا ولأصرّوا على اقتلاع جرثومة هذا الدين الذي يُعلّم أبناؤه إباء[2] الضيم ومحبّة الاستقلال. نعم، المسلمون سيقومون بحفظ دينهم وعرضهم وملكهم مهما بلغ منهم الضعف، ما دام سلاحهم بأيديهم أو أقامت دولة ابن عثمان من فوق رؤوسهم، فلا تكفّ أوربا عن إرهاقهم إلاّ إذا قام لها وازع من نفسها، كأن يقوى الحزب الاشتراكي مثلاً قوّة يقبض بها على زمام الأمور ويتولّى زعامة الجمهور، وذلك لا يزال بعيدًا جدًّا، أو كأن تقع الحرب العامّة فيما بينهم فيسكتون عن الإسلام موقّتًا وبقدر مقدور.

وبعد، فإنَّ الرابطة الجنسية التي يطبّل ويزمّر بها اللامركزيون ويقولون هي حسبنا ولا حاجة بنا إلى غيرها، لا يمكن أن تأتي بالفائدة مع العرب مهما تعب اللامركزيون في بثّ هذه الدعوة، لأنَّ العرب، بدوًا وحَضَرًا، هم أبعد الناس عن الخضوع بعضهم لبعض والاجتماع على طاعة رئيس واحد منهم، وإنّنا عهدناهم الآن في سورية، بواديهم لا تنقطع عن أكل بعضها بعضًا، وحواضرهم ملأى بالأحزاب والفرق، حتّى لو أرادوا انتخاب مختار في قرية لدخلت في ذلك العصبيّات ولم يتّفقوا إلاّ بأن توفِّق بينهم الحكومة. ولهذا الطبع المتأصّل فيهم من على عنق الدهر قال النعمان بن المنذر لكسرى: إنَّ العرب من أنفتهم يكادون يكونون كلّهم ملوكًا ولا يطيع أحدهم الآخر، بخلاف الأعاجم التي إذا وجدت فيها بيتًا عظيمًا أطبقت على طاعته ولم تسمُ إلى منافسته. ومن أجل هذا الخلق أيضًا كانوا لا يجتمعون إلاّ بدعوة دينية تأتي فوق القبايل والعمائر وتتأطئ لها الرؤوس من الجميع، حتّى قال ابن خلدون،

---

(١) جرأة بسبب وجاهته عنده.

(٢) كراهة.

أعظم فيلسوف اجتماعي وواضع فنّ حكمة التاريخ بدون مثال سابق، وصاحب المقدّمة التي لم يؤلّف قبلها ولا بعدها مثلها، إنّه محال اجتماع العرب إلاّ على عصبيّة دينية.

ولعمري، لا بأس من تقوية الرابطة الجنسية العربية، وإحياء موات معارفها، وتجديد ذكرى أنسابها، وعمارة صدور العرب بمعرفة أصولها التي تذكّرها بوحدتها، لكن بشرط أن لا يُبتدأ في ذلك بالنفور والتنفير من الترك وبالقدح في الدولة وهياج خواطر العرب عليها، لا سيّما في هذه المآزق التي ينبغي أن يتناسى الناس فيها جميع الأحقاد، ومع تتابع المحن التي من عادتها القضاء على الإحَن[1]؛ فإنَّ الترك أنفسهم ألّفوا جمعيّة سمّوها "ترك يوردي"، يقصدون بها إحياء الجنسية التركية المنبثّة في شمالي آسية إلى أقاصي الصين لكن بدون تحامل على العرب وبلا سعي في كسر شوكتهم، بل تراهم بالعكس يتمنّون أن يتوفّق كلّ من القبيلين إلى ترقية عنصره بشرط أن تكون غايتهما صيانة هذه الدولة الوحيدة للإسلام وللشرق أجمع.

وعدا ذلك، فما هي الفائدة من أن نأذن الأتراك بحربنا ونحذرهم كيدنا ونجعلهم أعداء لنا، وهم، بحسب زعمنا، أصحاب البلاد والمستبدّون بأمورها من دوننا؟ فإن كانت حركتنا هذه هي لأجل التهويل عليهم والانتصاف منهم، فأشرف منها وأنجع وأجمل في الأحدوثة، وأنفع أن نطالبهم بحقوقنا الضائعة عندهم ضمن الدائرة العثمانية، وبدون مراجعة دولة من دول أوربا، وبأن نتداعى من جميع بلاد العرب ونعقد اجتماعًا في نفس دار الخلافة، ونقدّم مطالبنا، بعد الدرس والتمحيص والتأمّل في الظروف والأسباب، إلى الباب العالي الذي هو مرجعنا جميعًا؛ فإنَّ الدولة، مهما بلغ من ضعفها واضطرارها إلى المداراة وإرضاء المتعنّتين وأعتاب المتجنّين، فإنّها كانت تهاب من جانب العرب المجتمعين من كلّ فجّ في دار الخلافة بطلب الإصلاح والنصفة، أكثر ممّا تهاب من حركة بعض شبّان جاءوا من بيروت وبعض جهات من الشام، ومن جبل لبنان، إلى باريز، وأخذوا يتكلّمون باَسم العرب، وعقدوا مجمعًا

---

[1] جمع إحَنة، وهي المضاغنة العظيمة والقديمة. (المحقّق)

سمّوه مؤتمرًا، وليس من العرب أمير مطاع ولا سيِّد في عشيرة ولا زعيم يُلقى إليه بالمقاليد فوّض إليهم حقّ الكلام عنه أو عن قومه؛ فهذه أشراف مكّة، وهذا الإمام يحيى، وهذا ابن سعود، وهذا ابن رشيد، وهؤلاء زعماء بوادي الشام والعراق وأعيان حواضرهم وأمراء عشائرهم، ومنهم أهل السنان[1] والعنان، لا يعلمون شيئًا من خطب هذا المؤتمر الذي سمّوه بالعربي، وهؤلاء علماء الأمّة العربية وأهل الفَتّيا[2] فيها لم يجوِّزوا شيئًا من أعماله، ولذلك تصدّى أكثر سراة الأمّة وأعيانها لتكذيبهم في النيابة عن العرب والتكلّم باسم الأمّة، وقال بعضهم إنّهم لا يملكون حقّ الكلام إلاّ عن أشخاصهم، وسكت أناس عنهم، لا ارتياحًا لعملهم، بل حبًّا بالسكون والتسكين فقط، وأكبر الجميع عقدهم هذا الاجتماع في عاصمة أجنبية ومراجعتهم وزارات خارجيات أوربا في مسئلة[3] عثمانية صرفة لا مدخل للأجنبي فيها، ممّا دلّ على سوء النيّة؛ عدا ما دار حول هذه المسئلة من الكلام على المبالغ السرّية التي أنفقتها في هذا السبيل بعض الدول ممّا نمسك عن الخوض فيه حفظًا لكرامة بعض أعضاء ذلك المؤتمر الذين نجلّهم عن هذه التهمة، كما أننا نمسك عن الخوض في حديث مشروع الأصفر الشهير الذي دخل فيه، بموجب مقاولة، بعض أصحاب الجرائد في سورية، ثمَّ شاع الخبر وتساءل الناس عن كيفيّة هذه المقاولة السرّية وأخبرهم بعض مَن اطّلع عليها بما تضمّنته من بيع مرافق الوطن، وقامت القيامة على أولئك الوطنيين الذين اتّخذوا الوطن آلة لدريهمات يكسبونها. وبقي الحديث في هذه المسئلة إلى أن وقعت حرب طرابلس، فأدهشت الخلق عن مشروع الأصفر وغيره. ولم يكفّ أهالي سورية وفلسطين عنهم إلاّ بمصيبة عامّة تلهي الأمّ عن ولدها، وما كفاهم ذلك حتّى في السنة التالية قاموا بمشروع أعظم وأفظع، وهو طلب الإصلاحات على قاعدة اللامركزية والسعي في انفصال العرب عن الترك، والنداء إلى ذلك من باريز، وأيام وجود البلقانيين على أبواب دار الخلافة.

---

(١) نصل الرمح.

(٢) الفَتْوَى، وهو ما أفتي به العالِم، أي بيَّن الحكم.

(٣) مسألة.

كانت هذه الحركة عبارة عن استعداد في نفوس كثيرين من أبناء الوطن السوري، من ناقم ومضطغن وكاره وطامع ورائد لأجنبي، يرجو بالانفصال تمهيد السبيل للاختلال إلى غير ذلك. وكانت قوّة الدولة تخفي هذه الحزازات الحاكّة في الصدور، وهؤلاء القوم يتناجون بما يتمنّونه سرًّا ويتوقّعون لإبرازه إلى حيّز الفعل فرصة. فلمّا دارت الدائرة على الجيش العثماني في الروملي، وضعف شأن الدولة داخلاً وخارجًا، وأصبح موقعها لا يساعدها على الشدّة مع رعاياها، أسرع هؤلاء الذين في نفوسهم تلك الأشياء إلى انتهاز هذه الفرصة، وقالوا هذه هي الفرصة الوحيدة لنيل أمانينا، فمن أعجز العجز وأفظع التفريط أن نضيّعها.

وأول ظهور هذه الحركة كان في بيروت، وكذلك في القاهرة، بواسطة بعض السوريين المقيمين بمصر. فأمّا في بيروت، فكانوا يقولون إنَّ الدولة أفلست من كلّ شيء ولم يبقَ فيه أدنى أمل، وأيقنوا بدنوّ أجَل سورية. وجاءت بعض الصحف الفرنسية التي يستطيرها أقلّ شيء، فأخذت تحوم حول الموضوع، وكتبت أنَّ فرنسا لها من المرافق في الروملي ما سيضيع بعد ذهابه من يد الدولة، فالعدل يقضي بالتعويض عليها من جهة سورية. وزعم بعضها أنَّ إنكلترة اعترفت لفرنسا بمركز مخصوص في سورية، وكان الأسطول الفرانساوي أيضًا واقفًا في مرسى بيروت، كما هي العادة إذا حصلت حروب في الشرق بأنَّ كلّ دولة ترسل إلى بحر الشام بعض أساطيلها، وأخذ روّاد الأجانب وسماسرة بيع الأوطان يتكلّمون في موضوع تقسيم المملكة العثمانية. ومن الأمور المعلومة أنَّ الدولة عند الأهالي الذين في تلك البقعة، هي مكروهة وهي قويّة عزيزة، فكيف إذا كانت مغلوبة ضعيفة؟ فظنّ أهل بيروت أنْ قد قضى الأمر، ولم يبقَ بينهم وبين الاحتلال الفرنساوي الاّ قيد شبر، وانقسموا إلى قسمين: قسم منهم، وهم المسلمون وبعض أفراد من النصارى، يرجّحون إنكلترة، والمسلمون يلتمسون إلحاق سورية بمصر إذ بذلك تسعد أحوالها وتروّج تجارتها وتكون في حزر حريز من المهاجمات والحروب التي تتعطّل بها الأشغال وتقف حركة التجارة، ويكون الحكم الأجنبي أخفّ وطأة بظهوره في شكل حكومة إسلامية،

ولو على الأعين، بخلاف ما لو جاءت فرنسا واستولت رأسًا، فتكون المصيبة أعظم. وأمّا النصارى، فرجّحوا فرنسا على إنكلترة، وصار كلّ من الفريقين يتطلّع إلى سير الحوادث ويتذرّع بالأسباب الموصلة إلى غرضه. وقيل إنَّ بعض المسلمين قدّموا سرًّا عرضحال إلى قنصل إنكلترة في بيروت. وأمّا العقلاء، فإنّهم وقفوا عن كلّ حركة مترقّبين نتائج الحرب، وعارفين أنَّ الأمر ليس من السهولة بالدرجة التي توهّموها، وأنَّ وراء هذا التقسيم وهذا النزول بالشام أهوالاً. ولمّا كان في نفوس الفريقين أشياء كثيرة من الدولة ومن طرز الإدارة، منه ما هو بحقّ، ومنه ما هو بغير حقّ، وكانت القوّة في الماضي مانعة من إظهاره، فقد تمكّنوا من إظهار ما في ضمائرهم في فرصة ضعف الدولة بالحرب البلقانية، وهبّوا للمطالبة بالاستقلال الداخلي تحت عنوان: "الإصلاح والحقيقة"؛ إنَّ الإصلاح هو غير الاستقلال الداخلي، ويكون كلّ منهما بدون الآخر. لكنَّ بعض القائمين لا يهمّهم الإصلاح بقدر ما يهمّهم فصل سورية عن الأتراك، وهذا هو غرضهم الأصلي. وآخرون ظنّوا الإصلاح لا يتمّ إلاّ إذا صارت الإدارة منفصلة عن الباب العالي، وكلّ من الفريقين اتّفقوا على أنه لا أمل أصلاً في الشرقيين، أتراكًا كانوا أو عربًا، فلا بدّ من تسليم هذه الإصلاحات إلى مفتّشين أجانب يتولّون إنفاذها. وانعقدت الخناصر على أنَّ سيطرة الأجنبي هي السعادة بعينها والحياة الطيّبة بحذافيرها، وأننا نحن قوم أشبه بالقاصرين، ينبغي لنا أوصياء من الأجانب يتولّون تربيتنا إلى أن نكون بلغنا رشدنا فنتسلّم حينئذٍ أموالنا.

فأمّا العصابة التي في القاهرة، فليس لها من الأمر شيء بسورية، وجلّ ما في يدها النشر في الجرائد والمكاتبة إلى الجهات؛ فأخذت تراسل أهل بيروت وغيرهم، فلم يخرج إلى العمل سوى هؤلاء، لأنَّ كثرة الأجانب في بيروت ومجاورتها جبل لبنان جعلت لأهل بيروت على الحكومة دالّة مخصوصة. وصارت المراسلة بين الفريقين، واتّفقنا على أنَّ هذه هي الفرصة الوحيدة للطلب والثُّلْمَة [1] الفُرَدَة [2]

(١) الخلل.

(٢) الوحيد (وأصله من يذهب وحده). (المحقّق)

لرجاء النفوذ، وأنه إذا انعقد الصلح ذهبت الفرصة، فيجب القيام بالمطالبة في أثناء الحرب والمصائب والنوائب، وترك سياسة العواطف والحياء وعدم الذهاب مع عامل الحنوّ الذي يقضي بإمهال الدولة ريثما تنفض عن نفسها غبرة الموت. ولمّا رأى الذين في القاهرة أنَّ في بيروت مَن يخرج من النظر إلى العمل، وأنه ربّما اقتفى بيروت مدن أخرى، أسرعوا بتأليف لجنة سمّوها «اللجنة العليا لحزب اللامركزية»، وجعلوها مركّبة من بعض أدباء السوريين وفضلائهم وكتّابهم من مسلمين ومسيحيين، وأفهموا أهالي بيروت القائمين بالحركة أنَّ ما هم فيه اَسمه «اللامركزية الإدارية»، وحاولوا أن يلقوا عليهم دروسًا؛ إلاّ أنَّ البيروتيين لم يتقيّدوا بآرائهم من حيث التفاصيل، وإن وافقوهم في الجملة، ومضوا في عملهم وهيّأوا لجنة للنظر في وجوه الإصلاح المطلوبة. وبعد مناقشات طويلة، قدّموها إلى الوالي - يومئذٍ أدهم بك - والوالي كان يساعدهم، أو يوهم أنه يساعدهم حذرًا من أن يشاغبوا الدولة في أثناء الحرب، فلمّا رفع الوالي مطالبهم إلى الباب العالي، أجاب كامل باشا، الصدر الأعظم، أنَّ في نيّة الدولة إنفاذ الإصلاحات في جميع الولايات، لا في بيروت فقط، ولكن لا بدّ لمباشرة العمل من تصديق مجلس الأمّة، وهذا يكون بعد عقد الصلح. وقابل كامل باشا يومئذٍ بعض السوريين في الأستانة، فاَلتمسوا منه تلبية ما يمكن من المطالب الإصلاحية، وكنّا نحن أيضًا ممّن طالبوه بإبناء العرب مطالبهم، فأجاب بأنَّ الدولة تريد إدخال إصلاحات عديدة، لكنَّ هذا التهوّر الذي فيه بعض أهل بيروت هو ممّا لا ترضاه الدولة. هذا كلام كامل باشا الذي يتّخذه اللامركزيون الآن إمامًا ويستشهدون بكلامه. وحقًّا، قد كان التهوّر بحيث أرادوا اشتراط وضع الإصلاحات تحت مراقبة السفراء، ولم يبالوا بكون ذلك يفضي إلى فقد الاستقلال الذي هو أساس كلّ شيء لأجل حياة أمّة. وأغرب من هذا أنهم لم ينظروا إلى جيرانهم أهل جبل لبنان، وما هم عليه من العبودية للقنصليّات في بيروت، ممّا قد أثّر في أخلاقهم وأوضاعهم وجعل جميع العقلاء وذوي الشهامة في لبنان يتألّمون من هذا الحال، بل إنّهم مالوا بأجمعهم إلى تسليم أزمّة أمورهم إلى مراقبين أجانب، وبعد أن كانوا صمّموا على

تفويض مسئلة[1] الإصلاحات إلى سفراء الدول بالأستانة، وجد مَن نصح لهم بالعدول عن هذه الجناية وذكّرهم ما يترتّب عليها من الفجائع في المستقبل، وأنَّ الباب العالي، مهما بلغ من الضعف واكتنفته المشاكل، فلا يمكن أن يقبل هذا الاقتراح بوجه من الوجوه، فوقفوا عن هذا الطلب ولكنّهم أشربوا الأجانب في قلوبهم، فاقترحوا جعل مسيطرين على الولاية ممّن خصّهم الله تعالى بنعمة لبس القبّعة، جزمًا بأنَّ لا إصلاح بدون ذلك، وحيث إنَّ بعضهم فكّر في استحالة قبول الدولة سيطرة الأجانب الرسمية، وكان لا يرى مندوحة من إطلاق أيديهم في الأعمال، ويزعم أنَّ استخدامهم بصفة أجراء خاضعين لإرادة الحكومة لا يأتي بنتيجة، وأنه لن تكون ثمرة للإدارة المرؤوسة بالأجنبي إلاّ إذا كان فيها حرًّا مطلق التصرّف، لجأوا إلى طريقة أخرى جمعوا فيها بين الأمرين، وهي إطلاق يد المستشار الأجنبي في العمل، وعدم وضع البلاد تحت سيطرة أوربية رسمية، وذلك بعقد مقاولة مع المستشارين الأجانب بتولّي هذا الأمر إلى مدّة خمس عشرة سنة لا ينازعهم في أثنائها منازع ولا يعارضهم معارض، وجعلوا للمستشارين الأجانب الحقّ في عزل أعضاء المجلس العمومي، أي أنهم سلّطوهم أيضًا على أنفسهم ولم يبالوا بما يمكن أن يقع مع المستشار الأجنبي من المداخلات من بعض أبناء الوطن، وما يُحدِث ذلك من الاضطراب في حبل الإدارة، وما يجوِّز أن يكون ذلك الأجنبي بعيدًا عن العصمة التي توهّموها فيه ويبقى التخلّص منه صعبًا، ولم ينظروا إلى مَن حواليهم من الأجانب ومَن يليهم من التراجمة، وماذا هناك من الأمور المفتّتة للأكباد التي لا يدريها إلاّ مَن بلاها واصطلى لظاها، بل وضعوا نصب أعينهم قضيّة واحدة، وهي أنَّ الشرقيين، عربًا أو تركًا أو عجمًا، لا يصلحون للإدارة؛ ولا صَلَاح للإدارة إلاّ بالمُصلح الأجنبي، على شرط أن يكون حرًّا مطلق اليد في التصرّف؛ ولمّا كان يتعذّر في الوقت الحاضر إعطاء هذا المصلح سلطة رسمية من قِبل أوربا لعدم اتّفاق دول أوربا على هذا الأمر الذي لا بدّ له من تقسيم المملكة العثمانية، وكان الباب العالي يرفض، ولا يزال يرفض هذه السيطرة

(١) مسألة.

الرسمية ما دامت هذه الدولة قائمة، فإنَّ الجمعيّة الإصلاحية في بيروت قرّرت الاكتفاء الآن بمصلحين أوربيين تنعقد معهم مقاولات إلى بضع عشرة سنة لا يُزعجون أثناءها في شيء. ونظّموا لائحة قدّموها إلى الباب العالي بمطالب وأنظمة عديدة، وأنذروا الباب العالي بأن يجيبهم إليها حالاً، وبدون تردّد، وكان كلامهم الدائر فيما بينهم وفي جرائدهم أنهم هم يطلبون الإصلاح على أيّ شكل كان، وبأية واسطة كانت، فإن لم يأتهم الإصلاح من طريق الباب العالي اضطرّوا أن يطرقوه من جهة الأجانب، وتكلّموا كثيرًا في هذا المعنى. وليس من غرضنا هنا أن نذكر كلّ ما قالوه، ولا أن نسرد اللائحة التي قدّموها، ولكن، كما كانت فيها أشياء كثيرة لا خلاف فيها بين العثمانيين، ولا خوف منها على مستقبل، فإنَّ فيها أشياء بعيدة جدًّا عن الصواب، مجحفة بحقوق العثمانيين عامّة، والمسلمين منهم خاصّة، نظير جعل نصف أعضاء المجلس العمومي مسلمين والنصف الآخر مسيحيين، وجعل عضو إسرائيلي، إذا انضمّ إلى المسيحيين، زاد فريقهم على النصف، ولم نعلم بناءً على أيّ قاعدة ارتضت هذه الجمعيّة أن تجعل كلّ خمسة مسلمين بمسيحي واحد، ولا بناءً على أيّ تفويض من المسلمين جاز لها أن تبيع حقوقهم، فإنّه ما من مسلم يحبّ الحقّ ويسعى لمصلحة بلاده يجادل في وجوب إعطاء النصفة التامّة للمسيحيين، والإقساط التامّ بينهم وبين المسلمين، وتمكين عرى الإخاء بين الفريقين، وتحرّي العدل الذي هو أساس العمران، وتوخّي المساواة المطلقة بين جميع الطوائف. فأمّا اشتراط مشاطرة المسيحيين للمسلمين بالنصف في المجلس العمومي، مع كون المسيحيين هم أقلّ من الربع في مجموع سكّان ولاية بيروت، بل هم نحو ١٨ من المائة، فذلك لا ينطبق على عدل ولا على مساواة وليس من شأنه أن يزيد الألفة ولا أن يزيل الوحشة التي لا تزول إلاّ بالإنصاف؛ ولا نظنّ عقلاء المسيحيين يرون ذلك الإجحاف بأبناء وطنهم ضربةَ لازبٍ[١] لإتمام الإصلاح. وعلى فرض أنَّ مسلمي الجمعيّة الإصلاحية أرادوا أن ينزلوا عن حقوقهم وحقوق مَن يلفّ لفّهم من الأهالي، فبأيّ

(١) إنَّ تعبير "ضربة لازب" يعني أنَّ الأمر أصبح لازمًا ثابتًا. (المحقّق)

سلطان وهبوا حقوق غيرهم ممّن ليس تابعًا لهم ولا قائلاً بقولهم؟! فإن مسلمي بيروت أنفسهم لا يقبلون جميعًا هذا الحكم، وما يرضاه إلاّ النزر اليسير من عامّتهم. وأمّا مسلمو الألوية التابعة لبيروت، كعكّا ونابلس واللاذقية وطرابلس، فإنّهم، فضلاً عن كونهم لا ينزلون عن حقوقهم، فإنّهم لا يعلمون أهالي بيروت أوصياء عليهم، يتصرّفون بشؤونهم العامّة كيف يشاؤون. وهناك طوائف إسلامية ثانية تعتدّها الدولة دائمًا من جملة الفرق الإسلامية المندمجة في مجموع الأمّة، كالمسلمين الشيعة، وكالدروز، وكالإسماعيلية، وكالنصيرية، وكلّ من هذه الفرق موجود منه قسم كبير في ولاية بيروت، بل الشيعة هم العنصر الغالب في ملحقات مركز الولاية، وعليهم المعوَّل في انتخاب مبعوثي بيروت. والنصيرية هم العنصر الغالب في لواء اللاذقيّة، فهؤلاء لا يتركون أيضًا الحقوق الثابتة لهم على نسبة عددهم، ولا يفوّضون أمورهم إلى فرقة من مسلمي بيروت ولا إلى غيرهم، وقد كان جواب مَن قرّروا هذا القرار، بأنهم أعطوا المسيحيين النصف نفيًا للتعصّب الذميم الذي يريدون إزالته من بين الطوائف، مع أنهم بهذا لم يزيلوا شيئًا من التعصّب، بل خلقوا له بعدم الإنصاف أسبابًا جديدة وفتحوا أبوابًا كانت مسدودة، وكان عليهم، لو شاؤوا ترك الكلام في الطوائف والمذاهب، أن لا يشترطوا انتخاب عدد معيّن من هذه الطائفة أو من تلك الطائفة، بل وجب أن يتركوا الانتخاب شائعًا بين الجميع، موقوفًا على الكفاية والاستعداد، بحيث لو انتخب الأهالي ثلثي المجلس من المسيحيين بدون أن يكون ذلك عليهم حقًّا واجبًا لما اعترض أحد، وحينئذٍ كان يمكن أن يقال حقًّا قد ارتفع التعصّب وصار النظر إلى مَن فيه الأهلية والمصلحة الوطنية؛ ويا ترى، لو كان المسيحيون هم العنصر الأغلب في الولاية، فهل كانوا يرضون بالنزول عن حقوق الأكثرية؟ وهل هم راضون الآن في جبل لبنان الذي هو بجوار بيروت، وأمام أعين أهل بيروت، بأن يكون للطوائف الإسلامية التي فيه نصف أعضاء مجلس الإدارة كما هو للمسيحيين؟ وهل هم ناظرون في انتخاب الأعضاء إلى الأهلية والكفاية، أم إلى ميل الطوائف في لبنان؟ فإن كان الجواب على كلّ هذا سلبًا، فلماذا يرضخ

بعض مسلمي بيروت من حقوق الإسلام بدون أدنى مسوغ؟ ولماذا يجدحون من سويق[1] غيرهم؟ ولقد سمعنا لهم جوابًا آخر، وهو أنهم اقتفوا في ذلك أثر الدولة نفسها التي ساوت بين المسلمين وبين المسيحيين، وأنها في المحاكم تأمر دائمًا بأن يكون (نصفي مسلم ونصفي غير مسلم)، إلى غير ذلك؛ وهي في الحقيقة مأثرة من مآثر حلم الدولة العثمانية ورفقها بالطوائف الضعيفة في بلادها، مع عدم رفق الدول الأوربية بالمسلمين الذين يقعون تحت سلطتهم، وهي مع ذلك لا تملّ الرفق ولا تسأم من النصفة في بلادها مع مشاهدتها الظلم والهضم لأبناء دينها في غير بلادها، وليس منّا مَن يزهد الدولة في هذا المنزع العالي من كرم الأخلاق، ولا مَن يرغب بها عن إعطاء الضعيف أكثر من ماله من الحقّ تقوية له وتمكينًا، وإنّك لترى لواء نابلس فيه ١٦٠ ألف مسلم و٢٥٠٠ مسيحي، وتجد الأعضاء المنتخبة في مجلس الإدارة هناك ثلاثة من المسلمين واثنين من النصارى، أيّ بزيادة واحد فقط للإسلام، مع أنه لو روعي العدد لما أمكن أن يخرج للنصارى عضو في مثل هذا اللواء، وأغرب من ذلك أنّ قضاء طبرية مثلاً فيه بضعة عشر ألفًا من المسلمين وكذلك من اليهود، ونحو ١٠٠ مسيحي، منهم ١٠ روم أرثوذكس والباقون كاثوليك. وللمسيحيين عضوان أحدهما بمجلس الإدارة والآخر في المحكمة، وقد تكون النوبة للأرثوذكس فيكون لهم عضو نائب عن أولئك العشرة الأشخاص لا غير. وإذا استقرأت ولايات الدولة شرقها وغربها، وجدت من هذه النظائر ما لا يدخل تحت حصر، فلا نتعرّض إلى هذا الموضوع إلاّ من قبيل الإيماء. ولكنّ الدولة في هذا لم تقصد إلاّ تأمين حقّ الضعيف، مع كونها هي المهيمنة على حقوق المسلمين، إذا خيف عليها الاهتضام فعلاً، ومع كون أمر الإدارة المركزية منوطًا بالباب العالي وحده الذي هو ديوان الخلافة؛ فأمّا إذا صارت في الولايات الإدارة اللامركزية، فقد انتقلت الإدارة من المركز الأعلى إلى مركز الولاية، ومن الحكومة إلى أعيان الولاية، وصار المجلس العمومي هو الآمر الناهي وقام هو مقام الحكومة؛ فأصبح

---

(1) جَدَح السويق: لتّه، أي بلّه بشيء من الماء. والسويق هاهنا هو الناعم من دقيق الحنطة والشعير. وقد تعني في أحيان أخرى "الخمر".

إعطاء حقّ النصف لمن ليس نصفًا ليس فيه شيء من النصفة. فالمسئلة[1] لا تقبل القياس، ومن الغريب أنَّ هؤلاء الجماعة لم يكن يعجبهم شيء من مناحي الدولة، فلمّا وصلوا إلى هذه القضيّة زعموا أنهم إنّما يقتفون أثرها ولا يحيدون عن طريقها، ولكنّهم أخطأوا القياس؛ فالمجلس العمومي هو لا ينظر بغيره، لا سيّما بعد تصوّرهم وضعه تحت مراقبة المفتّشين الأجانب. وممّا كانوا يطالبون به، عدم استخدام العسكر في غير أوطانهم إلاّ في زمن الحرب، وقد قيل لهم في ذلك فأصرّوا على طلبهم، فقيل لهم إنَّ ولاية الحجاز لا تعطي الدولة عسكرًا، فبأيّ عسكر تحافظ الدولة على الحرمين الشريفين وتؤمّن طرق الحجّاج، إن لم يكن بالعسكر الآتي من الولايات الأخرى؟! فلم يحكّ[2] هذا الكلام فيهم، ولم ينظروا في صيانة الحوزة. وبلغ من بعض العامّة التهوّر أن ظنّوا أنَّ اللامركزية تكون سببًا للإعفاء من الخدمة العسكرية بتاتًا، فقال لهم بعض أعيانهم: فمَن يدافع إذًا عن هذا الملك؟ ومَن يصون ذماركم إن انتبذت كلّ ولاية ناحية وقالت لا نعرف إلاّ الوطن الخاص؟ لا جرم أنَّ الوطن الخاص أيضًا يذهب في ضمن الوطن العام إذا بقي هذا بدون حامية، فكان ذلك لا يهمّهم. وإذا عاتبتهم من هذه الوجهة، قالوا لم نقل: فليكن لنا جيش قائم بذاته، منفصل عن سائر الجيش العثماني، وإنّما قلنا: لا يُحمل العسكر على الخدمة في غير ولايتهم إلاّ في وقت الحرب. ولقد رضيت الدولة أخيرًا باستخدام العسكري في منطقة وطنه، لكن بعد إجراء قانون أَخْذ العسكر الجديد الذي ليس فيه استثناء أحد. ولعمري، لو كانت التربية الوطنية والمعرفة بالواجب هما كما هما في النمسا والمجر، أو في ممالك ألمانيا مثلاً، لَما كان ثمّة محلّ للاعتراض، إذ ينهض الأهالي من تلقاء أنفسهم ويطيرون إلى الثغور زرافات ووحدانًا للدفاع عن الوطن، لا فرق عندهم بين أن يكون ذلك فرضًا عليهم أو تنفّلاً[3]. فأمّا والمعارف عندنا لا تزال قاصرة، والوطنية اَسم بلا مسمّى، والقلوب شتّى، والأفكار متسمّمة،

---

(١) المسألة.

(٢) ما أثّر فيهم وما تخالجوا له. (المحقّق)

(٣) من تنفّل، أي أن يقوموا بالشيء رغمًا عنهم. (المحقّق)

واليأس مستحكم، الحلقات والعناصر لا يهادن بعضها بعضًا، فلا يُرجى إذا امتازت الولايات العربية بالخدمة العسكرية كما تريد أن تنهض لأداء واجبها العسكري في أيام الحرب أيضًا، وكيف ترى إذا كانت الدولة تستنفر إحدى هذه الولايات للحرب مع أجنبي روّاده مالئة[1] الولاية، وأمواله متسرّبة إلى الجيوب من الشمائل[2] والجنوب، وأنصاره في نفس الولاية يحصون بالألوف، لا مِرْية[3] في أنَّ الدولة تصير يومئذٍ بإزاء حربين لا حرب واحدة؛ إحداهما مع ذلك الأجنبي، والأخرى مع الأهالي أنفسهم، أو مع قسم منهم ممّن تشبّعوا بأفكار الانفصال عن الدولة وقرأ عليهم أولئك السماسرة تلك الرُّقي[4] والشعوذات، وحكوا لهم قصّة أنَّ الوطن اليوم قائم بالنزعة الجنسية، فلا مجانسة بيننا وبين الأتراك تحدونا[5] على القتال معهم صفًّا؛ ولا يزالون بهم حتّى إذا هوى هذا الوطن التاعس الجدّ في هاوية السلطة الأجنبية، وقالوا لهم: أين نعراتكم للجنس العربي ونبراتكم في وحدة كلمة أبناء يعرب على مَن قصد بلادهم بسوء أو طمع في الاستيلاء عليهم؟ قالوا: قضى الأمر! ليأخذ بعضكم بيد بعض إلى قبول هذه السلطة، ولا تطمعوا مع أبناء أوربا بما كنتم تطمعون فيه مع الترك، فليس الأمر متشابهًا. وربّما هزأ بهم مَن هزأ، قائلاً: نحن خدعناهم سعيًا إلى غاية هي غايتنا من قبل، فكان عليهم أن لا ينخدعوا! وربّما كان بعض النافخين في بوق الانفصال غير منافقين، بل معتقدين في الوطن الكفاية للاستقلال، فإذا أدّت هذه القلاقل والهزاهز[6] إلى سقوطه واستيلاء دولة أوربية عليه لا يكون مغتبطًا بها، ولا سعيدًا، ولكن ماذا يفيد الندم إذا زلّت القدم؟ وماذا يغنينا يومئذٍ صِدْقُ قائمٍ في قيامه بعد نفوذ سهامه؟ ونحن نعلم ما عندنا من افتراق كلمة المسلمين من جانب، وافتراق المسيحيين أنفسهم من جانب آخر، ومن

---

(١) بمعنى تملأ.

(٢) المقصود الشمال.

(٣) المِرْيَة، وتصحّ بضمّ أولها أيضًا، وهي الشك. (المحقّق)

(٤) وهو جمع "الرُّقْيَة"، وهي العوذة، أي ما يُرقى به الإنسان من فزع أو جنون لأنه يعاذيها، وهي تُكتب وتُعلَّق على الإنسان، فتحفظه من العين والفزع والحسد وغيره.

(٥) تدفعنا.

(٦) الهَزاهِز: تحريك البلايا والحروب الناس. وقد جاء في "لسان العرب": الفتن التي تهزّ الناس.

تشتّت القلوب وتضارب النيّات، ومن قوّة الإفرنجة في بلادنا وضعفنا معهم، وكونهم يقدرون أن يستظهروا علينا بأنفسنا وبإخواننا وبأعزّ الناس لدينا، ولا يفوتهم منّا مطلب، وليس عندنا سنوسي تجتمع عليه كلمتنا وتُخْلص له طاعتنا، بل كلّنا سنوسي، وكلّنا قائد، وكلّنا رئيس، وليس منّا رئيس يقرّ لآخر بإمامة ولا زعامة! وما ضمّ شملنا إلى يومنا هذا إلاّ الحكومة العثمانية معما[1] هي فيه، فإذا تركتنا وشأننا تَفرَّقنا طرائق[2] بددًا وصرنا حزائق[3] قددًا.

وأمّا تخويل المجلس العمومي في الولاية تلك الحقوق والاختصاصات التي تكاد تكون هي الحكومة بأسرها، فكلّ عاقل يقرّ بأنه على الحالة الحاضرة أمر هو فوق الطاقة ودون المصلحة، ولذلك وضع مصلحو بيروت المجلس العمومي تحت سيطرة المستشارين الأجانب إقرارًا صريحًا بكون البلاد لم تستعدّ إلى الآن لمثل هذه الدرجة، ولم تتوفّر فيها الكفاية لإدارة الأمور العامّة. فأمّا اللجنة اللامركزية العليا في مصر، فإذا كانت هي العليا وكلّ اللجان من دونها، وكان فيها أساطين الحكمة وفحول الإدارة وقروم[4] المعرفة، فقد انتقدت تسليط أهل بيروت المفتّشين الأجانب على أنفسهم. وصرّح الشيخ رشيد رضا في مقالة مشبعة بكون أهالي بيروت حسبوا أنَّ المفتّشين الأجانب هم الخلفاء الراشدون، مع أنه ينبغي أن يعلموا علم اليقين أنه لم يوجد سياسي واحد في أوربا رضي بأن تجري المساواة بين الأوربيين والشرقيين، بل عندهم إنَّ جميع الشرقيين لا يساوون صعلوكًا أوربيًّا، هذا هو إقرار الشيخ رشيد رضا بعينه ومينه[5].

ومن هنا يظهر أنَّ برنامج اللجنة "العليا"، زاد الله علوّها، في مصر لم يكن برنامج الجمعيّة الإصلاحية في بيروت، وأنَّ كلاًّ منهما انفردت بخواطر وأفكار

---

(١) مع ما.

(٢) مفردها طريقة وهي المذهب، وهنا مذاهبه قد تفرّقت بددًا التباعد والتفرّق.

(٣) مفردها "حَزيقَة"، وهي الجماعة من الناس، وهنا المتفرّقة (قددًا). (المحقّق)

(٤) السادة المعظّمون.

(٥) المين في اللغة هو الكذب، ولعلّ الحاصل هنا خطأ مطبعي، إذ من خلال ما سبق يتأتّى لدينا أنَّ المراد بهذه الكلمة هو البيان، لا الكذب. لذا قد يكون من الصائب وضع كلمة "وبينه". (المحقّق)

عن الأخرى، ولكنّهما كانتا متّفقتين في وجه الحكومة المركزية، وكانت لجنة «السبلاندربار» هذه التي بمصر تتحكّك بلجنة بيروت لتعظيم شأن حركتها واكتساب الاسم والسمعة بها، لكون هذه الحركة لم تخرج من الكلام إلى الفعل إلاّ في بيروت، وفي مدينة بيروت. ومن الغريب أنَّ الباب العالي نفسه ندب أهالي سائر البلاد العربية لبيان مطالبهم، وكان ذلك في أواخر وزارة كامل باشا، فبعض الولايات أجاب أنهم لا يفتحون هذا الباب في أثناء الحرب، ولا يقدرون أن يفتكروا في شيء قبل عقد الصلح الذي هو الشرط الأول لإمكان الإصلاح. وإنَّ بعض الولايات، نظير الشام، اجتمع أعيانها وقرّروا مطالب متباعدة جدًّا عن مطالب بيروت. وقد بذل دعاة اللامركزية أقصى جهدهم في تحريك أهالي دمشق للمطالبة بمثل اقتراحات هذا الفريق من أهل بيروت، فكان ذلك سهمًا في الهواء وكتابة على صفحات الماء، ولم يتّبع وساوسهم إلاّ أفراد قلائل من دمشق وحمص، لا يرجح بهم ميزان الولاية، ولا يقدرون على الاستقلال بعمل عمومي. وكذلك مدّوا الصريخ[1] إلى حلب الشهباء، فلم يسمعوا لهم نداءً ولا انتطح فيها عنزان[2]. وقد حاولوا أن يثيروا ثائر فلسطين وكاتبوا مَن يعلمونه ناقمًا من أهلها، فلبّاهم شذاذ مثل حافظ بك السعيد في يافا وغيره، لكنّهم في قلّة بالقياس إلى أنصار الحكومة، فلهذا لم يمكنهم أيضًا إحداث حدث في القدس الشريف ولا عقد لجان خاصّة، فعادوا يبثّون الدسائس في جزيرة العرب مشاغلة للدولة وزيادة في خطوبها، غير ناظرين إلى خناق الدولة بالحرب الطاحنة التي استهدفت لها لأجل الإسلام والأوطان، وغير عاطفين، إن لم يكن على عساكر الترك، فعلى عشرات ألوف من عساكر سورية يتساقون كؤوس المنايا بين شتطالجه[3] وبولايير[4]، وغير متذكّرين أنَّ الشغب والتحريك في البلاد العربية هما ممّا يزيد قوّة الأعداء المعنوية ويجرّئهم على مهاجمتنا، ويجعل لأوربا سبيلاً علينا في إيجاب الرضى بأي صلح تيسّر، وأننا

(١) الصراخ.

(٢) مثل يُضرَب للأمر الذي يقع ولا يختلف فيه أحد.

(٣) أسماء مناطق في أوروبا.

(٤) قد يكون الاسم الذي أُطلِق على المناطق المحاذية للقطب، وهي تشغل مساحة ٤٣ مليون كيلومترًا مربّعًا.

بهذه الدسائس نكون كمن ذبح ولده بيده، وغير راقبين في دولتهم ولا في وطنهم إلاًّ[1] ولا ذمّة، فتراهم أبدًا يدسّون إلى الإدريسي في عسير أن لا يرضى، ولا يصالح، ولا يأمن غدر الترك. وكلّما نامت الفتنة أيقظوها وتهلّلت وجوههم بأخبار تجدّدها، مع أنه سفك دماء الإخوان المذخورة لفداء الأوطان. ونراهم ناقمين على الإمام يحيى ائتلافه مع الدولة ووضعه حدًّا لهاتيك الفتنة الصمّاء في اليمن، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين زيّنوا لاَبن سعود أن ينتهز فرصة الحرب البلقانية وخطب أدرنة ويهجم على الإحساء ويأخذ لواء نجد، ولا يبعد أن يكونوا الآن ناقمين عليه اتّفاقه مع الدولة وتسميته واليًا وقائدًا على ولاية نجد من قبل السلطان. ولا شبهة في كونهم هم الذين يغرون السيِّد طالب الرفاعي، اَبن نقيب أشراف البصرة، بالخروج على الحكومة ورفع لواء الثورة؛ فإن لم يكن فعل إلى الآن فيكون اتئادًا[2] منه وحسابًا للعواقب، أو وقوفًا عند خاطر أبيه.

وما فتئ أولئك القساة الذين لا يخافون الله، ولا يشفقون على عباد الله، ولا يهمّهم خراب بيوت الخلق، إذا أدّى ذلك إلى إدراك غايتهم، يدسّون دسائسهم في البلاد العربية من أقصاها إلى أقصاها، وينضمّ إليهم كلّ ناقم بسبب شخصي أو نزعة حزبية أو نزعة شيطانية، حتّى تمكّنوا من إيجاد مسئلة[3] يقال لها المسئلة العربية، مع أنَّ العرب لا يعرفونها، ولو عرفوها للزم أن يقتفي أثر أهل بيروت سائر مدن سورية بالفعل، أو على الأقلّ أهل دمشق وحلب والقدس. والحال أنه لم يكن شيء من ذلك، وأنَّ الجعجعة[4] عظيمة والطحن أقلّ من القليل، وإذا خرجت الحركة من الجرائد لم تكد تحسّ لها ركزًا، فلهذا اعتنى أولئك النفر أن يهوّلوا في الصحف العربية ما شاءوا يصوّروا بلاد العرب بصورة أطمة[5] منفتحة أو حرجة مشتعلة، وأشاروا إلى أرباب الصحف العربية في سورية، والصحف

---

(١) الإلُّ وهو العهد والحِلْف.

(٢) اتّقاء العواقب.

(٣) مسألة.

(٤) صوت المطحنة عند طحن القمح.

(٥) وردت في أقرب الموارد "للشرتوني"، الأُطُم، جمع آطام، وهو الحصن. كذلك هناك الأطيمة وهي موقد النار.

السورية في مصر، والصحف العربية بأميركا أن يشعلوا النار من كلّ مكان، وأجازوا لهم الافتراء والاختراع في سبيل الوصول إلى الغاية؛ فاندفعت هذه الجرائد اندفاعًا يعلمه كل مَن اطّلع عليها أو على بعضها، وأرسل بعضها عنان الاختلاق بقدر ما سمح له وجدانه، وصارت الدولة العثمانية هي المقصودة بالعداوة، لا البلغار، ولا اليونان، ولا الصرب، ولم يبقَ لنا شغل في إبّان هذه الأزمة إلاّ تهييج العرب على الترك، مع أنَّ الأزمة لم تخصّ الترك دون العرب، بل هي مأتم الفريقين ونعش الجنازتين، لا سمح الله، وإذا أصاب الترك شيء فلن نبيت نحن على فراش من حرير!

وقد كانت طلائع هذه الحركات بدت، كما أسبقنا، في وزارة كامل باشا، وهو نفسه أفهم أهل بيروت استحالة إجراء مطالبهم قبل التئام مجلس الأمّة؛ ففي تلك الأثناء صارت مسئلة أدرنة[1]، وهجم الاتّحاديون على الباب العالي، فحاول حجاب الصدر معارضتهم بالقوّة، فتبادلوا الرمي بالرصاص وقُتِلَ من الفريقين أناس، ووقع في هيعة[2] ذلك ناطم باشا صريعًا، واستقالت وزارة كامل وجاءت وزارة محمود شوكت باشا، فهناك قامت القيامة وانضاف إلى بغضاء الترك بغضاء الاتّحاديين، ترك التُرك والسدّ الحائل دون تفكيك أوصال المُلْك، وكأنك ذررت على الجرح ملحًا، وكأنك صببت على النار زيتًا، وصار ناظم باشا، مع كونه باتّفاق الآراء مسؤولاً عن أكثر مصائب الروملي، هو الفقيد الأعزّ والبطل الأكبر الذي انهدّ به ركن الدولة وهوى نجم سعدها، وأمسى، عفا الله عنه، قد ناحت عليه نوادب اللامركزيين والائتلافيين بدموع غزار، ولطموا خدودهم من أجل مصرعه، حتّى إذا جاء غريب وشاهد حال هذه الفئة بعد تلك الواقعة ولم يكن عنده تفصيل أخبار الحرب البلقانية، ذهب به الظنّ إلى اعتقاد الدولة، بحسن تدبير ذلك القائد الأعظم، قد طحنت جيوش الدول الأربع المحاربات ودخل الجيش العثماني

---

(١) مدينة في ليبيا.

(٢) الهَيعة (بالفتح)، وهي سوء الحرص مع ضعف، وتعني أيضًا الصوت الشديد.(المحقّق)

عواصمهن، وأنّ الاتّحاديين، حسدًا له و بغضًا، جاءوا ففتكوا به عمدًا، مع أنّ قتله وقع بدون عمد، بل في أثناء الترامي. وقد ساء كلّ إنسان، مع كلّ ما سبق من خطيئاته، لأنّ سفك الدماء مذموم بكلّ الأحوال، ولكنّ هؤلاء الجماعة، من شدّة تغلّب هواهم على عقولهم، جعلوا مصرع ناظم كمقتل الحسين بن علي، رضي الله عنه، أو كمقتل عثمان بن عفّان، رضي الله عنه، وهو الذي اتّخذه بنو أميّة وسيلة للمنازعة على الخلافة وسلّمًا للارتقاء. ومن العجيب أنهم كانوا يتميّزون[1] غيظًا من تصدّر محمود شوكت باشا في الباب العالي، وما زالوا ناقمين على الدولة وزارته حتّى مضى لسبيله - رحمه الله - شهيد حميّته على وطنه، وضحيّة صفاء سريرته؛ فكان قتله عندهم عيدًا مع كونه معدودًا من العرب ومولده ومنشؤه بغداد، وسلفه في مدينة السلام منذ ١٥٠ سنة على حشمة وسراوة، كما يشهد بذلك كلّ العراق؛ فلا يعرف الناس محمود شوكت إلاّ عربيًّا وهم يدّعون الحميّة على العرب والعربية. وعلى فَرَض أنّ أصله تركي أو كرجي[2]، فالمرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ولعلّه عربي أكثر من كثيرين من القائمين بدعوة اللامركزية والعربية ممّن لا يعرف لهم الناس في العرب قديمًا ثابتًا ولا جديدًا نابتًا، وقد أصمّوا الآذان بصراخهم في شأن العرب. ولو كان ناظم باشا عربيًّا أو فيه أقلّ عرق من العربية لقالوا إنّ الأتراك قتلوه بغضًا بالعرب ولم يطيقوا أن يروا منّا ناظرًا للحربية، وكانوا أشعلوا نار الثورة. وأغرب من شدّة غضبهم لقتل ناظم باشا الذي ليس فيه مسوغ للغضب، وأعجب من شدّة حزنهم على المصاب به (ولو كان رصيفه[3] جمال الدين أفندي، شيخ الإسلام السابق، يقول إنّه مسؤول أمام الله عن أكثر المصائب التي وقعت على الجيش العثماني، وإنّه مستحقّ للقتل) ما كان يظهر منهم من الغيظ والتحرّق على أنور بك الذي يندر أن يوجد مثله في شبّان الدنيا بأسرها في عقله وحزمه وذكائه ومضائه وشرف نفسه، فإذا سألتهم عن سبب هذا المقت

(١) يتقطّعون غيظًا.

(٢) كردي.

(٣) وهو معارضه في عمله.

لبطلٍ نظير أنور قدّرت قدره أوربا بجميع أصنافها، أجابوك: أفلم يكن هو السبب في سقوط كامل باشا، ذلك الشيخ المحنّك، وفي ذهاب أدرنة، وفي قتل ناظم باشا؟ إلى غير ذلك؛ وحقيقة الحال أنه لا يوجد أدنى سبب للأسف على فراق وزارة ذلك الشيخ المحنّك، قطب السياسة، لأنه مع مزيد حنكته ودوران السياسة على آرائه لم تجد الدولة في أثناء وزاراته إلاّ أفظع الفظائع وأفجع الفجائع، ولم تكن أدرنة لتبقى لنا بواسطته، ولا قال ذلك أحد من رجال السياسة. وأمّا قتل ناظم باشا، فقد وقع في معمعة الهجوم بعد سقوط مصطفى نجيب قتيلاً، وأثناء فورة الدم، وكان أنور ساعتئذٍ داخلاً يفاوض الصدر الأعظم، كما شهد بذلك نورادونكيان أفندي، ناظرِ الخارجية. وبعد، فهل نسي العثمانيون خدمة أنور العظيمة في إعلان الدستور؟ وهل نسيت الأمّة العربية بخاصّة، أعمال أنور والفري[1] الذي فراه في الجبل الأخضر، والتدابير الرشيدة والوقائع الشديدة التي عقدت له من محاب قلوب العرب، ما لم ينعقد لأحد قبله؟ أو هل انحصرت الأمّة العربية في أشخاص معدودين من متعنّتي سورية ومفسديها، ولم يبقَ لعرب أفريقية، ولا لعرب الجزيرة، ولا لسائر عرب الشام حقّ في الكلام باسم العرب؟ وهل أصبحت الحميَّة العربية مقصورة على مشاقّة[2] الترك ومخاصمة الدولة، حتّى إذا وجد العرب بإزاء دولة أجنبية كان قصارى سعي اللامركزيين أن ينصحوا لهم بالاستسلام لها وترك المقاومة، كما فعل أعضاء اللجنة العليا؟ فمَن لم ينصح لهم بالخضوع منهم لم يأتِ بأقلّ حركة لمعاونة مجاهديهم الذين بنوا من الشرف للعرب ما لم يبنه قبيل[3] عربي سواهم، لأنهم كافحوا دولة عظيمة كإيطاليا، واستظهروا عليها في وقائع لا تكاد تحصى، وغنموا من عساكرها المدافع والبنادق والملابس والذخائر، وحفظوا أكثر مراكزهم أمامها، ولم تتقدّم خطوة عن البحر إلاّ بدينار تعطيه أو شقاق تلقيه، وهم قوم مجرّدون من أسباب الدفاع، محصورون من البرّ والبحر، فبمثلهم

(١) وهو الأمر المختلف المصنوع أو العظيم. وقد تأتي بمعنى الإصلاح. (المحقّق)

(٢) من شاقّهُ مُشَاقّةً، أي خالفه وعاداه.

(٣) قبيلة أو عشيرة.

فليفخر العرب، وبأعمالهم فليعتبر الذين لا يبرحون نادبين نائحين، وصاخبين صائحين، يقولون لأهل الشرق: انقطع الأمل وأنفد في البطن السَّلَى[1]، فليس أمامكم إلاّ الرمي بقيادكم إلى أمّة أوربية.

ولمّا تصدّر محمود شوكت وجاء الاتّحاديون، امتدّت الشحناء واشتعلت في القلوب اشتعال النار في يابس العَرْفَج[2]، وبلغ من حقد بعض تلك الفرقة أن صاروا يعترضون على جميع أعمال وزارة محمود شوكت، حتّى على استلاف بعض أموال من مصارف أوربا لميرة الجيش العثماني المرابط على أبواب دار الخلافة، والذي فيه نحو ٦٠ ألفًا من العرب، فكانت حميّتهم على أبناء جلدتهم أن يسعوا في منع الرزق والذخيرة عنهم، وفي إماتتهم جوعًا، وقد أنكروا هذه الأفعال خوف أن يفتضح أمرهم وينهتك سترهم، ولكن لا يفيدهم الإنكار، وفي الصحف المنشورة مقالات تحت توقيع بعض أعضاء لجنتهم العليا، ملأى بالاعتراض على استلاف الوزارة المال لمتابعة الحرب، وبعضهم وضع مسئلة القرض موضع البحث القانوني؛ هل يجوز لوزارة متغلّبة بالسيف أن تعقد بأسم الدولة قروضًا أم لا؟ وأعرق في الغرابة من ذلك، أنَّ بعضهم سأل نفس كامل باشا، بعد انقلابه من الوزارة ومجيئه إلى مصر، هل تعتدّ وزارة محمود شوكت الجديدة وزارة مشروعة؟ وهل عقودها ماضية وأعمالها نافذة؟ فكان جواب كامل باشا بالإيجاب، قائلاً: لا محلّ للاحتجاج على مشروعية الوزارة الجديدة ما دام السلطان قد أمر بذلك. فبلغ بعضهم من الشحناء ما لم يبلغه كامل باشا نفسه، وهو لمّا ينفض بعد غبرة الموت من وقعة الباب العالي.

على أنَّ محمود شوكت باشا بمجرّد وصوله، أعلن أنه لا يريد مخالفة الوزارة السابقة فيما كانت شرعت به من تبديل شكل الإدارة الداخلية، بل ينوي توسيع دائرة الإصلاحات عمّا كان قرّر سلفه، وتقسيم المملكة إلى مناطق، تدار كلّ منطقة

(١) السَّلى هي الجلدة التي يكون فيها المولود من بشر أو حيوان. وفي تعبير «انقطع السَّلى في البطن» معنى ذهاب الحيلة. (المحقّق)

(٢) شجر سهليّ، وقيل هو القتاد (أي شجرٌ صلب له شوك كالإبَر، وهو الأعظم).

على أصول مختصّة بها، فلم يرق ذلك في أعين دعاة اللامركزية، ومَنْ هناك، من الاثني عشر نقيبًا، والمائة والأربعة والأربعين نجيبًا، ولبثوا يحذّرون الأمّة من الاتّحاديين، ويدمّرون عليهم، ويُرْجِفُون[1] بأحوال الدولة ويقطعون آمال الناس ويوغرون على الدولة صدور أهل الشام وأهل العراق؛ كأن يكتب رفيق بك العظم في جريدة "المؤيّد" مثلاً أنَّ الباب العالي يساوم بعض الشركات الأجنبية على بيع بعض مرافق سورية، وأنَّ الدولة باعت الكويت من الإنكليز، والحال أنَّ هذه الفئة عينها هي التي طالما انتقدت الدولة في جمودها وتعصّبها وتجافيها عن معاملة الأجانب الذين لا يرجى إصلاح البلاد إلاّ بهم، وبما لهم. ورؤوس هذه العصابة هم الذين كانوا أول مَن تواطأ مع نجيب الأصفر في مقاولة سرّية على أخذ جفتلك غوربيسان لحساب شركة باريزية، وليس ذلك ممّا يطابق خطّة الانتقاد الذي عاد ينتقده رفيق بك في شيء. وأمّا الكويت، وما أدراك ما هو! فإنَّ الدولة لم تحكم في الكويت في وقت من الأوقات إلاّ على الشكل الذي تحكمه الآن، ولكنَّ سوء تصرّف بعض الولاة، والشقاق الذي لا يزال مصدر مصائب العثمانيين ـ وكلّ أمّة حلّت بها المصائب ـ حملا أمير الكويت على مصافحة إنكلترة التي عقدت معه مقاولات تتعهّد بها أن تحميه من الدولة فيما لو أرادت عزله من هناك. وكانت الدولة، إلى هذه السنة، لا تريد أن تعرف هذه المقاولات. ولمّا بلغ منها الجهد وأحاط بها الخطر من كلّ مكان، واحتاجت إلى المال، واضطرّت إلى تقوية الأسطول، وأدركت الضرر البليغ الذي أصابها من ضعفه ونزول درجته عن درجة الأسطول اليوناني، مدّت يدها إلى مصافحة إنكلترة، ومالت إلى تصفية كثير من المسائل المعلّقة بينهما في العراق، كمسئلة سكّة حديد بغداد، ومسئلة الكويت، فقرّ القرار على إقرار إنكلترة بسيادة الباب العالي على الكويت، وبإقرار الباب العالي بمقاولات إنكلترة مع مبارك بن صباح، أمير الكويت، وبأن لا يُمدّد خطّ الحديد من البصرة إلى الكويت إلاّ برضى إنكلترة، واستعهد الباب العالي الحكومة البريطانية

---

(1) فعل أَرْجَفَ، وهو من خاض في الأخبار السيّئة وذكر الفتن، على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصحّ عندهم شيء. (المحقّق)

بمصالح جسيمة سياسية، وقروض مالية، في مقابلة هذا العهد. وإنّني لأضحك من هؤلاء القوم، وأحيانًا أبكي من حركاتهم في مشاكستهم الدولة، كيفما فعلت، وكيفما تفعل، فأنا أناشدهم الله، ما دامت أوربا لا تعرف عربًا ولا تركًا، ولا تعرف إلاّ اسم «عثماني»، والبلاد هذه من أولها إلى آخرها لابن عثمان، المَلِك الشرعي لها، وبمجرّد وضع توقيعه على ورقة ينتهي الأمر، فلماذا نقوم لمشاكسة الدولة في إبّان ضيقها وأخْذ العدوّ بمخنقها، ونجتهد أن نُفْهِم إخواننا الأتراك أنَّ مصيبتهم بعيدة عنّا، وأنَّ بثقتهم غير مفض إلينا، وأننا لسنا شركاءهم في السرّاء والضرّاء؟ أفلا نخاف أن يحمل الدولة ما تراه من إصرارنا هذا، على الرضيخة[1] بحقوقنا، والتساهل بمرافق بلادنا؟ أفلم يكن الأَولى أن نسلك إلى صيانة حقوق بلادنا غير طريق المشاكسة مع الدولة التي بيدها الزمام؟ أفترى إنكلترة سَأَلَتِ اللجنة العليا لحزب اللامركزية عمّا إذا كانت تجيز لها مقاولة الكويت مع الباب العالي، أم سألت أحدًا من عظماء العرب؟ وهل سألت فرنسا مؤخّرًا أحدًا من أهل سورية عندما اتّفقت مع جاويد بك على الامتيازات التي أخذتها في سورية؟ فإن كان الجواب على كلّ ذلك سلبًا، فما معنى هذا الصخب وهذه الصيحة في الجرائد سوى مقصد إلقاء الوحشة وتمكين النفرة، سواء استفاد بذلك العرب، أم لحقهم الضرر؟!

قلنا إنَّ مجيء الاتّحاديين إلى الوزارة زاد الطين بلّة، ولو كانوا أسرعوا بالمواعيد في إتمام الإصلاحات، وذلك لأنَّ تلك الفئة لا ترضى عن الاتّحاديين مهما فعلوا ومهما أحسنوا، وإنّها تقلب حسناتهم سيّئات؛ فلمّا لحظ الباب العالي أنَّ الحركة ازدادت عن ذي قبل، وكانت الحركة الفعلية هي في بيروت، صَرَفَ الوالي أدهم بك من هناك، وأعاد حازم بك، الوالي السابق، فحضر ظانًّا أنه يسلك مع العصبة طريق الملاينة والمسالمة، وأنهم بذلك ينتهون عمّا هم فيه، ويعتدلون في مطالبهم، ويمهلون الدولة حتّى تكون نَشَقَتْ[2] نَفَس الفَرَج، فوجدهم كلّما ازداد

---

(١) الرضوخ.

(٢) تنشّقت، والمعنى هاهنا: تنفّست الصعداء. (المحقّق)

لينًا ازدادوا شدّة واعصوصبوا[1] على الحكومة، ورأى الأمر سينتشر وأنه لا يبعد أن تتألّف لجان أخرى يعصوصب[2] حولها الناس في سائر مدن سورية، فيتّسع الخرق على الراقع، ولا ينفع الندم فيما بعد، فَأَمَر حينئذٍ بإقفال النادي الذي سمّوه بـ «نادي الإصلاح»، فأقفلته الضابطة. ولم يكن من الإصلاحيين إلاّ أن آلبوا بعض التجّار وأصحاب المخازن واتّفقوا معهم على إغلاق دكاكينهم وحوانيتهم ظانّين أنَّ ذلك، في هذه الأوقات الحرجة، يوقع الرعب في قلوب رجال الدولة، فيسرعون بإعطائهم اللامركزية حالاً، بل أبعدوا في النكر أكثر من ذلك، وهو أنَّ إغلاق الحوانيت يضرّ بالمصارف الأجنبية، فتضطرّ الدول إلى التعرّض[3] وتحمي جانبهم.

والحاصل، أقدموا على هذه الحركة على أمل توسيع الخرق، فلم تنتظم معهم؛ لأنَّ قسمًا كبيرًا من أصحاب الدكاكين والحوانيت أبوا التعطيل، والحكومة لم تتزعزع في عزمها وشدّدت في حفظ الأمن، بحيث لم تكن بيروت في يوم من الأيام أسكن ممّا كانت أثناء حركة اللامركزية، فاضطرّ محمَّد أفندي بيهم ويوسف أفندي سرسق، كبيرا المسلمين والنصارى، إلى الإعلان على الملأ بوجوب فتح الحوانيت. على أنه لو لم يعلنا ذلك لَما أمكن استمرار التعطيل، لأنَّ التجارة تتوقّف، والضرر يفدح، فعاد الناس سريعًا إلى فتح مخازنهم وفشل مشروع الإغلاق والإقلاق، وانتهت المسئلة بتلغرافات إلى الجهات بتجسيم الحركة وتعظيم الخطب، وبرسائل إلى «المقطّم» وإلى «الأهرام» يتخيّل من مطالعتها الإنسان أنَّ سورية قائمة قاعدة، وأنَّ البركان على وشك الانفجار! ولو تأمّل أصحاب تلك الجرائد قليلاً لكانوا، مع خدمتهم الغرض المعلوم الذي يخدمونه، يأنفون من نشر رسائل تتوالى في وصف القلق والاضطراب واستمرار الحوادث والاحتفاز للثورة، وغير ذلك ممّا لا ينقطع الكلام عنه، وليس هناك أثر فعل يؤيّده، بل لم يخيّم السكون على آفاق برّ الشام تخييمه عليها في هذه السنة، مع اجتهاد كثير من ذوي الضمائر الخبيثة بأن يحدثوا

(١) باتوا يشكّلون حالة صعبة.

(٢) اجتمع حولها.

(٣) بمعنى التدخّل.

أحداثًا ويضرموا فتنًا! وكان يلزم أصحاب تلك الجرائد أن يفكّروا في أنَّ الطريق غير مقطوع بين سواحل الشام والإسكندرية وبور سعيد؛ ففي كلّ يوم تُخرج البواخر مئات من المسافرين قد غادروا برّ الشام، وليس فيه قليل ولا كثير ممّا يصفه مراسلو هاتيك الصحف. وإنَّ عند أولئك النفر مبدأ لا يزالون يتعقّبونه، وهو أنَّ الحرب أولها الكلام، وأنَّ التهييج لا بدّ أن ينبت زرعه فتخرج الأمور من طور القول إلى طور الفعل، ويقع الهرج المرج اللذان هما وسيلتا الخلاص من الحكومة العثمانية.

هذا، وبعد إقفال نادي الإصلاح البيروتي بقليل، اعتدى سفيه من شبّان بيروت على المرحوم زكريا طبّارة فقتله لأسباب غرامية تحقّقت من إقرار القاتل والمقتول من أجلها في قصّة ليس هنا موضعها، فوصل الخبر إلى مصر بأنَّ زكريا طبّارة قُتل في بيروت، فرقص بعض اللامركزيين طربًا وقالوا، خرجت الحركة إلى حيّز الأفعال، وصارت تتعاظم من الآن فصاعدًا. وأرسل كاتب اللجنة العمومي تلغرافًا إلى بيروت يقول فيه: "نعزّي أهل بيروت. أفيدونا تفاصيل الجناية". إلاّ أنه، لسوء حظّ اللجنة العليا، ورد الجواب من بيروت بكون الجناية غير سياسية، فعادت دلوهم بغير ماء، واسودّت وجوههم خيبة! ولقد كان لهذه اللجنة العليا القدح المغْلَى[1] في تهييج أهل بيروت والتغرير بهم في ميدان مخاصمة الدولة، وإقناعهم بأنَّ إمهال الباب العالي إلى ما بعد الحرب رأي فائل وذهاب باطل؛ لأنَّ الباب العالي إذا تنسّم أريج الفرج نقض ما كان وعد به قبل الصلح، فلا ينبغي أن يؤخذ بأقوال الأتراك فإنّه لا يوثق بسيل تَلْعَتِهِم[2]. وكان إذا اعترض معترض بأنَّ المروءة والفتوّة والإسلام والإنسانية والشرف والوطنية، وكلّ ذلك، يمنع من وضع اليد في مخنق الدولة ومطالبتها ومشاغبتها، وهي لا تكاد تعي من دهشة الحرب، أجابوك أنَّ الوقت أضيق من أن نستمهل يومًا واحدًا، وزعموا للمسلمين أنَّ فرنسا هي على

(١) وهو سهم يُغلَى به، أي يترامى به المرء وهو يرفع يديه به لأقصى الغاية.

(٢) التلْعَة: ما علا من الأرض وما سفل. أمّا عبارة "لا يوثق بسيل تلعتهم"، فهي مثل يُضرب لمن لا يوثق به ولا يصدق في أخباره.

وشك احتلال سورية، وأنه لا يقيها الغارة الفرنسوية إلاّ حرز[1] اللامركزية. ولمّا أكبر الناس حركتهم هذه، وقالوا: يا للخجل من إخواننا الترك، بل يا للخجل من إخواننا العرب، بل يا للخجل من أنفسنا لاختيار هذه الأزمة ظرفًا للطلب، وعدم مبالاتنا بما الخلافة فيه من الخطر، وإظهارنا من العمل ما لا يصدر عن الأعداء، فضلاً عن الأولياء، عادوا يموّهون على الخلق بأنهم إنّما تكلّموا في تلك المطالب على أن تكون بعد وضع الحرب أوزارها، مع أنهم قد كتبوا كتابات تحت تواقيعهم بأنه لا يجوز الإمهال ولا يومًا واحدًا؛ ولمّا ألزمتهم الحجّة بأنهم لم يقبلوا الإمهال ولا الفسحة إلى ما بعد وضع أوزار الحرب، وعلموا أنَّ التمويه غير مجديهم، رجعوا يقولون نعم، نعم، أصررنا على إعطاء الإصلاحات في وقت الشدّة لأنَّ المريض إذا اشتدّ به الداء كان ذلك أدعى إلى سرعة العلاج، وهي سفسطة[2] لا تنطبق على ما نحن فيه أصلاً وإنّما ينطبق على حالة المملكة.

مثل آخر، وهي أنَّ مريضًا اشتدّت به العلّة وأصبح جسمه مضطربًا لأقلّ سبب، فجاءوا يعطونه الدواء دفعة واحدة غير ناظرين إلى درجة تحمّل جسمه، ولا مدقّقين في فحص أعضائه، وممّا لا يختلف فيه اثنان من الأطبّاء أنَّ الجسم الضعيف لا يتحمّل الدواء ولو كان ترياق الحياة، إلاّ جرعات متقطّعة في أوقات معيّنة، وأنه إذا أُعطي الدواء وهو على تلك الحالة بالمقدار الفاضل عن درجة التحمّل أشرف به على الهلكة، ونحن لا ننازع في كون المريض مريضًا، وفي كون العلاج متحتّمًا، وإنّما نخالف في جواز المعالجة بطريقة اللامركزية رأسًا بلادًا كان يكفيها الآن توسيع اختصاص الولايات وإطلاق حرّية التعليم والتدريس باللسان العربي، وإنشاء الطرق وتعيين صغار المأمورين في مركز الولاية؛ وهي درجة أعلى جدًّا ممّا كنّا فيه! فكان ينبغي أن نرقاها أولاً ثمَّ نعرج[3] منها إلى ما هو أعلى منها. فأمّا رقيّ الدرج دفعة واحدة، فيوشك أن يكون سبب الدهورة؛ لأنَّ كلّ عاقل خبير مطّلع

(١) حفظ.
(٢) كلمة يونانية، قياس مركّب من الوهميّات، والغرض منه إفحام الخصم وإسكاته.
(٣) نرتقي ونصعد به.

على أحوال البلاد يعلم أنَّ مجالسنا العمومية ليست فيها الكفاية لحمل العبء الذي يراد تحميلها إيّاه، وأنَّ إعطاءها كلّ هذا الاختصاص يكون عبارة عن فتح أبواب النزاع الذي لا ينتهي إلاّ بالفوضى، ولا تنتهي الفوضى إلاّ بالغارة الأجنبية. فاللامركزية مقدّمة للشجار ومشحذة لضروب الضغائن والشجار والضغائن، مقدّمة للفتنة والفوضى، وهاتان مقدّمتان للاحتلال الأجنبي. سلسلة بعضها آخذ ببعض، لا يتمارى[1] فيها إلاّ مَن رانت[2] الضلالة على عقله ولم يعتبر بغيره من أمثاله! ولينظروا يمنة وليعطفوا يسرة، فهل يجدون إدارة داخلية مستقلّة نالها أهلها دفعة واحدة وطفروا إليها طفرة؟ أفلا ينظرون إلى أرلندة[3] وكيف كان معها سير بريطانيا العظمى؟ أفلا يعلمون كيف أنَّ البلاد الشرقية اليوم لا تقاس بأوربا، وأنَّ الشرقي هو لا يزال غير الأوربي؟ فحسب البقعة من بقاع الشرق أن تحدث فيها حركة واحدة حتّى تأتي دولة فتدّعي الخسارة في مرافقها، وتأخذها أخذ عزيز مقتدر؛ أفلم يروا إلى مصر كيف كان احتلالها، وبأية وسيلة دخلها الإنكليز؟ مع أنَّ مصر كانت تُعدّ دولة من الدول العظيمة، ذات جيش يبلغ مائة وعشرين ألف مقاتل، وكانت قادرة أن تستقلّ بأسطول. وكان عدد أهلها مع توابعها يناهز ٢٤ مليونًا، ولها حكومة مستقلّة غنيّة، كما يعلم كلّ أحد، فلم تنبض فيها عروق الفتنة عشرة أيام حتّى أصبحت تحت استيلاء الأجنبي! فقول اللامركزيين إنَّ استقلال البلاد بإدارتها الداخلية يقي من خطر الاحتلال الأجنبي كلام في كلام، ولا يقي البلاد من الاحتلال الأجنبي سوى انضمام الرعيّة حول الدولة، وتفدية الوطن بالنفس والنفيس، ونشر العلم، وتوفير أسباب الثروة ممّا ليست اللامركزية شرطًا لحصوله. وأمّا جلب مفتّشين من الأجانب وتسليمهم أزمة الأحكام، وقصر كلّ شيء على إرادتهم ظنًّا بأنَّ ذلك يكفي الأجانب ويغنيهم عن الاحتلال، ونكون نحن تدرّعنا، دون المرض، بنوع من التلقيح الذي هو جزء من المرض، فهو أيضًا

---

(١) يشكّ.

(٢) غلب عليه.

(٣) إيرلندا.

خيال باطل؛ لأنَّ دولة من دول أوربا إذا مكّنتها الفرصة لم تقنع بما دون الاستيلاء، ولم يكفها وجود المسيو جول والمستر جون مفتّشين في إدارتنا! وأمّا قول اللامركزيين إنَّ المقصد من اللامركزية هو رفع سلطة الأتراك من البلاد العربية، كما قالوه في اجتماع عقدوه مع بعض السوريين في اسكندرية[1]، فلم يكن عليه غبار لولا خوف حلول سلطة الإفرنج محلّ سلطة الأتراك؛ فإنَّ سلطة الأتراك حفرة محدودة، وأمّا سلطة أولئك فهي هاوية أبدية. وإذا استعملنا الحكمة ونصبنا ميزان النصفة[2]، أمكننا أن نصعد إلى مستوى الأتراك في الحكم تدرّجًا بدون اضطرار إلى شغب، وبدون خطر على الاستقلال، ولكنَّ الغرض مرض، ومحبّة الشهرة ولذّة الانتقام قد تتمكّنان من المرء إلى أن يغرّر بقومه ويلعب بأغبيائهم ويجرّهم إلى هلاكهم! وكان يلزم أن نكتفي بالدرس المؤلم الذي ألقته علينا مسئلة الأرناؤوط التي لا تزال أعقابها تتجرجر إلى الآن. فقد كان الأرناؤوط قبل الدستور يفعلون ما يشاءون[3]، والسلطان السابق عبد الحميد يتحمّل دلالهم ويَغْضَى على سيّئاتهم، ويداوي جرح انتقاضهم[4] بالعطاء، ويجيروهن[5] إخلاصهم بالتعهّد والالتفات، ويَسْنَى[6] لرؤسائهم الرتب، ويجزل الرواتب، لا جهلاً بأحوال كثير منهم، بل استصلاحًا لقلوبهم. وكان مع ذلك منهم أناس مثل اسماعيل كمال بك وغيره، لا يفتأون يداخلون اليونان والصرب والجبل الأسود، ويطمعونهم في ملك آل عثمان بالروملي، على شرط أن يعرفوا لألبانيا استقلالها! فلمّا أُعلن الدستور انقطعت تلك الجعائل التي كان رؤساء الأرناؤوط يتمتّعون بها، وأراد فتيان الأتراك إقامة الحكم المشروط في كلّ أقسام السلطنة على وتيرة واحدة، فكان رؤساء الأرناؤوط ناقمين؛ تغيَّر نسق الحكم عليهم، وصاروا يخدعون عامّتهم بمكان هؤلاء من الجهل، ويزرعون في قلوبهم بغضاء الدولة، ويشيعون عنها الأراجيف التي ما أنزل

(١) الاسكندرية.
(٢) الإنصاف والعدل.
(٣) يشاؤون.
(٤) انتكاثهم.
(٥) يغيثهم ويساعدهم.
(٦) يفتح.

الله بها من سلطان، وتارةً يقولون لهم: "إنَّ الدولة باعت بلادكم إلى الصرب" كما يقول المفسدون عندنا اليوم "بأنها تبيع بلاد العرب"، وطورًا يقولون لهم إنّها أنفقت عليكم مع اليونان، وأحيانًا يقولون لعامّتهم إنَّ الدولة تفكّر في وضع ضريبة على اللحى فيصدّقون، وهلمَّ جرّا من الأقاويل التي غيّرت قلوبهم وأوغرت صدورهم؛ فثاروا على الدولة وعصوا الأوامر وخلعوا الطاعة، وكان ذلك في مبدأ الدستور، فاضطُرَّت الدولة أن تسوق عليهم العساكر. وجرت بينهم وبين العساكر الوقائع، وسالت الدماء، وأسف كلّ عثماني محبّ لوطنه من هذه الحال، وسُرَّ زعماء الثورة ومحرّكو الفتنة منهم بوقوع العداوة بين الأرناؤوط وبين دولتهم المتبوعة، ثمَّ قاموا ينفخون في بوق الجنسية، شأن مفسدي العرب اليوم، وزعموا أنهم هم، مسلمين كانوا أو نصارى، لا يعلمون سوى جنسهم وعرقهم ولسانهم! ولمّا كان الأتراك يريدون أن يحملوهم على الكتابة بالحروف العربية، حروف إملاء القرآن العظيم، وكان قسم كبير منهم يكتب بهذه الأحرف، جعلوا هذه من جملة المناقم، وأصرّوا على الحروف اللاتينية، وعضّوا عليها بالنواجذ، وطلبوا إدارة مستقلّة، وبعبارة أخرى لامركزية، ونادوا بالإصلاح، وزعموا أنهم أكفّاء لإدارة بلادهم بأنفسهم (كما يزعم الآن أصحابنا). ولَعِبَ الدينار الصربي واليوناني لعبه في أثناء الثورات المتتابعة (كما هو لاعب دينار أوربا ببعض القوم عندنا) وتواطأ اسماعيل كمال وجماعته مع اليونان والصرب على حدود معلومة بينهما وبين ألبانيا الجديدة، إلاّ أنَّ الدولة قهرت ثوّار الأرناؤوط وأخمدت الفتنة أولاً وثانيًا، وبقيت الحرب ناشبة مع الماليسور، وهم نصارى الأرناؤوط الذين في جوار الجبل الأسود؛ فبينما الدولة تدخلهم في الطاعة إذ شنّت إيطاليا الغارة على طرابلس بغتة، واشتغلت الدولة بحرب إيطاليا وطالت المقاومة، واضطرّت إيطاليا لإعمال أسطولها أيضًا، فاشتدّ بالدولة الضيق، وارتجّ مركز الوزارة، وتقوّى الحزب المعارض للاتّحاديين، فانتهزوا فرصة الحرب مع الطليان لإلقاء الفتنة في بلاد الأرناؤوط ولقسمة الجيش العثماني على ذاته، ولم يبالوا بما هي فيه طرابلس من

الضنك[1]، ولا بما عليه الدولة كلّها من الضيق، ولا بما تجرّه قسمة الجيش من الوبال، ولا نظروا إلى عواقب عملهم من تعريض وجود السلطنة كلّه إلى الضياع، بل جعلوا هدف رمايتهم أمرًا واحدًا، وهو إسقاط وزارة الاتّحاديين والركوب محلّها بأيّ وجه كان، وبئس ركوب البعض إذا سقط الكلّ! فما استفحلت ثورة الأرناؤوط، ولحق بعض ضبّاط الجيش المجرّد لإدخالهم في الطاعة بالعصاة أنفسهم، وبدت أمائر المصائب؛ استولى القنوط على محمود شوكت باشا لكنّه صبر على البلاء لعلّه ينقذ المملكة من التهلكة. ووقعت المراسلة بين الحكومة وبين الأرناؤوط، فاشترطوا للطاعة تنحّي محمود شوكت، رحمه الله، عن نظارة الحربية، فأسرع بالاستعفاء، فلم يزدادوا إلاّ عتوًّا! وانتشر الأمر واستفحل الخطب، واستولى ٣٠ ألفًا من الأرناؤوط على أسكوب وتهدّدوا مناستر. ولمّا رأت وزارة سعيد باشا هذه الفتنة الصمّاء في وجهها مع وجود حرب طرابلس، وأنّ أصابع الحزب المعارض في الأستانة تشتغل بها، تنحّت أيضًا مقتفية أثر محمود شوكت، فقلّد مولانا السلطان مختار باشا رئاسة الوكلاء، وجعل معه كامل باشا وحسين حلمي باشا وناظم باشا في رئاسة الشورى والعدلية والحربية، وجعل جمال الدين أفندي شيخًا للإسلام، وتعيّن محمود مختار باشا للبحرية، وتعيّن محمّد فوزي باشا العظم، من أعيون[2] أعيان سورية، ناظرًا للأوقاف، وأرسلت الوزارة الجديدة المشير كاظم باشا لاستصلاح الماليسور من جهة أشقودره، والمشير ابراهيم باشا إلى أسكوب لأجل تأليف الأرناؤوط مع الحكومة. فأمّا كاظم باشا، فلم يجتمع مع الماليسور الذين كانوا انضمّوا إلى الجبليين وواصلوا الحرب جميعًا على الدولة. وأمّا ابراهيم باشا، فأجاب الأرناؤوط إلى جميع مطالبهم التي منها تبديد مجلس المبعوثان، وأقفل المجلس بطلبهم، وصاروا من دلال إلى دلال حتّى لم يبقَ للحكومة العثمانية في ولايات الأرناؤوط ظلّ ولا للنظام رائحة!

---

(١) الضيق.

(٢) المقصود بها جمع أعيُنات، وهم كبار القوم. (المحقّق)

ورأت دول البلقان الأربع هذه الحالة وخروج الأرناؤوط على دولتهم وانقسام الجيش إلى حزبين، فمع كلّ ما بين البلغار والصرب من تباعد الأنظار، وما بين هذين العنصرين والعنصر اليوناني من تباين الأفكار، جمعتهم المصلحة العامّة وأطمعهم في الوفاق سهولة المغنم وقرب إدراك الغاية، بما رأوه من عمايات العثمانيين واسترسالهم في أهوائهم وتناحرهم بإزاء أعدائهم، وبما علموا من كون كثير من أركان الوزارة الجديدة هم الذين كانوا المحرّكين على انتقاض الأرناؤوط وعلى قسمة الجيش في أثناء الحرب مع إيطاليا، بينما الأسطول الإيطالي سادّ على العثمانيين طرق البحر. وفعلاً، لو أحجم البلغار واليونان والصربيون عن الاتّحاد على الدولة، وهذه هي أحوالها، وهذا هو ما يسدي عليها وزراؤها ورجالها، لكانوا أولى بالإقامة بالبيمارستانات[1] من الإقامة بالدواوين! فلمّا لم يكونوا مجانين، بل كانوا عقلاء متيقّظين ساهرين على مصالح بلادهم، تواثقوا بمعرفة قيصر الروسية على مهاجمة الدولة، وكان أساس هذا التواثق بينهم فتنة الأرناؤوط التي أثارها بعض كبار العثمانيين بأيديهم ونفخوا نارها بأفواههم، فيكون الاتّحاد البلقاني الذي أدّى ما أدّى إليه من خرق ستار الإسلام وإسقاط مهابة الدولة وخسارة ثماني ولايات نُكب المسلمون فيها بما لم ينكبه بنو إسرائيل في سبي بابل، ولا في أخذ تيطش لأورشليم، هو من جملة ما أسداه الحزب المعارض لأجل إسقاط الاتّحاديين والتربّع في الدست محلّهم، وتكون هذه النكبة العظمى للدولة العثمانية قد تأسّست في نفس الأستانة، بأيدي رجال العثمانية المعوّل عليهم في الشدائد.

وممّا لا مشاحة فيه ولا خلاف بين جميع رجال السياسة عليه، أنه ما عجّل هذا الاتّحاد بين البلقانيين وجعلهم يوفضون[2] إلى الحرب في أول فصل الشتاء، وبدون انتظار فصل الربيع، كما كان القرار بينهم، إلاّ استمرار الحرب مع إيطاليا، وانسداد مسالك البحر على العثمانية، وخوف البلقانيين من عقد الدولة الصلح مع إيطاليا، بما يفتح للدولة طريق البحر، ويساعدها على حمل جيوش سورية إلى الروملي.

---

(١) مفردها بيمارستان، وهو المستشفى (والمقصود هنا مستشفى المجانين) (فارسية).
(٢) يسرعون.

وفي الواقع لو كانت الدولة قد صالحت إيطاليا وانفتح أمامها البحر، لنقلت من ولايات أطنة وحلب وسورية عساكر أوقفت زحف البلقانيين الذين نالوا ما نالوه من الفوز بكثرة العدد وسرعة الحركة! وعلى كلّ حال، كانت عساكر الشام وجنوبي الأناضول حفظت ولايتي سلانيك ويانيا من غارة اليونان؛ لأنَّ هاتين الولايتين لم يكن فيهما أزيد من ٢٥ ألف جندي عثماني في مقابلة ١٨٠ إلى ٢٠٠ ألف جندي يوناني. ولكنَّ الدولة التي يتّهمها مفسدو بلادنا وسماسرة الأجانب بإهمال حقوق العرب، بقيت أكثر من سنة تناضل عن طرابلس الغرب، وتحمّلت كلّ ما تحمّلته تمسّكًا بتلك الولاية العربية، ولم تسمع في هذا الدفاع لومة لائم! فبدلاً من أن يقدّروا قدر مفاداتها[١] في الدفاع عن بيضة الإسلام وتعريضها الروملي والجزر للذهاب، والأستانة نفسها، لأشدّ خطر السقوط من أجل الأمّة العربية الكريمة التي فتّ في عضدها خطب طرابلس، قاموا يشغبون[٢] عليها ويرمونها ببغض العرب، وأنها تبذل بلادهم فداءً لبلاد الترك، مع أنَّ الدولة معذورة بعدم الإصرار على حرب الطليان مع هجوم أربع دول عليها، وكونها تعلم أنَّ حفظ طرابلس مع انقطاعها عنها من وراء البحر أمر مستحيل، فصار الأَولى أن تدع ما لا تستطيع وما لا بدّ منه لحماية قلب المملكة، إلى ما تستطيع، وإلى ما هو أشدّ ضرورة! ولولا ثورة الأرناؤوط التي جرَّت حرب البلقان واتّحاد الدول الأربع لَما خطر في بال الدولة قطّ مصالحة إيطاليا، بل كانت الدولة مصمّمة على المقاومة والمدافعة عن طرابلس مهما بلغ منها الجهد؛ وكانت إيطاليا قد داخلت الدولة في عقد الصلح على شروط أشرف جدًّا ممّا عقد الصلح عليه كامل باشا فيما بعد، ولكنَّ انفجار بركان البلقان هو الذي أطمع إيطاليا إلى حدّ أنها عادت لا ترضى ببقاء أية سلطة سياسية للسلطان في تلك الديار، وأنها أرسلت أسطولها وجيوش البلقانيين زاحفة نحونا، وأخذت تنذرنا بإنزال العساكر في سواحل الروملي

(١) من فعل فاداه مفاداةً وفداءً: أطلقه وأخذ فديته؛ قال المبرّد: المفاداة هي أن تدفع رَجُلاً وتأخذ رجلاً، وهنا جاءت الكلمة بمعنى التضحيات. (المحقّق)

(٢) هيّجوا الشرّ عليها.

والانضمام إلى البلقانيين، أو نوافقها على مرادها حالاً بدون مطال! والمراد من هذا الشرح كلّه أنَّ فتنة الأرناؤوط لم تكن فقط مبدأ ضياع الستّ الولايات التي كانت لنا في الروملي وولايتي جزر البحر الأبيض وولاية جزيرة كريد، بل سبب ضياع ولايتي طرابلس الغرب وبني غازي[1]، وهما في درجة الحجاز واليمن ونجد من جهة العربية والعروبية، والركن الأخير الذي كان للعرب وللإسلام في أفريقية، فكان ينبغي لكلّ عثماني، بل لكلّ عربي، بل لكلّ مسلم، بل لكلّ شرقي أن يلعن الرؤساء الخائنين المارقين الذين قاموا بتلك الفتنة، والذين منهم مَن كان متواطئًا مع الصرب واليونان على حدود معيّنة بينهم وبين الألبان، وأن يلعن أيضًا أولئك الوزراء الذين كانوا يراسلون الأرناؤوط بالإصرار على مطالبهم، ويشدّدونهم من نفس الأستانة، ويسوّلون لهم كلّ عمل مهما كان هادمًا لأركان الدولة، على شرط أن يؤول إلى سقوط الاتّحاديين. هذا ما كان يجب على كلّ مَن يدّعي العثمانية ويزعم المحافظة على شرف وطنه! والحال أنَّ أصحابنا هؤلاء ـ اسماعيل كمالي العرب ـ لا يريدون حتّى ساعتنا هذه أن يقبّحوا عمل محرّكي الأرناؤوط، ولا أن يقرّوا بخيانة أولئك الرؤساء الذين قضوا على بلادهم وبلاد غيرهم، وجلبوا الويلات وهتك الأعراض وسفك الدماء على أبناء جلدتهم وعلى مَن جاورهم حتّى، وعلى عرب طرابلس. ومهما يكن من حديث في أمر ثورات الأرناؤوط المدبّرات بدسائس أولئك الرؤساء، فإنَّ كلام أصحابنا فيها أنهم قد سيقوا إليها قسرًا بظلم الاتّحاديين لهم، وأنهم معذورون وغير معلومين، كما أنَّ الإدريسي معذور وغير ملوم في الاتّفاق مع إيطاليا على دولته، والحاصل أنَّ أصحابنا اللامركزيين كانوا قبل حرب البلقان مداخلين اسماعيل كمال وأعوانه، ومتوافقين معهم على خطّة واحدة، بل كانوا متّفقين مع مبعوثي الروم والبلغار والصرب، ومع بوشو وقوزميدي، وكلّ مَن يعلمونه نازعًا إلى الانشقاق عن الدولة. ومع ادّعائهم النصرة للعربية، وكونهم يقرأون دروس التعصّب للعرب على الشيخ السنوسي، وعلى ابن رشيد، وعلى أمير مكّة، وعلى الإمام يحيى، فإنّهم لم يأنفوا من مظاهرة

(١) تُعرف اليوم بمدينة بنغازي. (المحقّق)

الحزب الألباني الذي كان يرفض الكتابة بالحروف العربية، وذلك لأنَّ المحور الذي تدور عليه جميع أعمالهم هو محاربة الدولة عامّة، والاتّحاديين خاصّة، بأية وسيلة كانت، ولو كان في الوسائل التي يلجأون إليها سقوط العرب جميعًا! أفلا ترى أنهم كانوا يثبطون الناس عن معاونة طرابلس، وأنَّ رفيق العظم كان يقول علنًا إنّنا لا نترك سورية لأجل صحارى أفريقية، مع أنه لا ضرر على مسئلة سورية من أفريقية، بل كلّما حَمُس الوغى واستحرّ القتل وطال الطعن والضرب في أفريقية، امتنع جانب سورية وعزّ حماها وتأخّر الطالب عن اجتياحها؟ أفلا ترى أنَّ بعض الشيوخ الذين يتصدّرون لتعليم الناس الشريعة الإسلامية وتفقيههم في الدين في مجلاّتهم كانوا يحذّرون الروسية من دسائس الاتّحاديين؟ فهل يجوز هذا في شرع دين أو في شرع وطنية؟ أفلا ترى أنَّ هذه الفئة اللامركزية من العرب كانت تصافح الأرمن الطالبين الانشقاق عن الدولة، وأنهم اتّخذوهم بطانة؟ فهل بعد هذا وأشباهه تبقى شبهة في سوء نيّة هذه الشرذمة وعملها على اضمحلال العثمانية والعبث باستقلال الوطن؟ وهي مع كلّ ما جرى في الروملي من نتايج[1] مشاقّة الدولة وتفريق الكلمة، تجدها تابعة أثر محرّكي الأرناؤوط حذوك النعل بالنعل، لا يكفيها ما صار في البلقان حتّى تريد نقله إلى الشام! فيا ليت شعري، إلى متى يجد هؤلاء المفسدون مستمعين لهم، ومصوّبين لحركاتهم، وحاطبين في حبالهم بعد أن ظهرت أعمالهم وتحقّق ضررهم وعَلِمَ كلّ منصف أنهم ما يبتغون إلاّ الشهرة، ولو بخراب أوطانهم؟! حقًّا أنها لا تعمي الأبصار، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور!

قد يعترض المتعنّت المكابر، وينكر المغالط المناكر، قائلين إنّه لا مشابهة بين عمل بعض رؤساء الأرناؤوط القائمين بالثورة، وبين عمل "المصلحين" من اللامركزيين الذين لا يبتغون سوى حمل الدولة على الإصلاحات التي هي الجنّة الواقية من سقوط الوطن، والذين لم يأتوا بأقلّ عمل يخلّ براحة الدولة وبالأمن في داخل سورية، فكيف يكونون هم ساعين في سفك الدماء وجرّ المصائب على

(١) نتائج.

البلاد؟ وأين هذا من مسئلة الروملي؟ وما وجه المشابهة؟ إلى غير ذلك ممّا لا نزال نسمعه ونقرأه، والجواب عليه ما يأتي:

إنَّ كلّ حركة داخلية في أثناء حرب خارجية هي مضعفة للدولة؛ فحركتهم هذه حركة داخلية في أثناء حروبنا مع البلقانيين. فهي مضعفة للدولة بلا نزاع. فهي جناية لا تغتفر كما إنَّ كلّ حركة قيام، ولو لم يتخلّلها سفك دماء تقع منّا في الداخل، من شأنها تقوية عزائم الأعداء المتوافقين مع عساكرنا في ميدان الحرب. فعمل اللامركزيين هو قوّة أعطوها لأعدائنا على أبنائنا، وأسلحة سلّموها لأضدادنا على أولادنا، فليختر لنا اللامركزيون لفظة تليق بهذا العمل...

إنَّ رؤساء الأرناؤوط في أول ثوراتهم لم يكونوا يقولون سوى ما يقول اللامركزيون اليوم، وهو طلب الإصلاح والاستقلال بالإدارة الداخلية والمحافظة على الجنس الأرناؤوطي. وقد أدّت هذه الحركة الإصلاحية إلى ما أدّت إليه، ولا تزال مصائب الأرناؤوط متوالية؛ فكان من هذا أنَّ مطالبتهم الحفظ كانت عين الضياع! ورجع الأرناؤوط الآن نادمين، يرفعون العلم العثماني ويَقتلون ويُقتلون من أجله. فمع وجود البلاد الآن بحالة الانشقاق والعداوات في كلّ محلّ، ومع ضعف التعليم وقصور التربية الوطنية عمّا يجب أن تكون هي، فاللامركزية مبدأ الفوضى، ومن ثمّة، فمبدأ الخراب!

إنَّ مجيء صرخة اللامركزية مصحوبة بنعرة الجنسية والنداء بتفريق العرب عن الترك علنًا هو عين ما كان ينادي به رؤوس فتنة الأرناؤوط، لا يختلف عنه بشيء! فقد آن للعثمانيين أن يعبروا ويرعووا؛ أفلم يروا أنهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرّتين ثمَّ لا يتوبون، ولا هم يذكرون أنه على فرض وافقهم بعض العرب على طلب اللامركزية فالفريق الآخر لا يوافقهم إلاّ على الإصلاح بدون تفريق، وعلى ترقية المعارف والأمور النافعة على قاعدة توسيع اختصاص الولايات فقط؟! فالنزاع الذي ينشب بين الأحزاب من أجل المركزية يُخشى منه كثيرًا على الأمن

والسكون في البلاد، ويجوز أن يفضي إلى اختراط الحسام[1]، لأنَّ الحرب، كما يقال، أولها الكلام!

إنّه لا يُرجى أنَّ الباب العالي يرضى بإعطاء استقلالات إدارية لبعض ولاياته قبل أن يجدها كفؤًا لحمل تلك الأعباء، وقبل أن تعمّ فيها المعارف. فلا يُرجى أن تُعطى سورية هذا النظام الخطير الذي لم يطلبه إلاّ بعض أفراد من أهلها، ويُخشى إذا استمرّت هذه الحركات أن تضطرّ الدولة إلى إرهاف الحسام، فتسيل الدماء ويقتل أبناؤنا بعضهم بعضًا، فيكفي هؤلاء النفر لعبًا بالنار.

بناءً على ذلك حذّرنا، ولا نزال نحذّر أبناء وطننا من السماع لوساوس هؤلاء الذين يتاجرون بالوطن من بعيد، وهم بنجوة[2] عن كلّ ما يقع فيه من خطب، وما يبتغون إلاّ الشهرة وكسب الاَسم والصيت، مع الانتقام من الاتّحاديين الذين لم يوفّروا لهم حقّ التعظيم اللائق بمقاماتهم السنّية بزعمهم! فليقاوموا الاتّحاديين بما شاءوا، ولينتقموا كما أرادوا، بشرط أن لا يجعلوا سورية آلة لانتقامهم وغرضًا لسهامهم، فإنَّ في سورية أَحْنًا[3] كثيرة يعلمها مَن يعملها، فهي لا تتحمّل زرع دسائس، ولا تطيق مكائد، ولا تصلح للهزاهز، وإذا وضعت سورية حملها اهتزّت له الدنيا بأسرها! فليتّقِ الله أولئك النفر الجالسون في «السبلاندد بار» من القاهرة في أبناء وطنهم وإخوانهم، وليدعونا وشأننا، فإنّنا نكاد نرى الفتنة بأعيننا ونلمسها بأيدينا إذا استمرّوا ماضين في دسائسهم هذه، وإذا لم تضع لها الدولة حدًّا جازمًا وتدع الحلم جانبًا، فإنَّ وقاية الوطن من الخطر مُقدَّمة على كلّ شيء.

ولعلّهم يقولون إنّنا لو شئنا لَما أعيتنا الفتنة، ولكان من أيسر الأمور علينا أن نغري بعض العامّة الجهلاء بالأجانب، أو بالمسيحيين، فتكون من وراء ذلك فتنة ومشكلة أجنبية ويتمّ ما نريد! والجواب، إنَّ بعضهم لم يألُ جهدًا في الخبّ[4]

---

(١) أي الاقتتال.

(٢) من نجاة، بمنأى.

(٣) الفعل أَحِنَ: حقد وأضمر العداوة. (المحقّق)

(٤) الخداع.

والإيضاع وللتعرّض في الحركات ابتغاءً للفتنة وللتعريض الأجنبي، ولكن قصرت أيديهم عن بلوغ المآرب ووقف العامّة عن قبول وساوسهم حفاظًا لحوزة الإسلام ورعيًا لذمام الدولة. ولمّا كان شيوخ الشباب في بيروت قد لبثوا معتصمين بحبال الدولة، وكان المحرّكون عاجزين عن إيقاع الحوادث بدون هؤلاء، فقد حاولوا استمالتهم إليهم وضمّهم إلى حزبهم وجآءوهم[1] من طريق العصبيّة العربية، واستعملوا معهم، تارةً الوعد، وطورًا الوعيد، فلم يفوزوا منهم بطائل، وبقي هؤلاء العامّة على صداقتهم لدولتهم وخوفهم على وطنهم. على أنه لو أراد محرِّك أن يُقْدم على الأعمال التي تخلّ براحة الوطن، لم يكن ليسهّل عليه الأمر مع وجود الإدارة العرفية، ومع انتباه الحكومة لأقلّ نبأة[2]، وتحفّزها للبطش بأيّ مفسد ينتقل من طور القول إلى طور الفعل. كما أنّ الاعتداء على الأجانب، أو على المسيحيين عمدًا، لم يكن ليخفى على أوربا؛ فلو صدر ذلك من أضداد الحكومة أملاً بإحراج مركزها، لم تحصل الغاية المقصودة، بل انعكس الأمر عليهم. وهناك جمّ غفير من الحزب المعارض للحكومة نفسه كانوا يقفون سدًّا منيعًا في وجه مريدي الفتنة إشفاقًا على الوطن وتخلّصًا من التبعة. ولقد سَرَت هذه الأفكار المتعلّقة بإشعال فتنة لدخول الأجنبي إلى بعض جهلاء المسيحيين، فأخذوا يتحرّشون قصدًا وعمدًا، تارةً بمسلمي بيروت، وطورًا بدروز لبنان، ويوالون عليهم الاعتداء بدون سبب أو بسبب طفيف رجاء أن تتولّد من هناك فتنة عامّة تنزل من أجلها العساكر الأجنبية في بيروت، إلاّ أنّ عقلاء المسيحيين ورؤساء الطائفة المارونية في الجبل كانوا معارضين لهذه الحركات ظاهرًا وباطنًا، ولا سيّما البطريرك الياس الحويّك المطاع في قومه؛ فقد خدم استقلال الوطن أجلّ خدمة. وصادف وجود حرب طرابلس، ثمّ حرب البلقان، خلو لبنان من متصرّف وإسناد وكالة المتصرّفية إلى سعد الله بك الحويّك، شقيق البطريرك، فأحسن الإدارة، وسهر على راحة الجبل، ومنع الحوادث. وكيف كان الأمر، فإنّ عقلاء المسيحيين يخالفون

---

(١) وجاؤوهم.

(٢) الصوت الدفين. (المحقّق)

بعض الشبّان الذين منهم لا يزالون يرون في الأحلام أعلام فرنسا أو إنكلترة خافقة فوق جبال الشام.

فأنت ترى أنه ليس في هذا السكون الذي امتدد[1] رواقه على البلاد أدنى فضل لنقباء اللامركزية، وأنَّ الفضل كان فيه للحكومة ولعقلاء الملّتين ممّن لا يستخفّون حمل الدماء، ولا يستسهلون احتقاب الأوزار. وأمّا اللامركزيون، فكان قصارى سعيهم أن جعلوا القلق يسود على الأفكار، وزرعوا بذور النفور بين العرب والترك، وفتحوا مجالاً للصحف الأجنبية للخوض في مسئلة سورية. وإذا دقّقتَ في جميع حركاتهم وسكناتهم تجدها رامية إلى غرض واحد، وهو إيجاد مسئلة أوربية في سورية أو مسئلة سورية في أوربا.

ومن أنصع الأدلّة على ذلك، أنه لمّا أقفل والي بيروت نادي اللامركزية المسمّى بنادي الإصلاح في بيروت، أسرعت اللجنة العليا في مصر بإرسال التلغرافات إلى الجرائد الأوربية الخطيرة، كالطان وغيرها، تطلب فيها تداخل الدول في القضيّة بين الباب العالي وأهل سورية، وهذه التلغرافات غير قابلة الإنكار ليماحك اللامركزيون بشأنها، فإن كانوا صادقين في العثمانية إلى تلك الدرجة فكيف يخيطون لنا هذه المراجعات لدول أوربا مع الصداقة التي يدّعونها لدولتهم المتبوعة؟!

ودليل آخر، أنهم قرّروا عقد مؤتمر نحلوه اسم «المؤتمر العربي»، وعيّنوا مركزه باريز[2]. ولسنا نريد الآن بيان كيفيّة عقد ذلك المؤتمر الباريزي وما في أحنائه[3] من الأسرار التي، لو انكشفت كما هي، لم يعد كثير من أعضائه قريري الأعين، ولافتضحت السريرة عند كلّ ناطق بالضاد، بل نكتفي بأن نقول إنّهم تداعوا إلى هذا المؤتمر في باريز من جهات مختلفة؛ فمنهم طلبة علم في باريز، صادقون في سعيهم، خالون من المآرب السياسية، يرون الإلحاح على الدولة في تطبيق الإصلاح

(١) فعل امتدَّ، فُكَّ فيه تضعيف الدال.

(٢) باريس.

(٣) منعطفاته.

حبًّا بالوطن، ومنهم ناقمون على الدولة إقفال نادي الإصلاح في بيروت، ومنهم دعاة افتراق وانفصال لا غير، ومنهم مَن همّه دريهمات يأخذها في هذا السبيل مهما كانت النتيجة؛ ولكنّهم جميعًا غير مفوّضين عن الأمّة العربية، ولا حقّ لهم في الكلام بأَسم الأمّة، وليس بيدهم تفويض لا من الشام، ولا من حلب، ولا من القدس، ولا من مدينة من مدن سورية بأسرها حتّى، ولا من كلّ أهل بيروت أنفسهم؛ فلم يكتفوا بالكلام بأَسم عموم بيروت حتّى تكلّموا بلسان عموم سورية وبرّ الشام، بل تكلّموا بلسان كلّ ناطق بالضاد من شرق الأرض إلى غربها! هذا، وجزيرة العرب والشام والعراق فيها الأمراء والأشراف والسادات والرؤساء والعرفاء، لا يعلم منهم أحد بخطب المؤتمر الباريزي الذي أقام نفسه وصيًّا على هذه الأمّة العظيمة بدون صكّ وصاية! ولا يزال، إلى يومنا هذا أعضاؤه وأصحاب الجرائد التي لهم يتكلّمون بالنيابة عن العرب أجمع بدون أدنى تحرّج.

ولمّا وقع ذلك منهم وأوشكوا أن يفتتحوا أول جلسة في باريز، اجتمع أعيان دمشق في منزل عبد الرحمن بك اليوسف وتذاكروا في أمر أولئك المتآمرين عن العرب بدون تفويض منهم، فاتّفقوا جميعًا على إنكار ذلك المؤتمر بأَسم الأمّة العربية وبأَسم الوطن، إلاّ أنهم اختلفوا على صورة الاحتجاج؛ فبعض الحاضرين من الحزب المعارض، مثل أحمد بك الشمعة وعبد القادر بك المؤيّد، وغيرهما، رأوا الاكتفاء بإنكار خطّة المؤتمر، مع المطالبة بالإصلاحات التي كان قدّم أهالي دمشق بها لائحة إلى الباب العالي مباينة للائحة بيروت. وأمّا الآخرون ممّن هواهم مع الاتّحاديين، فلم يقفوا عند حدّ الإنكار والإكبار، بل تجاوزوه إلى جرح المتآمرين الذين أقدموا على هذا العمل في أثناء الحرب. فلذلك، كُتِبَ إلى الباب العالي صورتان للاحتجاج، خَتَمَ على كلّ منهما فريق، واتّفق الفريقان على مآل واحد في الغاية. وقد تبع دمشق أكثر المدن، كحلب والقدس وبيروت ونابلس وغزّة ويافا وعكّا وصيدا، ولم يخالف في هذا الاحتجاج إلاّ فئة ضعيفة في كلّ محلّ، وعرف الناس، حتّى في أوربا، أنَّ هذا المؤتمر لم ينعقد بأَسم الأمّة العربية، وأنَّ هذه الأمّة لا

تعرفه. وأمّا هم، فملأوا الدنيا كلامًا بكون كلّ مَن وقّع على هذه البرقيّات إنّما يقصد التزلّف والتملّق إلى الحكومة، وأنهم هم أحرار لا يتوخّون غير المصلحة العامّة، وهذه عادتهم مع كلّ معارض يعارضهم، أو مقاوم يقف في وجههم! فإنّهم هيّأوا لكلّ واحد من معارضيهم والمحذّرين منهم تهمة يتّهمونه بها؛ فهذا يقولون إنّه خائف من الدولة على مصالحه، وذاك طامع في منصب يناله منها، وزيدٌ عبدٌ لساداته الاتّحاديين، وعمرو تنقده الجمعيّة راتبًا شهريًا، وبكر ظالم مستبدّ لا يريد الإصلاح خشية حصول المساواة! ومَن لم يمكنهم أن يرموه بنقيصة أو يلصقوا به تهمة قالوا إنّه أبله أو غبي تغفّلته الحكومة، وهلمَّ جرًّا. والحقيقة أنَّ المعارضين لهم همم في التفصيل، فضلاً عن الجملة، أشرف منهم أخلاقًا، وأعلى نفوسًا، وأطهر سيرة، وأشدّ على أوطانهم حمية، وأنهم هم أصحاب المصالح المهمّة في البلاد، والذين يهمّهم ارتقاؤها وسداد إدارتها، وأنهم هم حماتها والحاملون حملاتها، إذا لا سمح الله ثاب البلاد خطب أو نزل بساحتها بلاء، وأنَّ القائمين بحركة اللامركزية، حاشا أفرادًا قلائل، ليسوا في العير ولا النفير[1]، ولا ممّن يخسر شيئًا إذا وقعت الوقائع، لا من مال ولا من رجال، وأنَّ أكثر رجال اللجنة لا يملكون في سورية شبر أرض، وأنَّ أكثر معارضيهم في حركاتهم لم يستفيدوا من الدولة شيئًا، ولا هم ممّن يطالبونها برتبة ولا راتب، وإنّما يطالبونها بأن تصلح الإدارة في ولاياتها، وتهوِّن أمور الفلاح خصوصًا، وأن تجري المساواة التامّة وتمنع التعصّب للجنسيّات، وتقطع ألسنة المفسدين، وتشتدّ على أصحاب الدسائس الذين يريدون بالوطن السوء، نظير كثير من عصابة اللامركزية الساعين في دمار الوطن وإزلاقه بين يدي السلطة الأجنبية! ولمّا سألهم بعض معارضيهم هل يا ترى لو وقع خلاف بين إحدى ولايات فرنسا وبين الحكومة الفرنساوية كان يراجع أهالي تلك الولاية دولة إنكلترة أو ألمانيا أو الباب العالي لأجل الدخول بينهم وبين حكومتهم، كما أخذوا هم يبرقون من باريز إلى وزارات الخارجية في كلّ دولة؟ أجاب حضرة

(1) مثل يُضرب لمن لا يصلح لمسّهم. والأصل عير قريش التي أقبلت مع أبي سفيان إلى الشام. والنَّفير من خرج مع عتبة بن ربيعة لاستنقاذها من أيدي المسلمين، فكان ببدر. ولذا أصبح مثلاً يُضرب للرجل يحطُّ أمره ويصغر قدره.

رئيس اللجنة العليا بأنَّ الأتراك لهم عادة أن يفعلوا ذلك ويطلبوا تحكيم الأجانب في أمور عثمانية صرفة؛ أستشهدُ على ذلك بطلب مراد بك الداغستاني بأن تكون إصلاحات الأرمن تحت سيطرة السفراء، فانظروا أيها القوم واحكموا وانصفوا، هل يكون عمل مراد بك الداغستاني، أو غيره، ممّن هم في الأتراك كما هم هؤلاء في العرب حجّة يحتجّ بها، ومثلاً يقاس عليه، وأصلاً يرجع إليه في إدخال الأجنبي بيننا وبين حكومتنا؟ وهل اقتنعتم أيها العثمانيون، وأيها العرب خاصّة، بأنَّ العار ارتفع عنكم بمراجعة الأجانب فيما هو من خصائص دولتكم وحدها، بكون مراد بك الداغستاني فعل مثل هذا الفعل، وبكون الاتّحاديين عقدوا بعض اجتماعاتهم في باريز قبل إعلان الدستور؟ فهل راجع فتيان الأتراك دول أوربا بصورة رسميّة أن تدخل بينهم وبين الباب العالي، كما فعل أعضاء هذا المؤتمر؟ وهل تحكّكوا بأوربا فيما يعود بمسّ استقلالهم؟ أفلم تكن مراجعة هذا المؤتمر لدول أوربا برهانًا كافيًا على ما هناك من المقاصد الحائدة عن منهج العثمانية التي لا يزال يدّعيها هؤلاء النفر ويؤكّدون دعواهم فيها بكرة وأصيلاً، وقولهم في واد وفعلهم في واد؟ وإذا سألتهم: ماذا حملكم على عقد هذا المؤتمر في عاصمة أوربية؟ أجابوك بأنَّ الدولة قد أقفلت نادي الإصلاح في بيروت واعترضتهم في حرّية الاجتماع، فلم يبقَ أمامهم إلاّ باريز، فاختاروا الاجتماع والائتمار فيها. والحقيقة أنهم لولا نزعة الافتراق التي قاموا بها في بيروت وطفقوا يبثّونها في سائر الشام، وخشية الحكومة أن يستفحل الفساد ويضطرّها الأمر إلى استعمال القوّة، لَما كانت أقفلت لهم ناديهم في بيروت، وهي لم تكن تمنعهم أن يجتمعوا في دار السلطنة لو جاؤها[1] فعلاً بغاة إصلاح؛ وتراها مع ذلك قد أطلقت الحرّية لجرائدهم تكتب ما شاءت، فلا تجد منها عددًا واحدًا ألاّ وهو من أوله إلى آخره أراجيف بالدولة العثمانية، وحطّ من مقامها، وازدراء بأحكامها، ونعي لوجودها، ونثر لعقودها، إن لم يكن تصريحًا فتلويحًا، وما على المكابِر أو المناكر إلاّ أن يأخذ أيّ عدد من تلك الجرائد ليرى أنَّ المكابرة لا تفيده شيئًا! فقد بلغ من الأمر أنَّ جريدة في دمشق قالت عن

(١) جاؤوها.

الأتراك إنّهم شرّ خلق الله، وكانت تلك الجريدة نفسها تحثّ الناس على موالاة فرنسا، وتقول: نحن في البلاد الفرنساوية؛ وتدعو أهل سورية إلى التخاطب والتكاتب بالفرنساوي في التجارة والسياسة، وتعلن أنَّ مَن ينكر فضل فرنسا فهو لئيم، وتردّد مثل هذه الأقوال كلّ صباح وهي تدّعي كونها عربية منتصرة للعرب وأصحابها مسلمون، وحسبك من البغضاء والشنآن، بل من الحطّة والتهوّر أنَّ تلك الجرائد كانت تقبّح استرداد الدولة لأدرنة، وبعضها يدعو الدول، لا سيّما إنكلترة، إلى إخراج العثمانيين منها بالقوّة، وهي جرائد إسلامية عثمانية بزعمهم، وناهيك أنها لا تترك خبرًا يسوء المسلمين إلاّ نشرته، وإذا سقطت على خبر يسرّهم بطريق التصادف نشرته محرَّفًا ومخفَّفًا. ومن أغرب ما وقع من بعض هذه الجرائد أنَّ العالم الأوربي كلّه أقرّ اضطرارًا بتوحّش البلقانيين وما أجروه من الفظائع بمسلمي الروملي، ونَشَرَ كثير من الكتّاب الأحرار، حتّى من أنفس الروس، تفاصيل تلك المظالم والنكبات والفجائع بالعرض والدين والدم والمال، وبعض هذه الجرائد كانت لا تنشر من ذلك حرفًا واحدًا، بل إذا عثرت على قول لأحد البلقانيين بنفي هاتيك الأفعال وردّ تلك التّهم أسرعت إلى نشره، وإذا سقطت على كلام لأحد أعدائنا بأنَّ اليونان لم يرتكبوا شيئًا ممّا عُزي إليهم في ولاية سلانيك، تهافتت على التنويه بذلك البهتان تهافت الذباب على الحلواء، مع أنَّ واقع الحال يكذّبه، ومع أنَّ قناصل الدول في نفس سلانيك، وجمعًا لا يحصى من إفرنجة تشهد بعكسه. فأنت ترى أنهم أصبحوا أعدى على الدولة والأمّة من الإفرنج أنفسهم! وأغرب من هذه المنازع الغريبة التي ظهر بها هؤلاء القوم، وإنَّ هي إلاّ أمراض اجتماعية تظهر في الأمم عند حلول الطامات الكبرى، وتكون أشدّ عليها من هجمات الأعداء، فرحهم بكلّ نكبة تصيب العثمانيين، بل تصيب المسلمين عامّة؛ فقد كان كثير من الناس يقرأون أخبار الحرب على صفحات وجوههم، فإن وجدوا وجوههم ناضرة مستبشرة كان ذلك اليوم خبر سقوط يانيه أو أدرنة أو أشقودره[1] وإلاّ فإن كانت

---

(١) أسماء مناطق في أوروبا.

وجوههم عابسة باسرة[1]، كان ذلك اليوم ورود خبر دحر العدوّ عن شتالجة[2]، أو انهزام البلغار أمام أنور بك في كاليكاتريا، أو عدم تمام نكبة، أو نفوذ كيد دُبِّر للمسلمين! وقد كان بعض هؤلاء يقول لبعض إنّ فوز الدولة على البلغار هو فوز لها علينا، وإنّ هؤلاء الأتراك إذا انتصروا على البلقانيين يرجعون بالضرر إلينا! ومؤدّاه أنهم يتمنّون انكسار العساكر العثمانية، هذه الحامية الأخيرة الباقية للإسلام كلّه، والتي منها جيش عظيم من فتيان العرب ومن أبناء الشام، عدا مَن غشي[3] الحرب من متطوّعي العرب من الشام والحجاز والعراق ومصر وأفريقية، من تلك البقاع التي تحقّق أهلها بالعربية الصحيحة ولم يتلبّسوا بالعربية الكاذبة التي ما يقصدون بها إلاّ الفتنة. فليعلم الناس مبلغ صحّة دعواهم من العربية ولا يخدعوا أنفسهم بهم.

وممّا يلحق بهذا الباب، مقدار تلك الحمية التي كانت تظهر منهم على السنوسي وعرب طرابلس وبرقة؛ فمنهم فريق بقي يستتر نوعًا وينشر بعض أخبار الوقائع التي كان الفوز فيها للمسلمين، كما ينشر دعاوى إيطاليا بالفوز، ولكنّ قسمًا منهم سكت سكوتًا تامًّا عن هذه الأخبار، لا يريد أن ينشر منها شيئًا إلاّ إذا كان هناك تلغراف عن رومة بأنّ الطليان فقدوا في وقعة تاكنست مثلاً ٢٧ قتيلاً فقط، والجنرال تورلي؛ مع أنه يكون الطليان قد فقدوا ذلك اليوم بضعة آلاف، وتكون النقّالات الإيطالية قد حملت ألوفًا من الجرحى، ولا يكون راكبًا في العقل أنّ الجنرال يقع قتيلاً وهو في ساقة الجيش، إلاّ إذا أتت الهزيمة على الجيش كلّه! ويكون بعض جرحى الطليان أقرّوا بالحقيقة، سواء عن وقعة تاكنست، أو وقعة الصفصاف، أو وقعة وادي درنة التي غنم العرب فيها مدافعهم، ولكن هذه الجرائد تعلم أنّ نشر هذه الأخبار، ولو عن الصحف الأجنبية، فيه تشديد لعزائم المسلمين؛ فهي تتجنّب هذا الباب كلّه، كما أنها تعلم أنّ تصديق الفظائع البلقانية مع وجود

---

(١) مرادف آخر لمن يظهر العبوس.

(٢) اسم لمنطقة في أوروبا.

(٣) دخل.

الدول العظام مهيمنة اليوم على العالم، وكافلة لدول البلقان، يؤدّي إلى نتيجة أنَّ الحرب صليبية، وأنَّ أوربا بعيدة عن أن تكون متحرّية العدل والمساواة، متحلّية بحلية التمدّن التي تنحلها إيّاها هذه الجرائد، وتدعو من ذلك أهالي الشرق إلى اتباع نورها. ويا ليتهم اقتصروا فقط في مسئلة السنوسي على هذا، فلو كان ذلك لكان المرض أخفّ سلطانًا، ولكنّهم كانوا لا يرتاحون أيضًا إلى أن تصل إلى السنوسية الإمدادات من إخوانهم المسلمين. ولمّا حضر سيدي عبد العزيز العيساوي، وكيل الشيخ السنوسي، إلى الأستانة من قبل سيِّده، وتشرّف بمقابلة الحضرة السلطانية، ثمَّ جاء إلى سورية قاصدًا زيارة المدينة المنوّرة، قابلت قدومه تلك الجرائد الإسلامية بكلّ فتور، وكادت تتهكّم به وتغمز فيه؛ وبعضها تجاهل أنه وكيل الشيخ السنوسي وزعم أنه لم يتحقّق صحّة هذه الدعوى حال كونه محقّقًا عندها أنه جاء من قبل سيدي أحمد الشريف السنوسي، وأنه لا يقابل الخليفة الأعظم رجل مجهول غير محقّق أصله وفصله! ولمّا نزل سيدي العيساوي في بيروت، شاع أنه قبض ألفي ليرة إحسانًا من الحضرة السلطانية، فأسرع بعض أولئك الصادقين بأخبار بعض هذه الجرائد بذلك، فكتبت الخبر من باب الاعتراض والانتقاد وعقّبته بأنَّ الدولة تدفع مثل هذا المبلغ للسنوسي مع أنَّ المأمورين منذ بضعة أشهر لم يقبضوا رواتبهم، فأخذ قنصل إيطاليا تلك الجريدة وأرسل بها إلى سفارته للاحتجاج على الدولة! فانظروا إلى ما بلغ هؤلاء القوم من كراهية الدولة؛ فقد أوصلتهم إلى بغض كلّ مَن يلتفّ حول الخلافة من مسلمي الدنيا، وإلى إشاعة الأخبار المضرّة بالمجاهدين السنوسيين الذين لو فُرِضَ أنَّ السلطان بصفة الخلافة أحسن إلى شيخهم بألفي ليرة لا تُسمن ولا تُغني من جوع، فليس في ذلك محلّ للكلام، ولا حتّى لإيطاليا التي تعلم أنَّ الحرب لا تكفيها ألفا ليرة، وهذا ممّا جعلنا نقول إنَّ هذه الدعوى التي قاموا بها هي دعوة مضرّة بالإسلام كلّه، عربًا وعجمًا، ومن دواعي الأسف أنَّ الجريدة التي أقدمت على هذه الكتابة هي أكثر جرائدهم اعتدالاً وأحسنها مسلكًا، ولكنّها انقادت في ذلك لوسواس رجل من نفس رجال

الحكومة جاء عمدًا إلى إدارة الجريدة فأخبرها بالخبر واستكتبها إيّاه، فبدلاً من أن يقال إنّه كان يجب إجزال صلة هؤلاء الإخوان المجاهدين الأبطال من الملّة بأضعاف هذا المبلغ مرارًا جزاء باهر ثباتهم الذي حيّر عقول الأوربيين، وإن لم تقدر الدولة على وفدهم، فكان ذلك حقًّا على الأمّة ذاتها، حصل الاعتراض على صلة وكيل الشيخ السنوسي بألفي ليرة، هذا المبلغ الزهيد بالنسبة إلى عظيم أعماله! فإلى هنا وصلت الحالة الروحية بهؤلاء القوم؛ وإن كان هذا فعل خيارهم، فما قولك بسفلتهم وأشرارهم؟! ومن أفظع ما سمعنا في هذا الباب أنه لمّا خرجت البارجة «حميدية» من الدردنيل، وفعلت الأفعال المدهشة التي عرفها القاصي والداني، وأغرقت نحو اثنتي عشرة سفينة للعدوّ، وتأثّرها الأسطول اليوناني مدّة ثلاثة أشهر وزيادة، فلم يفز منها بطائل، حتّى ورد في «تاريخ الحرب البلقانية» لأحد الفرنسيس أنه إذا كان هذا فعل طرَّاد عثماني واحد، فكيف لو كان لدى تركيا أسطول تامّ؟! وماذا كان يعمل ذلك الأسطول؟ وشاع يومئذٍ أنَّ اليونان ظفروا بـ «حميدية» وأغرقوها وهلك قائدها رؤوف البطل الذي استحقّ هذا اللقب بالفعل، فكان لهذا الخبر رنّة فرح عند بعض هذه الفرقة لا يمكن أن توجد إلاّ عند إخوانهم اليونان، وعُزِيَ إلى بعض مأموري الحكومة في بيروت من عبارات التشفّي بـ «حميدية» ما يدلّ على الدِّرك الأسفل الذي وصلت إليه أخلاق بعض العثمانيين في هذه الأيام السوداء! ووالله، قد عهدنا بعضهم يكرهون الدولة من قبل، ولا يبالون بأيّ مصيبة انتهى بها الأمر، ولكن لم نعهد فيهم هذا التوهّج كلّه في البغض، وهذا المروق[1] الفظيع الشائن الذي هو عبارة عن خلع الرسن بالكلّية إلاّ من بعد إدبار الطالع العثماني في حرب البلقان؛ فإذا كانت الدولة قد حقّت عليها الغلبة باحتوائها على الأمّة الممزّقة، والتي فيها أمثالهم، فكان يجب أن نزداد عليها حنوًّا، وبها استمساكًا، إذ كان هذا الوقت أشدّ ما تتنبّه أعصاب الولاء وتشتدّ أوتار العصبية، ولعمري، فما هي أول هزيمة وقعت ولا هي بأول قارورة كُسِرَتْ، وما زالت الدول تُقبِل وتُدبِر

---

(١) الإنكار والإجحاد.

وتسعد وتشقى والأيام هي كما قال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نُسرّ

ولقد قهرت ألمانيا فرنسا وأخذت سلطانها أسيرًا مع مئة ألف عسكري دفعة واحدة، وتوّجت عاهلها في بهو ملوك الفرنسيس بفرساي، ودخلت عاصمة الفرنسيس، وهم من أعظم أمم الأرض في كلّ معنى، فلم يوجب ذلك بغضاء الفرنسيس لوطنهم، ولا يأسهم منه، ولا تقصيرهم في الدفاع والمراماة من دونه، بل بذلوا النفوس والنفائس ذيادًا عن حوزتهم وحفظًا للشرف الفرنساوي، ودفعوا الغرامة الحربية في أقصر مدّة ممكنة، مع أنَّ انكسارهم كان أشبه بانكسارنا، نتيجة غرورهم بأنفسهم، واتّكالهم على عظمة اَسمهم، ونومهم عن الحيطة اللازمة؛ والأعداء قد سهروا ولهوهم بالمشاغبات الداخلية؛ والآخرون قد اتّحدوا، وكذلك دولة وثنية من أقصى المشرق، أهلها من أصغر البشر جسومًا، وأضعفهم عضلاً، وأنباهم عن القسام وجوهًا، قهروا أعظم دولة نصرانية في العالم قهرًا لم يحدِّث عن مثله التاريخ، لأنهم بطشوا بالروس في جميع الوقائع، برًّا وبحرًا وسهلاً وجبلاً، وكان الروس الذين يصدّونهم أحصى منهم عددًا، وعليهم كوروباتكين، أفضل قائد روسي، ومن أشهر قوّاد أوربا، وهو الذي كان يبشّر الروس بأنه لا بدّ أن يعقد الصلح في طوكيو، عاصمة اليابان، فأكذبه الله وخيّب آمال أوربا بأجمعها في هذه الحرب! ومع هذا، فلم يكره الروس دولتهم، ولا مقتوا حوزتهم، ولا ضنّوا على حكومتهم بشيء، ولا تمنّوا لها الكسر والخذلان، إلاّ إذا كان ثمّة بعض العدميين الذين لا يهمّهم دين ولا وطن ولا دولة ولا عزّة قومية، ولا غير ذلك، فهل يريد أن يكون هؤلاء الجماعة عندنا بمثابة أولئك في روسية ليقولوا لنا ذلك؟ ولعلّهم يقولون إنَّ الروس بعد هزيمتهم أمام اليابان نهضوا لإصلاح أمورهم المختلّة ومعالجة إدارتهم المعتلّة، ونحن إنّما نطالب بالإصلاح وننادي بالإصلاح لأجل هذه الغاية؛ والجواب، لو كان ذلك كذلك لكانت المسئلة مقصورة على طلب إصلاح ومناقشة حساب بدون شنآن وبغضاء وشماتة بانتصار الأعداء على الأولياء لا، بل

على الأبناء، وكان الإخلاص للدولة لا يُخفى ولو تحت جعجعة الانتقاد! ثمَّ إنَّ الفرنسيس والروس جادوا بالأموال والمهج وأنفقوا ممّا يحبّون حتّى أنقذوا دولتهم من الورطة، ونفَّسوا عنهما ممّا كانتا فيه من الضغطة، فليخبرنا أصحابنا ماذا فعلوا هم غير الطعن والتنفير والتهكّم والازدراء؟ وهل كان الإصلاح عبارة عن هذا فقط أم كان على الأمّة، للإصلاح، واجبات أخرى من بذل الأموال والجود بأنفس الأعلاق والذخائر لأجل وقاية الوطن من الخطر وتخليص الأمّة من ربقة الذلّ التي تتهدّدها؟ فمَن منهم يقدر أن يقول إنّه قام بأقلّ جزء من هذا الواجب بعد تأخّر الدولة في هذه الحرب، ولقد عهدنا وزارة محمود شوكت أصدرت سندات بقرض داخلي لميرة العساكر الذائدة عن حياض الوطن بعد أن حبس الأوربيون عنها الأموال وتواطأوا على منعنا القروض إجبارًا لنا للرضيخة بكلّ شيء وعقد الصلح مع البلقانيين بأيّ وجه كان؟! فهل اشترى أحد منهم شيئًا من سندات ذلك القرض الداخلي، أو حثّ أحد عليه؟! مع علمهم بأنه هو الوسيلة الأخيرة لحفظ الشرف العثماني وعقد الصلح على وجوه أقلّ بشاعة من ذي قبل. فلو كانت انتقاداتهم تلك وسخرياتهم وأراجيفهم بالدولة مقرونة بالإعانة للجيش، والمساهمة في القرض عن أيدٍ سخيّة وأيدٍ مؤزَّر، لَصدقت دعواهم بأنهم إنّما يكرهون شكل الحكومة ولا يكرهون الدولة نفسها، ولكنّنا نراهم راجلين[1] في الإعانات، فارسين[2] في الإهانات، مقصّرين في الذبّ عن الوطن بالفعل، ومناصرة الدولة بالعمل، مبرزين في انتقادها بالأراجيف ونشد الإصلاح من طريق الطعن والقذف، ولم نجد لهم رأس مال لهذه الإصلاحات التي يبتغونها بدعواهم لأجل حفظ الوطن سوى تنفير العرب من الترك وحطّ مقام الدولة في أعين الأمّة، والمداخلة مع الأجانب لزيادة علوّ كلمتهم في بلادنا. كما أنه لا شكّ يكون عَقْد ذلك المؤتمر المعهود بباريز نَفَعَ فرنسا كثيرًا في مصالحها الاقتصادية والسياسية في سورية، وحَمَلَ الدولة لأجل فضّ ذلك المؤتمر المنعقد بِاَسم العرب على التساهل معها في مطالب

(١) أصحاب رأي ومعرفة.

(٢) حاذقين.

كثيرة لم تكن لتتساهل بها لولا استظهار فرنسا عليها بالمؤتمر في عاصمتها، وبرجاله يطالعونها بأسرار بلادهم ويجعلونها مرجعًا بينهم وبين حكومتهم، هذا ما رأيناه منهم إلى الآن.

وممّا يلجأ إليه بعض أولئك المسفسطين في الاعتذار عن عدم حميّتهم على الوطن وتخلّفهم عن رفد الدولة بأموالهم، أنَّ أمثال الروس والفرنسيس يجودون على حكوماتهم لكونهم موقنين بأنَّ أموالهم ستُستعمل فيما دفعت لأجله، وأنه لا يذهب منها شيء سدى ولا تدخل بطون القائمين عليها من أولياء الأمور؛ وأنه ما ثبّطهم عن الرفد والبذل سوى معرفة ابتلاع رجال الأستانة لتلك الأموال، وهذا عذر المتخلّف الذي لا يريد أن يقرض ولا أن يتبرّع، ولا يهمّه الشرف العثماني ولا غيره، ولكنّه يخجل من الناس لكزازة نفسه وقتلة حميّته، فيظنّ أنه أتى بشيء في تشبّثه بذيل ذلك العذر الذي هو أوهى من بيت العنكبوت وأدقّ من خيط باطل، فإنّه لو شاء بعض أبناء العثمانية التبرّع على الدولة بمبالغ تبتاع بها بارجة حربية لما تعذّر عليهم ابتياعها رأسًا وتقديمها للأسطول العثماني الذي فيه أبطال كرؤوف، ودارعة تفعل أفعال "حميدية". ولو أراد أحد إعانة الجيش بمال أو بزاد أو بلباس لما تكآده[1] إيصال ما تسخو به نفسه إلى أفراد الجند بدون إطالة الأخذ والردّ في المعاملات الرسميّة، وهذا لا يصعب على مَن أراد العمل وصحّت نيّته، ولكنّنا لم نعلم من أبواب إصلاح الوطن إلاّ باب التهكّم بحكومتنا، والازدراء بشأن دولتنا، والتدمير على إخواننا، والتفريق بين عناصرنا، وادّعاء ما ليس فينا، فإذا جئنا إلى العمل تسلّلنا لواذًا، وتفرّقنا أفلاذًا، وظهرت هجنة أقوالنا بجانب قلّة أفعالنا، وعُلِمَ أنَّ انتقادنا حكومتنا ليس انتقاد نصح، وأنَّ مخالفتنا ليست اجتهادًا في المصلحة كما نقول، بل إنَّ انتقادنا إنّما كان طعن عدوّ في عدوّه، وإرجاف شامت بضدّه؛ وإنَّ مخالفتنا إنّما كانت شقًّا للعصا وتفريقًا للجماعة، وإنّنا نحن في الحقيقة غير ما ندّعيه، وإنّنا في الرقمتين[2] وإن غيّرنا في وادي الغضا بين الفريقين بون بعيد! ولو

(١) تكآده الأمر، صَعُبَ عليه.
(٢) روضتان بناحية الصمّان.

كانت مسألتنا مسألة انتقاد للنصح ومعارضة من باب الاجتهاد لما خفيت علامات النصح ولوضحت غرر الصدق وحجوله، ولتفجّرت ينابيع الإخلاص من خلال الحركات والسكنات؛ فقد عهدنا كثيرين من الفرقة الائتلافية، أعداء الاتّحاديين، عندما أحسّوا بإحداق الخطر بالدولة والوطن، وضعوا أيديهم في أيدي الاتّحاديين ودخلوا في جمعيّة «المدافعة الملّية» وقالوا لا يصل بيننا وبينكم الخلاف إلى ما يمسّ وجود الدولة نفسها. وهؤلاء مثل المشير فؤاد باشا، المعروف بالمصري، وأمثاله من أُسُود الإسلام، كما أننا وجدنا منهم مَن صار يراجع قيصر الروسية وفرنسا وإنكلترة لمضافرته على الدولة، ولو بمسّ استقلاله، وهذه الطبقة تقرب جدًّا من بعض أفراد اللامركزيين الذين عندنا، وهم يظنّون أنهم يكنّون سرائرهم ويخفون ضمائرهم، ولكن عند الاحتكاك تلمع الحقائق:

إذا اشتبكت دموعٌ في خدودٍ ... تبيّنَ مَن بكى ممّن تباكى

ولا يخفى أنه كما كان في الشام فرقة تدين بالفرقة والانفصال ورفض الوحدة العثمانية والإسلامية، فإنَّ في مصر أيضًا نفرًا ينطوون على هذه المبادئ، ويدعون إلى الامتزاج بالأوربيين تحت ستار الدعوة إلى المدينة، ويثبّطون عن مشاركة بقيّة المسلمين الخارجين عن مصر في شيء بحجّة التمحّض في الجنسية المصرية. وهؤلاء هم في المصرية أشبه بأصحابنا في العربية، لا تدعو كلّ فرقة إلى ما تدعو إليه إلاّ تفكيكًا لأوصال الإسلام ونثرًا لهذا النظام البديع الذي هو عليه، ولا يخشى الأجانب شيئًا خشيتهم من إجراء أحكامه. فلمّا وقعت غارة إيطاليا على طرابلس ظلمًا وعدواناً، وهاجمتها بغتةً، وقام أهلها ينضحون عن استقلالهم، توجّع لهم العالم الإسلامي بأسره، ورفدهم أناس بالأموال، وأناس بالأبدان، وأناس بالمعارف، وأناس بالمساعي، وكان لمصر من ذلك النصيب الأكبر لتقدّمها على غيرها مادّةً ومعنًى، ولكونها أم أفريقية، ومن مصر امتدّت فتوحات الإسلام في أفريقية جميعها، ولكون عرب مصر خاصّة هم أبناء عمومات عرب برقة والجبل

الأخضر والكلالات[1] بينهم شابكة، والأرحام متّصلة؛ فقامت مصر وقعدت لهذا الأمر وجمع أرباب الحمية فيها الأموال الطائلة وعاونوا بها إخوانهم الطرابلسيين في مصيبتهم هذه، فلم يوجد معترض على هذه الهزّة الكريمة سوى بعض تلك الفئة المصرية في كتابات نشروها في الصحف ساءت الناس، عامّتهم وخاصّتهم، وعادت على أصحابنا بالندم، إلاّ أنَّ بعض هذه الفئة التي منها نَجَم اللامركزيون فيما بعد، تلقّوا ذلك الاعتراض المصري بالقبول وحاولوا بثّه بالشام، فصادفه من التقبيح والتشنيع ما صادف في مصر أخاه من قبل.

ولقد نزل التهوّر بأولئك الأغرار إلى رقاعات هي مع تفاهتها تدلّ على روح لا يرضاها كريم ولا عاقل لهذه الأمّة. فكان حازم بك، والي بيروت، يضع إمضاءه "أبو بكر حازم"، فلبثت تلك الجرائد تقول "أبو بكر"، ورأينا "أبا بكر"، وهذه أفعال "أبي بكر"، ممّا يشمّ منه رائحة التهكّم بكنيته بكثرة ما كرّروا ذلك صباح مساء، إلى أن اضطرّت إحدى الجرائد الإسلامية أن تقول لأولئك: ما بالكم؟ تجاوزتم حدود الدولة، والآن تجاوزتم حدود العقيدة، فإنَّ الكنية التي جعلتموها هدفًا لسخرياتكم هي كنية رأس الخلفاء الراشدين أبي بكر الصدّيق، قامع المرتدّين، رضي الله عنه، فحسبكم من التهكّم الهزؤ بحازم بك نفسه، فأمّا بكنية أبي بكر فلا، فإنَّ القليل من الازدراء في هذا المقام كثير. وأغرب من هذا أنَّ الجمعيّة الخيرية الإسلامية في دار الخلافة انتدبت بعض المتقنين من حفاظ كتاب الله في مصر لعلم التجويد، في جامع الفاتح وفي بعض مساجد أسكدار، ولتصحيح قراءة حفَّاظ الأتراك وتعليمهم اللفظ العربي بالنغمة العربية؛ فكان من بعض جرائد تلك الطبقة أيضًا أن نشرت شيئًا يُشعِر بالاستهزاء بعمل الجمعيّة الخيرية هذا، وقالت إنّهم طلبوا مَن يقرأ القرآن على اللحن المصري، وكأنَّ الاعتناء بحفظ القرآن وتجويده وتعليمه الأتراك سفساف أمر يوجب تهكّم تلك الطبقة العالية التي تدّعي المدارك البعيدة والمعارف الزاهرة، وكأنَّ أصحاب هذه الصحف هم أعرق في العربية نسبًا وأوفر في

[1] م. كَلالة: وهو من لم يكن له والد أو ولد يرثه، بل يرثه ذوو القربى.

اللغة أدبًا من أعضاء الجمعيّة المشار إليها، والتي فيها من أمراء العرب وغطاريفهم وفضلائهم وأساطينهم ما لا يوجد في جمعيّة سواها.

يدّعون العثمانية، ويتنصّلون من تهمة النزوع إلى الانفصال من الدولة، وأحد كبار المشتركين معهم، المعارضين للحكومة، صرّح لأحد أقاربه من وزراء الدولة في الوزارة السابقة أنه كان مصطافًا في قرية عاليه، فجاءه فلان وفلان، إلخ، من الوفد الذي ذهب إلى باريز ودعوه إلى الذهاب معهم، فقال لهم لماذا يجب السفر إلى باريز؟ فنحن نقدر أن نذهب إلى الأستانة نفسها ونطالب بالإصلاحات هناك. فلم يوافقوه على رأيه. وبعد الأخذ والردّ قالوا له نحن في الحقيقة إنّما نريد الانفصال عن الأتراك! هذه شهادة رجل منهم عليهم لا يقدرون أن يطعنوا فيه، وهو إلى الآن معهم.

ولقد شاع نقلاً عن أناس منهم أنهم كانوا تحكّكوا بالإنكليز وعرضوا عليهم إضافة سورية إلى مصر، فأجابوهم بأنَّ ذلك بعيد من فكر إنكلترة، فقالوا لهم إنَّ سورية ذاهبة على كلّ حال، فأولى بهم أن يقبلوا إلحاقها بمصر من أن تأخذها فرنسا أو ألمانيا، فأجابوهم بأنه إن حدث لسورية حدث فيبقى لها شأن خاص بها ولا يمكن إلحاقها بمصر، والخليق بهم أن يتّفقوا مع دولتهم العثمانية. فلذلك، بعد أن كانت دعوتهم إنكليزية عادوا فولّوا وجوههم شطر باريز، وأخذوا يتردّدون على خارجية فرنسا؛ ففرنسا قبلتهم نظرًا لمرافقها في سورية، ولكنَّ فرنسا اتّفقت مع الباب العالي ونالت امتيازات عديدة في سورية لم تتوقّف في نيلها عند رضاهم ولا تفاوضت مع أحد فيها سوى الحكومة الشرعية، وهذا ما لا نزال نكرّره على هذه الأمّة من أنه لا يجوز أن ندخل أحدًا بيننا وبين دولتنا، فإنَّ أوربا لا تعرف سواها، ولا يضرّنا ولا ينفعنا غيرها.

ومن جملة إسدائهم الحسن على الدولة، أنهم بعد أن برزوا إلى هذا الميدان وجعلوا ديدنهم الطعن والقذف، كانت هناك بعض جرائد مسيحية تتجالف عن

الازدراء بالدولة علنًا، والحطّ من مقامها جهارًا رعاية لعواطف المسلمين، فلمّا رأت هذا النفر من المسلمين خرجوا هذا الخروج على دولتهم الوحيدة، تمهّد عذرها في إظهار ما عندها؛ لأنَّ المسلم لا يقدر أن يقول للمسيحي إنّه يجب أن يكون عثمانيًّا أكثر منه، فبرز من أصحاب هذه الجرائد ما لم يكن يظهر قبلاً من الشماتة والغمز والإرجاف والازدراء، وهي، مع ذلك، إنّما اقتفت آثارهم في هذه الخطّة؛ فأصبح شأن الدولة مضغة في أفواه الجميع، من تأثير كتابات هؤلاء وهؤلاء إلى أن قرأنا مرّة في إحدى هذه الجرائد المطبوعة في لبنان ما معناه أنَّ الدولة العثمانية ليست بشيء؛ فمن جهة المال إفلاسها معلوم، ومن جهة السيف، قد ظهرت قوّتها أمام أصغر الدول... وأنه لا بدّ لها من قبول السيطرة الأجنبية شاءت أم أبت، وغير ذلك من المقالات التي لا تتحمّلها الطباع لصدورها في وسط بلادنا وتحت ظلّ هلالنا.

ولقد اضطررنا أن نجاوب أولئك المغرورين، المسلم منهم والمسيحي معًا، أننا لا ندّعي كون الدولة انتصرت في هذه الحرب، ولكن يلزم قبل هذا التشدّق أن يعلموا مقدّمات الحرب وكيفيّة مهاجمة البلقانيين للروملي والعساكر التي زحفت دفعة واحدة إليها، وأننا قبل إعلان الحرب، كانت أوربا أشارت علينا بصرف عساكرنا من الحدود، فصرفنا منها ١٢٠ ألف عسكري مدرّب، وأنهم ما كادوا يصلون إلى بيوتهم حتّى زحفت الدول البلقانيات الأربع، فاستنفدنا جهدنا في الحشد فلم نقدر أن نحشد أكثر من ٣٠٠ ألف عسكري أكثرهم من نفس الروملي، أي أنه فيهم البلغار واليونان والصربيون والأرناؤوط الذين كان معظمهم يأبى القتال. فأصبحت الدولة بجيشها هذا، على ما فيه، تقابل ٩٠٠ ألف عسكري، عدا الأهالي الذين ثاروا من كلّ ناحية. وانضاف إلى ذلك سوء إدارة الرجال الذين كانت في يدهم أزمة الحرب حتّى تركوا العساكر أيامًا بدون طعام والمدافع بدون قذائف. وكذلك الخطأ في الخطّة الحربية، فإنّهم فرّقوا الجنود لمقابلة الدول الأربع، فلم يقدروا أن يقابلوا جيشًا من جيوشها إلاّ بنحو ثلث عدده. ومع هذا، فلم يعهد أنَّ دولة اتّسق لها السعد في جميع أيامها، وأنها لم تنهزم لها راية قطّ حتّى تغضّ

هذه الجرائد من مقام الدولة لإدبار طالعها في هذه الحرب! وكان عليهم أن ينظروا إلى أنه، مع كلّ هذا التفاوت في العدد، ومع سوء الخطّة الحربية التي سرنا عليها، ومع خلل الإدارة وفقد الميرة، كافحنا الأعداء مكافحة تعلم نتيجتها من عدد قتلاهم الذي أربى على ٦٠ ألف قتيل دون الجرحى، وأنه في آخر الحرب، ومع انكسار قوّتنا المعنوية، دحرنا الأعداء في شتالجة، أولاً وثانيًا، وحشدنا ٤٠٠ ألف عسكري وزحفنا بها إلى أدرنة في يومين واسترجعناها عنوة، وتألّبت علينا الدول الكبيرة والصغيرة لإخراجنا منها، فأبينا الخروج إلاّ بالقوّة، وأخيرًا جاء البلغار إلى الأستانة ورضوا بجميع شروطنا. ولو علموا أنهم يقدرون على مهاجمة الجيش الجديد الذي جهّزناه لمّا وقفوا طرفة عين، ولمّا سلّموا لنا بأدرنة التي فقدوا في حصارها وحده نحو ٤٠ ألف قتيل وجريح.

ومَن قرأ الجرائد العربية التي تصدر في أميركا رأى في بعضها من هذا المعنى الغرائب والعجائب! ويا ليتها وقفت عند حدّ الاستهزاء بالدولة، بل ظنّت أنَّ هذا هو الوقت لإدخال سورية تحت الحكم الأوربي. وكان هذا الباب ممّا فتحه اللامركزيون بأيديهم. فإذا طالعت تلك الصحف تجد هذا الطلب فيها صريحًا، لا مخاتلة ولا مواربة، وقد انتهت إلى الشام ومصر نشرة مطبوعة في نيويورك بإمضاء "الجمعيّة الفينيقية" مآلها مطالبة الدول العظام بتخليص نصارى سورية من الحكم الإسلامي؛ لأنه، كما كان المسلم التركي وحشًا ضاريًا، فإنَّ المسلم العربي جاهل متعصّب، والنشرة مختومة بالرجاء من الدول أن تخلّص نصارى سورية من الظلم الذي هم فيه كما أنقذت نصارى البلقان! ولعمري أنَّ أصحاب هذه النشرة كانوا أشرف نفوسًا وأصدق لهجة من أولئك الذين ينطوون على سريرة ويورون بغيرها، كأن يكون مقصدهم الفرقة تدريجًا بين العرب والترك، فيوطّئون لها بطلب الإصلاحات، ويدّعون أنهم إنّما يبتغونها تقوية لظهر العثمانية، وهم يسعون في قصم ظهرها! وكأن يكونون نابذين الإسلام ظهريًّا ويقول أحدهم أمام شهود من حزبه إنَّ كتاب فلان الإنكليزي هو أبلغ من القرآن، ويرفض الرابطة الدينية بين

المسلمين في خطابه، ثمَّ يأتي إلى رجال الدولة فيطعن في عقيدة رجل من مناهضي فسادهم المعبَّر عنه عندهم بالإصلاح، ويجعل نفسه من علماء الإسلام!

إنَّ أصحاب النشرة الفينيقية لم يدّعوا بما ليس فيهم؛ فلا قالوا إنّهم عرب، ولا تبجّحوا بغسّان وقحطان، ولا جدّدوا أنسابًا ولا اخترعوا تواريخ، بل علموا أنَّ ادّعاء العربية والقحطانية لا يقترن مع مطالبة تدخّل أوربا. ومع القول بأنَّ المسلم العربي هو جاهل متعصّب، وأنه هو والتركي سواء في خبط النصارى بعسفه، فرفعوا لواء الفينيقية التي ربّما كانت أقرب إلى الحقيقة، فضلاً عن كونه نسبًا لا يستحي به، بل محتدًا يليق به الفخر، وقاموا يطالبون بما يطالبون به بكلّ صراحة، لا يُمشون إليه الضرّاء، ولا يسرون حسوًا في ارتغاء[1]، على أنَّ الذي جرّأهم على بثّ هذه الفكرة إنْ هو إلاّ قيام حركة اللامركزية، فهذه أيضًا من فضائل اللامركزيين على سورية.

وإذا سألتهم، هل يجوز عندكم هذا الكلام الذي صدر من بعض السوريين في أميركا؟ قالوا لك: ما دخلنا بخطّة غيرنا؟ فنحن لنا خطّة مرسومة ولم نقل إنّنا نريد احتلالاً أجنبيًّا لسورية، وأمّا غيرنا فهو مسؤول عن رأيه ولسنا بمسؤولين عنه. فنقول لهم إذا كان ذلك كذلك، فلماذا تبرأون من هذه الأقوال وتنشرون الكتابات المتضمّنة الردّ عليها؟ فقد ملأتم الآفاق بالطعن في الدولة، فهلاّ دار في خلدكم أن تطعنوا فيمن يريد تسليم بلادنا لحكومة أجنبية! فعند هذا يجاوبونك: لا شغل لنا بهذا الأمر، وإنّما نحن مسؤولون عن بروغرامنا[2] فقط.

والصحيح أنهم يخاطبون كلّ قائم ويراجعون كلّ ناعق وقد نقروا تلغرافات إلى نيويورك يستعدون فيها هؤلاء القوم على الدولة باسم الوطن السوري، وربّما إذا قال لهم هؤلاء نحن لا ندعو إلى عربية، بل إلى فينيقية، لأننا نعتقد كونها هي أصلنا الحقيقي أجابوهم، نحن موافقون لكم ولسنا بمعارضيكم في خطّتكم، إلاّ أننا

---

(1) "يُسرُّ حسوًا في ارتغاء" مثل يُضرب لمن يُظهر أمرًا ويريد غيره.
(2) programme، أي برنامج. (المحقّق)

مضطرّون لرفع لواء العربية استظهارًا بقوّة الأمّة العربية التي لا نقدر على الترك بدون تحريك عصبتها؛ فقد ثبت أنَّ بعض هؤلاء المصلحين يستبيحون كلّ وسيلة مهما باينت الحقّ في سبيل الوصول إلى غايتهم، وقد عهدنا دعاتهم يتقدّمون إلى كلّ واحد من سراة البلاد، أو من تجّارها، أو من علمائها، أو من أكرتها، ويخاطبونه في عداوة الدولة باللسان الذي يعلمونه أقرب إلى فهمه، فإن علموه ديّنًا متمسّكًا بالشريعة، أظهروا له الأتراك بمظهر الاستخفاف بالدين والإهمال للشرع الشريف، وبكوا على الشرع وعقدوا مناحة الدين، فإن خالفهم فيما قالوه، وأظهر لهم ما يعلم من تمسّك الأتراك بالدين ممّا هو معلوم ومشهور، قالوا له: نحن لا نعني أتراك الأناضول ولا الأتراك القدماء، فأولئك هم كما قلت، ولكنّنا نعني فرقة "جون ترك" التي هزأ منها فلان بالدين، وقال فلان ما هو كذا وكذا، إلى آخر ما هناك. فيقول لهم: أفتؤاخذ الدولة كلّها، والأتراك بأسرهم، بإلحاد أفراد قلائل؟ عندنا في العرب مَن هم أشدّ إلحادًا منهم، فيقولون له: إلاّ إنَّ هؤلاء الملحدين من الترك هم الذين في أيديهم زمام الأمور، أمّا الملحدون من العرب فلا بال لهم.

وأمّا إذا علموا مخاطبهم لا يهمّه الدين وكان ممّن ينزع إلى الجامعة الوطنية، فإنّهم يجعلون الترك وحزب الترك من العرب هم النافخين في بوق التعصّب الديني، والمفرّقين بين الطوائف التي كانت تعيش إخوانًا لولا فساد الترك، ولذلك نهضوا هم وأخذوا الطرق على هذا الفساد، وأقاموا الجامعة الوطنية مقام الجامعة الدينية التي كانت ولم تزل أصل بلاء الإسلام، والتي أصبحت في عصر النور والحرّية والمساواة من الأمور التي يجب طرحها، وهلمَّ جرًّا من هذا البحر. وإذا كان المخاطب تاجرًا لا يكرثه شيء سوى شغله وتوفّر ربحه، قالوا له: إنَّ التجارة تعطّلت بسوء إدارة الأتراك، وضربوا له مثلاً برواج التجارة في البلدان التي احتلّها الأجانب، وأبانوا له ما هناك من الفرق. وإذا كان من أصحاب الأراضي، قالوا له: كم عندك من الأراضي؟ فيقول: ٢٠ ألف دونم مثلاً، فيسألونه: كم يُأخذ منها سنويًّا من الريع؟ فيقول لهم: ألف ليرة مثلاً، فيقولون له: أراضيك هذه في سورية أو في

العراق توازي أربعة آلاف فدّان في مصر، والأربعة الآلاف فدّان في مصر تعطي صاحبها ٣٠ ألف ليرة ريعًا سنويًّا، وهذا كلّه بالفرق بين إدارة الإنكليز وإدارة الترك! وإذا سمع الرجل ذلك ولم يكن يعلم أسبابه ولا مرجع الضرر فيه، قال: والله إنّهم لمصيبون، وانقلب ناقمًا حاقدًا، وخال أنه بمجرّد وضع سورية تحت سيطرة الأجنبي تصير غلّة الفدّان فيها ١٥ ليرة، وأنه ما دامت الإدارة في يد الدولة العثمانية فالتقدّم مستحيل.

ومن غريب ما زيّنوا، أنهم دسّوا إلى السيِّد طالب الرفاعي في البصرة وعصابته هناك أنَّ الدولة تواطئ الأجانب على بلاد الإسلام وتخلع الدين، وما أشبه ذلك من الأقاويل التي يعلمون أنها أعلق بقلوبهم من سواها، فخرجت جرائد كثيرة في العراق ملأى بالتدمير على الدولة وعلى أهل الصليب معًا، بحجّة أنَّ الاتّحاديين يبيعون البلاد من الإفرنج، وتبارى الشعراء في نظم القصائد حثًّا للأمّة على الدفاع عن الحوزة المحمَّدية؛ فكأنَّ حركة هذه اللامركزية تتلوَّن في كلّ صقع باللون الذي يلائمه، وتلبس لكلّ حالة لبوسها والمرمى واحد. وأهمّ باب من الأبواب التي فتحوها على الدولة في الواقع هو باب المقايسة بين بلادها وبلاد غيرها، وإظهار ما بينهما من الفرق في العمارة، وهو بحث دقيق ومزلقة مدحاض لا تثبت فيها إلاّ قدم مَن كان راسخ الاطّلاع، عليمًا بالتاريخ، شاديًا[1] شيئًا من علم الاجتماع والسياسة، فلذلك تجد أكثر ما يدخل هؤلاء النفر على قلوب الناس من هذه الثلمة، ولذلك نقف عند هذا الموضوع قليلاً ونكرّر ما قلناه قبلاً وهو، إنَّ المسئلة الشرقية ليست إلاّ عبارة عن مصارعة الصليب الأحمر للهلال منذ ١٣ قرنًا، وما زال الإسلام يتقدّم حتّى فتح أكثر المملكة الرومانية الشرقية وقسمًا كبيرًا من المملكة الغربية، وقبع أهل الصليب في قطعة أوربا. ثمَّ طرأ على دول الإسلام العربية من الضعف والانحلال ما أوقف سَيره، فعادت الحرب بين الهلال والصليب سجالاً، وأخذ الصليب يسترجع من أصل ما كان فقده من أملاكه، كاسترجاعه

---

(١) بمعنى "أخذ".

بعض سواحل فرنسا وإيطاليا وجزيرة سردانية[1] وصقلية ثمَّ الأندلس بتمامها، ثمَّ نظير استيلائه على قسم من أفريقية نفسها، وكغارة الصليبيين على برّ الشام ومصر والأناضول؛ فكانت الدائرة أوشكت أن تدور على الإسلام ويخسر أكثر فتوحاته ويعود الهلال كالعرجون القديم، إلاّ أنَّ الله قيض له من دول الأكراد الأيوبية، ودول الأتراك السلجوقية، ودول المماليك الجراكسة مَن أقاموا أوده ورأبوا صدعه، وجاءت على أثر هذه الدول دولة ابن عثمان في قلب الأناضول، فاستصفت ملك الأمبراطورية البيزنطية في آسية، وأجازت إلى أوربا، وأوغلت في الفتوحات إلى بولونيا، وحاصرت عاصمة النمسا مرّتين وطردت الإفرنج من جميع أفريقية، وكاد البحر المتوسّط يعود بحيرة عثمانية. وهي إن لم تقدر أن تستردّ رأس أوربا الغربي من ناحية الأندلس، فقد عاضها الله منه برأسها الشرقي في جزيرة البلقان. فهذا ما وصلت إليه دولة ابن عثمان من الضرب في طول البلاد وعرضها وانتظام البرور والبحور بلبّتها، وتزاحم ملوك الأرض على بابها وبقاء جميع أوربا ترعد من خشيتها، ممّا جعل دول أوربا تحاربها محاربات عامّة وتصارعها مصارعات صليبية، وتزحف عليها بقضّها وقضيضها[2]، وتهاجمها في برّها وبحرها، وتدسّ عليها الدسائس في وسط بلادها وتغري العجم المنتصرين للشيعة بالهجوم عليها من ورائها؛ فكان تألّب أوربا على هذه الدولة نحوًا من خمسين مرّة، وهي قائمة بأمر الهلال وحدها، وهم أمم لا تحصى ودول ضخمة وكلّ يوم قوّتهم في ازدياد وجدّهم في صعود! وفي أوائل القرون الأخيرة تألّقت في آفاقهم أنوار المعارف وتدرّجوا في المدنية وسدّدهم الله إلى الاختراعات العظيمة التي كانت سلّم ارتقائهم وينبوع ثروتهم. هذا، والحرب قد أخلت ديارنا من العامر وأعادت المدن الزاهية بلاقع[3]، وغلّت أيدي الدولة عن الاشتغال بشيء سوى الدفاع عن حوضها وردّ عواديهم عليها. وصار الضعف يجرّ ضعفه بعضه بعضًا في الشرق، وصارت القوّة يزيد بعضها

(١) تُعرف اليوم بجزيرة سردينيا.

(٢) قضّها وقضيضها، أي جميعها، وقيل: القضُّ: الحصى الصغار، والقضيض الكبار. وهنا بمعنى أنهم جاؤوا بالكبير والصغير.

(٣) مفردها بَلْقَع وبَلْقَعة، وهي الأرض القفراء.

بعضًا في الغرب، وكان من جملة منازع الدولة في الحلم ومذاهبها في العدل عدم التعرّض للطوائف الأجنبية الداخلة في طاعتها بشيء من الأشياء، لا سيّما في حالة العزّ والمنعة، فبقيت من هذه الطوائف ملايين كثيرة في الروملي والأناضول متحفّزة كلّها للانتقاض عند أول فرصة، وكان وجود هذه الأمم حربًا دائمة في باطن الدولة، فلم تأتِ الدولة بليّة إلاّ وهؤلاء مصدرها. فلم تقدر الدولة أن تتوفّر، وهي منفردة وحدها بهذه المصارعة، على توفية المعارف حقّها، ومباراة الأمم الغربية في مراقيها العلمية والصناعية. ولو تُركت الدولة وشأنها بضع سنين بدون حروب من الخارج، وبدون فتن في الداخل، لسارت في طريق التقدّم كما سار غيرها! ولكنَّ قياسها بغيرها فاسد من وجوه، وما يتهيّأ لدولة أوربية إتمامه وهي في ظلّ أمانها وكهف سكونها وكنف دِعَتها لا يتهيّأ نظيره للدولة العثمانية التي لا تقدر أن تأمن الغدر لحظة واحدة، ناهيك تفرّق بلادها وكثرة سواحلها وتعدّد عناصرها وأديانها وألسنتها، وهذا قد كرّرناه لا لنلتمس لرجال الدولة عذرًا على جمود لا يفيقون من مرضه، وإهمال لا يخلصون من تبعته، بل لنقنع بعض الأغرار بأنَّ لهذه الحالة التي عليها الشرق كلّه، أسبابًا طبيعية اجتماعية، وعللاً متسلسلة تاريخية، وأنَّ أدوار الإقبال والإدبار التي تتعاقب على الأمم لا تكون إلاّ نتايج مثل هاتيك المقدّمات، وأنه لو قامت دولة أوربية عظيمة بالغة أعلى درجات التمدّن مقام الدولة العثمانية، بما هي فيه من المشاكل والمعاضل، وما عليها من العداوات المنصوبة والأطماع الهافية[1] من كلّ صوب، لَما تسنّى الإصلاح الذي تبتغيه أمّتها، ولَسقط في يدها من أول يوم ولَصاحت المدد المدد.

وأمّا التنظير بمصر، وما أدراك ما مصر، فقد كان السبب الأكبر في دخول هذا الوهم على الأفكار، واعتقاد بعضهم أنَّ مجرّد وجود الأجانب محتلّين أو مسيطرين يكون سببًا لفيض مَعين الثروة، وامتداد رواق الأمن والراحة، وبلوغ معالي درجات العزّ والبسطة، ويذهب الواحد منهم إلى مصر، فيرى شوارع القاهرة ومبانيها

---

(١) الجائعة.

الفخمة وساحاتها الرحبة وأرصفتها الممدودة، ويشاهد السيّارات الكهربائية ذاهبة جائية والقطر الحديدية متواصلة، والعربات والحوافل تُعدّ بالألوف والخلق مزدحمين في الأسواق والشوارع كأنهم يحشرون ضحى، فيظنّ أنَّ هذا العمران كلّه لم يكن الأصل الأصيل فيه سوى وجود الإنكليز، وأنه لولا الإنكليز لم تكن مصر شيئًا مذكورًا.

ولسنا هنا نحاول غمط إحسان الإنكليز ولا تنقّص إدارتهم، ولا الغمز في اقتدارهم وإنكار ما أتوه من الإصلاحات أثناء وجودهم بمصر، ولكّننا نحبّ تنبيه المغرورين من الأمّة بظواهر الأمور، المنخدعين بحيل السماسرة المعهودين، إلى النقط الآتية:

أولاً ـ أجمع علماء الاجتماع أنَّ أسعد سعادة تطمع بها أمّة وتبذل النفوس والنفائس من دونها بذل رخيص المتاع، هي سعادة الاستقلال، وهي التي بدونها لا يلذّ الأمّة مال ولا ثروة، بل كلّما عظمت الثروة ازداد الحنين إلى الجاه واشتدّت الحسرة على الاستقلال. فإذا فرضنا أنَّ بلادًا شرقية ازدادت ثروتها وبهر انتظامها وكانت قد فقدت بمقابلة ذلك استقلالها، فلا تكون قد اشترت هذه النعم بثمن بخس، بل تكون قد اشترتها بضعف، بل بأضعاف قيمتها.

ثانيًا ـ إنَّ الزمان زمان تقدّم في كلّ بقاع الأرض، حتّى أنَّ البلاد العثمانية كان لها نصيب من التقدّم رغم المشاكل والحروب التي لم تفارقها طرفة عين. ولو كانت مصر بقيت بدون احتلال أجنبي لَما كان يمكن القول بأنها تبقى على حالتها التي وُجدت فيها منذ ثلاثين عامًا، بل لا شكّ أنها كانت سارت في طريق التقدّم من نفسها شوطًا بعيدًا، ولقد ترقّت مصر في أيام اسماعيل باشا ترقّيًا باهرًا في العلم والصناعة ولم يكن فيها سيطرة أجنبية.

ثالثًا ـ إنَّ الشام ليست فيها ثروة مصر ولا يسار مصر، ولكنَّ أرضها لأهلها وجميع ما يملكه الأجانب من حدود العريش إلى حدود مرعش لا يساوي في

الأراضي ملك فرد واحد من ذوي الأراضي في سورية، كعبد الرحمن باشا اليوسف في الشام، أو أولاد محمَّد باشا المحمَّد في طرابلس الشام، أو الجابري في حلب مثلاً، وكذلك لا ديون على سورية للأجانب باعتبار المجموع، بل ديون سورية هي لأهل سورية، والمال ينتقل من يد إلى يد وكلتاهما يد سورية عثمانية؛ حتّى التجارة في مدن كثيرة كحلب وحمص ونابلس، لا تدور بأموال المصارف العمومية، كالبنك العثماني وغيره، بل تجد الصيارف من أهل البلاد يدفعون جميع رؤوس الأموال من صناديقهم باستغنائهم عن البنوك الكبيرة تمامًا، فهل يمكننا أن نقول إنَّ أراضي مصر باقية كلّها لأهل مصر؟ وهل يمكننا أن ندّعي كون الديون التي على مصر البالغة ٢٤٠ مليون ليرة إنكليزية لا تساوي نصف أطيان مصر، بل تزيد على هذا المقدار إذا اعتبرنا أنه لا يوجد أكثر من ستّة ملايين فدّان من الطين؟ وهل يمكننا أن نزعم كون الأهالي الوطنيين في مصر لا يخسرون من مجموع أطيانهم سنة عن سنة، وأنه إذا استمرّ الحال هذا طويلاً ربّما خرجوا منها كلّها وأصبحوا أكرة عند الأجانب التي يكونون ملكوها؟ وهل يمكننا أن نحكم بأنَّ الفوائض التي تدفعها حكومة مصر وأهالي مصر للأجنبي كلّ سنة، وهي معدّلة بأربعة وخمسين مليون ليرة لا تساوي مجموع محصول القطن المصري، بل تزيد عليه كثيرًا؟ إذًا لم يفدنا سير الفرارات الكهربائية في شوارع القاهرة والإسكندرية، ولا الانتظام الذي نشاهده في ذلك القطر إذا كان هذا الانتظام وقع بهذا الثمن الهائل!

رابعًا ـ لا يمكن أن تقاس الشام بمصر، لا في قديم ولا في حديث، في باب الثروة. فلا يكفي الشام أن يأتيها اللورد فلان أو المستر فلان ليبلغ بها تلك الدرجة العليا بمجرّد سداد رأيه، وسعة علمه، فإنَّ دَخْل حكومة مصر هو نحو ١٥ مليون ليرة إنكليزية، وهي، باستغنائها عن جيش مهمّ وعن استخدام أسطول، تقدر أن تصرفها كلّها في إدارة داخليتها. ثمَّ إنّها كانت قد وفّرت من المال المسمّى بالاحتياطي نحو ٣٠ مليون ليرة إنكليزية، فصرفتها أيضًا في الإصلاحات. فلذلك لم يكن يكفي لمصر اللورد كرومر لولا وجود اللورد «نيل» بجانبه! ولو كان كلّ بلد يحتلّه

الأجنبي يصير عامرًا وينقلب حدائق وأعنابًا لَلزم أن تكون قبرص مثل مصر، والحال أنها أدنى درجة في العمران من سورية، بل من أدنى بقاع سورية.

خامسًا - إذا لحظنا تقدّم المحاصيل في برّ الشام في هذه السنين الأخيرة، والارتقاء المدهش الذي حصل في أثمان الأراضي بحيث إنَّ المكان الذي كان يساوي منذ ٢٠ سنة نحو ٢٠ ليرة صار يساوي اليوم ٥٠٠ ليرة، وأحيانًا ١٠٠٠ ليرة و٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ آلاف ليرة في بعض الأصقاع المجاورة للأبنية، وإذا نظرنا إلى كون هذا الارتقاء عامًّا لم ينفرد به بلد عن بلد، بل هو من حدود مصر إلى حدود أطنة، ومن البحر الملح[1] إلى حدود تدمر على وتيرة واحدة، علمنا الظلم الفاحش الذي يقع فيه القائلون بأنَّ البلاد تسير إلى الوراء، أو أنها لم تتقدّم إلاّ تقدّمًا بطيئًا. وممّا لا جدال فيه أنَّ سكّة حديد الحجاز وحدها زادت في أثمان الأراضي بما قيمته نحو ١٢ مليون ليرة سواء في سورية وفلسطين أو في الحجاز.

سادسًا - نعود فنقول إنّنا بدون إنكار شيء من حسن إدارة الإنكليز الذين هم أرقى أمّة مستعمرة، لا نسلّم بكون مصر لم تكن حافلة بالعمران إلاّ في أثناء الاحتلال؛ فقد كان العمران زاخرًا في مصر منذ آلاف من السنين، ولمّا دخل عمرو بن العاص مصر كان خراجها اثني عشر ألف دينار. وممّا ورد في التواريخ، والآثار الباقية تؤيّد صحّته، أنَّ بعض فراعنة مصر جبى خراج مصر اثنين وسبعين ألف ألف دينار (أي نحو ٣٠ مليون ليرة)، وأنَّ من عمارته أنه أرسل ويبة (الويبة ستّة أمداد) قمح إلى أسفل الأرض إلى الصعيد في وقت تنظيف الأرض والترع من العمارة، فلم يوجد لها أرض فارغة تُزرع فيها. وذُكر أنه كان عند تناهي العمارة يرسل بأربع ويبات برسيم إلى الصميد وإلى أسفل الأرض، وإلى أيّ كورة، فإن وجد لها موضعًا خاليًا فَزُرعت، ضرب عنق صاحب الكورة! وقال عمرو بن العاص للمقوقس: أنتَ وُلِّيت مصر، فبمَ تكون عمارتها؟ فقال: بخصال أن تحفر خلجانها وتسدّ جسورها وترعها، ولا يؤخذ خراجها إلاّ من غلّتها، ولا يقبل

(١) تسمية للبحر الميّت، لارتفاع نسبة الملح فيه.

مطل[1] أهله، ويوفي لهم بالشروط ويدرّ الأرزاق على العمّال لئلا يرتشوا، ويرتفع عن أهله المعاون والهدايا ليكون قوّة بهم، فبذلك تعمر خراجها (انتهى). قال ابن وصيف شاه: وكان منقاوس قسّم خراج البلاد أرباعًا، فربع للملك خاصّة يعمل فيه ما يريد، وربع ينفق في مصالح الأرض وما تحتاج إليه من عمل الجسور وحفر الخلج وتقوية أهلها على العمارة، وربع يُدفن لحادثة تحدث ونازلة تنزل، وربع للجند. وكان خراج البلد ذلك الوقت مائة ألف ألف وثلاثة آلاف دينار، ويُقال إنَّ كلّ دينار عشرة مثاقيل من مثاقيلنا الإسلامية، قالوا: وارتفع مال البلد على يد ندارس مائة ألف ألف دينار. وفي أيام كلكن بن خربتا بن ماليق بن ندارس مائة ألف ألف دينار وبضعة عشر ألف ألف دينار. وكان فرعون الأول يجبيها تسعين ألف ألف دينار، يخرج من ذلك عشرة آلاف ألف دينار لمصالح البلد، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح الناس من أولاد الملوك وأهل التعفّف، وعشرة آلاف ألف دينار لأولياء الأمر والجند والكتّاب، وعشرة آلاف ألف دينار لمصالح فرعون، ويكنزون لفرعون خمسين ألف ألف دينار. وبلغ خراج مصر في أيام الريَّان بن الوليد، وهو فرعون يوسف عليه السلام، سبعة وتسعين ألف ألف دينار، فأحبّ أن يتمّه مائة ألف ألف دينار، فأمر بوجوه العمارات وإصلاح جسور البلد والزيادة في استنباط الأرض حتّى بلغ ذلك وزاد عليه. ووُجِدَ في كتاب قبطي باللغة الصعيدية ونُقل إلى العربية، أنَّ مبلغ ما كان يُستخرج لفرعون مصر بحقّ الخراج الذي يوجد وسائر وجوه الجبايات لسنة كاملة على العدل والإنصاف والرسوم الجارية، من غير اضطهاد ولا مناقشة على عظيم فضل، كان في يد المؤدّي لرسمه، وبعد وضع ما يجب وضعه لحوادث الزمان (المعبّر عنه في أيامنا هذه بالاحتياطي) رفقًا بالمعاملين وتقوية لهم من العين أربعة وعشرين ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن جهات مصر، وذلك ما يصرف في عمارة البلاد لحفر الخلج وإتقان الجسور وسدّ الترع وإصلاح السبل، ثمَّ في تقوية مَن يحتاج التقوية من غير رجوع عليه بها لإقامة

---

(1) هذر.

العوامل والتوسعة في البذار وغير ذلك، وثمن الآلات وأجرة مَن يُستعان به من الأجراء لحمل الأصناف وسائر نفقات تطريق أراضيهم من العين ثمانمائة ألف دينار، ولِما يُصرف في أرزاق الأولياء الموسومين بالسلاح وحَمَلَته والغلمان وأشياعهم مع ألف كاتب موسومين بالدواوين، سوى أتباعهم من الخزان ومَن يجري مجراهم، وعدّتهم مائة ألف وأحد عشر ألف رجل من العين ثمانية آلاف ألف دينار، ولِما يصرف في الأرامل والأيتام فرضًا لهم من بيت المال، وإن كانوا غير محتاجين إليه حتّى لا تخلو آمالهم من برّ، يصل إليهم أربعمائة ألف دينار، ولِما يُصرف في كهنة برابيهم وأئمّتهم وسائر بيوت صلواتهم من العين مائة ألف دينار، ولِما يصرف في الصدقات مائة ألف دينار، ويُحصَّل بعد ذلك ما يتسلّمه فرعون في بيوت أمواله عدّةً لنوائب الدهر وحادثات الزمان من العين أربعة عشر ألف ألف دينار وستّمائة ألف دينار.

وكان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بن الخطّاب، رضي الله عنهما، بالجزية بعد حبس ما كان يحتاج إليه. وكانت فريضة مصر لحفر خلجها وإقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشرين ألف رجل، معهم الطور[1] والمساحي[2] والأداة، يعتقبون ذلك، لا يدعون ذلك صيفًا ولا شتاءً.

وممّا يُروى من النكات عن ثروة مصر، أنه لمّا ذهب المأمون العبّاسي إلى مصر سار في قراها، وكان يبني له في كلّ قرية دكة يضرب عليه سرادقه والعساكر من حوله، وكان يقيم بالقرية يومًا وليلة. فمرّ بقرية يقال لها «طاء النمل»، فلم يدخلها لحقارتها، فلمّا تجاوزها خرجت إليه عجوز تُعرف بمارية القبطية، صاحبة القرية، وهي تصيح، فظنّها المأمون مستغيثة متظلّمة فوقف لها، وكان لا يمشي أبدًا إلاّ والتراجمة بين يديه، فذكروا له أنَّ القبطية قالت: «يا أمير المؤمنين، نزلتَ في كلّ ضيعة وتجاوزتَ ضيعتي، والقبط يعيّروني بذلك. وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرّفني

(١) وتصحّ بفتح الطاء وضمّها، وهي ما كان على حدّ الشيء، وقيل بحذائه. وقد ذُكر هذا الاسم أيضًا كاسم لجبل قرب أيْلَة ويُضاف إلى سيناء.

(٢) مَسَاحي، جمع لمَسْحَاء، مذكّرها أَمْسَح، وهي الأرض المستوية ذات حصًى صغار لا نبات فيها (عن ابن سيده).

بحلوله في ضيعتي ليكون لي الشرف ولعقبي، ولا تشمت بي الأعداء»، وبكت بكاءً كثيرًا. فرقّ لها المأمون وثنى عنان فرسه إليها ونزل، فجاء ولدها إلى صاحب المطبخ وسأله عمّا يحتاج إليه من كلّ الأصناف، فأحضر ذلك إليه بزيادة، وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه العبّاس وأولاد أخيه الواثق والمتوكّل ويحيى بن أكثم والقاضي أحمد بن داود، فأحضرت لكلّ واحد منهم ما يخصّه على انفرادة ولم تكلّ أحدًا منهم، ولا من القوّاد، إلى غيره. ولمّا عزم المأمون على الرحيل، حضرتْ إليه ومعها عشر وصائف، مع كلّ وصيفة طبق، فلمّا عاينها المأمون من بعد قال: قد جاءتكم القبطية بهديّة الريف الكامخ والصحناه والصبر! فلمّا وضعت ذلك بين يديه، إذا في كلّ طبق كيس من ذهب، فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته، فقالت: لا والله، لا أفعل! فتأمّل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كلّه، فقال: هذا، والله، أعجب، ربّما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك! فقالت: يا أمير المؤمنين، لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا. فقال: إنَّ في بعض ما صنعتِ لكفاية وما نحبّ التثقيل عليك، فردّي مالكِ بارك الله فيك. فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين، هذا ـ وأشارت إلى الذهب ـ من هذا (وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض) ثمَّ من عدلك، وعندي من هذا شيء كثير. فأمر به، فأخذ منها وأقطعها عدّة ضياع، وأعطاها من قريتها «طاء النمل» مائتي فدّان بغير خراج.

وبلغت مصر في الدولة الفاطمية مبلغًا من العزّ والقوّة يُحار له العقل، حتّى قيل إنّه لم يطأ الأرض بعد جيش الإسكندر المقدوني أكثر عددًا من جيوش المعزّ الفاطمي! وذكر بعض المؤرّخين أنه لمّا خرج العزيز بن المعزّ إلى الشام، كان حِمْل خزانة الخاص عشرين ألف جمل، خارجًا عن خزائن القوّاد وأكابر الدولة. ولا يُنكر أنَّ الجباية في مصر لم تبلغ في الإسلام ما بلغته في أيام الفراعنة، بل كانت ألف ألف دينار و١٤ ألف ألف دينار، ثمَّ انحطّت إلى ٤ و٥ آلاف ألف دينار، وذلك بتقلّص العمران وتوالي الحروب والنوائب، وهي عين الحروب التي كانت سبب محنة الدولة العثمانية وغلّت يدها عن إصلاح بلادها. وقال المقريزي إنَّ سبب

اتّضاع[1] خراج مصر بعدما بلغ مع الروم في آخر سنة ملكوا قبل فتح مصر ٢٠ ألف ألف دينار أنَّ الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق في كلف عمارة الأرض، فإنّها تحتاج أن يُنفق عليها ما بين ربع متحصّلها إلى ثلثه، وإنّه لا يتمّ خراجها حتّى يكون فيها أربعمائة ألف وثمانون ألف حرّاث يلزمون العمل فيها دائمًا.

وجبى عمرو بن العاص من الإسكندرية وحدها ستّمائة ألف دينار لأنه كان بها ٣٠٠ ألف من أهل الذمّة، فجعل على كلّ منهم دينارين دينارين. وقد اتّفق المؤرّخون على أنَّ مصر هي كنانة الله في أرضه، وكرّر ابن خلدون مرارًا أنَّ العمران تناقص من كلّ المشرق إلاّ من مصر، وعليه يمكننا أن نقول إنَّ الإنكليز، وإن كانوا مبرزين في حلبة الإدارة، فربّما لم يكونوا بلغوا بمصر الغاية التي بلغتها مصر في القرون الأولى، وإنَّ ليس لأحد فضل على مصر بعد الله تعالى سوى هذا النيل المبارك. وإنَّ مصرًا معروفة بخاصّة الثروة والغنى وطاعة أهلها للملوك منذ دحى[2] الله هذه الأرض، كما أنَّ الشام معروفة بالنجدة والعقل مع حبّ الفتنة، حتّى بالغ بعضهم فقالوا: سُئل كعب الأحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكّانها فقال: إنَّ الله لمّا خلق الأشياء جعل كلّ شيء لشيء، فقال العقل: أنا لاحق بالشام! فقالت الفتنة: وأنا معك. وقال الخصب: أنا لاحق بمصر! فقال الذلّ: وأنا معك. وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية! فقالت الصحّة: وأنا معك. ومراده بالذلّ في مصر ما ركب في طباع أهلها من الدعة وطاعة الأمراء.

فأمّا المفسدون، فيخيِّلون لأهل الشام أنه لو صارت بلادهم إلى إدارة أوربية، لم تكن تدرّ فقط لبنًا وعسلاً، بل كانت تدرّ فضّة وذهبًا! والحقيقة أنها لو تسلّمتها إدارة أوربية لَما درّت على أهلها من الفضّة سوى فضّ قوّتهم، ومن الذهب سوى ذهاب عزّهم، وأنها كانت تصير لقحة درّ للأجانب يحلبونها لأنفسهم، ويردّون أهلها غرباء في نفس أرضهم، ويزاحمونهم في كلّ مرفق، جُلَّ أو دقَّ؛ وإنّهم

(١) ضياع.
(٢) بَسَطَ.

ليزاحمونهم الآن وهم ليس لهم من الأمر شيء، فكيف إن صاروا أصحاب الشأن لا سمح الله؟! ثمَّ إنَّ من مزايا مصاحبة الأتراك أنهم لم يكوّنوا أمّة متجرة مولعة بالأخذ والعطاء، فكان لأهل سورية معهم الحرّية التامّة وخلوّ الميدان لأجل الكسب والربح، بدون مراقب ولا مزاحم، ولم يكن للأتراك فيها سوى الولاية والقضاء في المراكز الكبرى، وانتدح لهذه الأمّة السورية، سلالة العرب النجباء والفينيقيين العظماء، أن تنمو وتزداد وتكون سيِّدة في بلادها، فأمّا لو دخلت سورية تحت حكم أجنبي، فإنّه لا يكون فقط للأجانب الولاية والقضاء والجيش والسيف والقلم، بل تكون لهم التجارة والصناعة والزراعة، ولا يمضي وقت طويل حتّى يصير أهل سورية خولاً لهم وهم في وسط بلادهم، وحتّى يندموا على فارط تهوّرهم وسابق غرورهم، ويبكوا على حكم الأتراك الحالي، ويلعنوا أولئك الدعاة الذين كانوا السبب في سقوطهم.

وسيقول المغالطون: ومَن قال لك إنّنا نحن نبغي الأجانب في بلادنا؟ أفلم ترَ أنَّ المؤتمر العربي في باريز قرّر مناهضة الاحتلال، وأننا نحن أهل سورية لا نريد الأوربيين ولا الأتراك، وإنّما نريد أن نكون حاكمين على بلادنا بأنفسنا؟! قلنا: وهكذا كان يقول عرابي وجماعته في مصر، نحن نريد تحرير مصر من حكم الترك والجركس وأن تكون مصر لأهلها، وكذلك نقاوم كلّ سلطة أجنبية. وكان عند عرابي لمّا قام يقول هذا القول ملك مصر وخزائنها وملايينها[1] وجيشها، وكان أعزّ قبيلاً من اللجنة «العليا»، وكان مركزه دواوين مصر وقصورها، لا قهوة «السبلانددبار»! فهل تمَّ له ما منّى به نفسه هو وحزبه، أم كانت النتيجة أنَّ مصر خرجت من حكم الترك والجركس، ومن حكم العرب والقبط معًا؟!

إنَّ قول بعض الطلبة في باريز إنّنا قرّرنا مناهضة الاحتلال، وإن كان جميلاً في ذاته، وكان بعضهم صادقًا في دعواه، فلا يمنع أساطيل الأجانب أن تُنزل العساكر في سواحل الشام عندما ترى الفتنة في البلد والأهالي على دولتهم، ولو احتجّ عليها

---

(١) وارداتها.

المؤتمر العربي نفسه، وأكّدت احتجاجه اللجنة العليا بعينها! ونخشى أن نرى أنفس الذين قرّروا المناهضة المذكورة مُهطِعين[1] يومئذٍ إلى البحر، يرحّبون بالعساكر المحتلّة الآتية، بزعمهم، بالحضارة والمدنية، وبالعدل والإنسانية، وتنسخ يومئذٍ مدافع الأسطول المادّة المذكورة من بروغرام المؤتمر العربي (لا أرانا الله ذلك اليوم) ويدافع عن البلاد الأتراك، والذين قالوا عنهم إنّهم حزب الأتراك من العرب ورموهم بالخيانة؛ أولئك الذين عرفوا مذاق علوّ الهمّة وفهموا معنى الوطنية والاستقلال ولم يسلوا أنفسهم بالأقاويل الفارغة، وبالإصلاحات التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.

ومن المبادئ المؤلمة التي زرعوها في هذه الملّة، وهذا الوطن، مسئلة المهاجرين التي كانت من جملة أعراض المرض الاجتماعي الذي ظهر في جسم هذه الأمّة؛ فقد ذكروا في نشرتهم الباريزية أنَّ من مواضيع المؤتمر العربي مسئلة المهاجرين من سورية وإلى سورية؛ فأمّا من سورية، فإنّه من ألزم الأمور حقًّا تفكُّر المفكّرين بوضع حدّ لهذه المهاجرة التي كادت تخلي البلاد من السكّان، والتي تكاد تحرمها الطبقة العاملة من أهلها، وتحرم الدولة الأموال والرجال، وكان على محبّي الوطن أن يطالبوا الدولة بما شاءوا من الأعمال التي يُرجى بها وقف هذا السيل. فأمّا المهاجرة إلى سورية، فكنّا نظنّ أنهم، نظرًا لخلوّ البلاد واتّساع الأرض وقلّة النفوس، يطالبون الحكومة بإرسال قسم كبير من مهاجري الروملي إليها حبًّا بعمارة الخالي منها، ونظرًا لِما يقال دائمًا من أنَّ سورية كانت قائمة ببضعة عشر مليونًا من الخلق، فلمّا أديل[2] للأتراك خرّبوها، وصار أكثرها قفارًا وصحارى، فما كان أجدرنا نحن اليوم، وقد نهضنا لأجل إصلاح بلادنا، بأن نسعى في زيادة عدد الساكن[3] والاستظهار على الأرض بوفرة الحارث والعامل، لا سيّما وأنَّ الدولة قد نقلت إلى سورية طوائف من الجركس والشاشان والبوشناق وأهل كريد ومن

(١) م. مُهطع، من ينظر في ذلٍّ وخضوع لا يُقلع بصره.

(٢) جُعِلَت الكرَّة لهم عليه، أي تداولوا حكمها. (المحقّق)

(٣) السكّان.

المغاربة، فلم يكن من وجودهم في بلادنا سوى زيادة الخَيْر والمير[1]، وإحياء الأراضي الموات، وإيناس القفار الموحشة! وقد نزلت دمشق أصناف عديدة من المهاجرين، وعمرت بهم حارة كبيرة في الصالحية، فهل ترتّب على مجيئهم شيء من الضرر في دين أو في دنيا، أم كان ذلك من جملة أسباب العمارة؟ وعمَّر الجراكسة قسمًا من قضاء القنيطرة، وزاد بهم ارتفاعه وتوفّرت غلّته. وكذلك كانت عمان قد خربت من قرون عديدة وصار واديها مفترسًا وعشًّا لأهل الدعارة، فلمّا نزلها الجركس صيّروها قصبة كبيرة وعمّروا قرى عديدة في جوارها، فأمّنت السوابل[2] وازداد عمران البلقاء الخصيبة، ورغبت البوادي في الحضارة والزراعة، وحذا الأهالي حذو المهاجرين في الشغل وتركوا البطالة، فطبّقوا جانبًا كبيرًا من الأرض بالعمل، وانتشر المهاجرون في جوار دمشق وأطراف الغوطة وعمّروا قرى من حمص وحلب وحماه وفلسطين، ونزل طائفة من الجركس في ضواحي طبرية، من عمل الأردن. وأمّا المغاربة، فعمّروا قرى من الغوطة ومن طبرية ومن غور الحولة ومن حوران ومن ساحل عكّا، وازداد بهم عدد أهل دمشق وكثير من مدن سورية. وبالإجمال، فإنَّ مجيء المهاجرين إلى بلادنا هو من أوثق أسباب عمرانها وأنجع وسائل إيطانها، وإن قيل إنّهم يأخذون جانبًا من الأراضي التي كان يمكن أن يحرثها الأهالي الأصليون، فلعمري مهما أخذوا من الأراضي الخالية فلن تضيق الأرض على الأهالي الأصليين بما رحبت، بل هي بقدر كثرة الساكن تزداد ريعًا وتغلو ثمنًا، وبجيرانها تغلو الديار وترخص، ولكن من جملة عوارض المرض الذي طرأ على أرواحنا هذا العام المشؤوم، ونوبات هذه الحمّى التي وفدت على أخلاقنا على أثر انكسارنا في الحرب البلقانية الأخيرة، أنْ كان أول شيء فكّروا فيه عندما بلغتهم المصائب المحرقة للأكباد التي حلّت بإخواننا مسلمي الروملي، أنَّ الدولة لا بدّ وأن تضطرّ إلى نقل جانب منهم إلى أطراف

---

(1) لا عاجل ولا آجل.

(2) السُّبُل.

الشام، فتحفّزوا سلفًا للاعتراض على ذلك ولردّهم منها، ودار الكلام فيما بينهم في هذا الأمر، وشرعوا يدوكون[1] فيه كأنه من المسائل المجحفة بحقوق الوطن خاصّة، والعرب عامّة. ولمّا اجتمع مؤتمرهم هذا في باريز، طرحوا هذه المسئلة في المذاكرة، وأنكروا قبول المهاجرين في سورية إنكارًا مطلقًا، وقام أحد عقلاء المسيحيين فأبدى مخالفته لرأيهم هذا بحجّة أنَّ البلاد محتاجة إلى السكّان، فلم يستمعوا له ونضح إناؤهم بما فيه من الرأفة والرحمة، ومن الاعتدال والحكمة... وغلب رأي أكثرهم على رأي أقلّهم، وهو منع مَن يقصد أكناف سورية من مهاجري الروملي، وكلّ مهاجر غريب عنها، ولو كان في ذلك ما فيه من مخالفة الشرع الإسلامي، بل ومخالفة الشرع الإنساني، بل مدابرة مبادئ الاقتصاد السياسي التي يكادون يجعلونها لأنفسهم شرعًا ويتّخذونها صلاةً وصيامًا ونسكًا ومُحيى ومماتًا، ولو فقهوا لعلموا أنهم لو عملوا بمبادئ القرآن وحدها لكانوا أول الاقتصاديين السياسيين وأغنى الأغنياء، ولرأوا أنَّ الأمّة التي لا تجمعها مثل تلك الرابطة القويّة، ولا تنظّمها هاتيك الإخوة التي لا انفصام لعروتها، توشك أن تتخاذل أعضاؤها وتتفكّك أجزاؤها وتتبع خسارة دينها بخسارة دنياها، وتعيش في أفقر الفقر وأذلّ الذلّ ﴿خسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبيّن﴾، وأنه لم يكن القرآن سببًا لشقاء هذه الأمّة، بل إنّما كان السبب في شقائها هو الصدود عنه والاكتفاء منه بمجرّد الحفظ دون العمل. إلاّ وأنه لم يقع في خاطر الدولة أن تأتي بمهاجري الروملي إلى برّ الشام لأنَّ عندها من الأراضي الخالية والسهول التي أكملت تجفيفها في الأناضول ما يقوم بأضعاف أضعاف أولئك المهاجرين، وهي الآن تفكّر في وضع طائفة كبيرة منهم في ضواحي الأستانة نفسها، وفي ولاية أدرنة بعينها، فأما لو خطر في بال الدولة أن تنقل إلى سورية بعض أولئك المساكين الذين ساقهم نحس الطالع أن يكونوا من هذه الأمّة الغافلة، الجاهلة بحقيقة مصالحها، إلى أطراف الشام وأن تستحي بقيّة سيوف البلغار والصرب واليونان بإقطاعهم بعض

---

(١) أي يخوضون ويموجون ويختلفون فيه. (المحقّق)

مهامة الشامات التي ليس فيها ساكن ولا أنيس إلاّ اليعافير[١]، وإلاّ العِيْس[٢]، فأي ضرر في ذلك على أهالي سورية؟ وأية غضاضة تلحقهم من هذا الأمر حتّى يقوم بعض أولئك الذين انقلبت قلوبهم كالحجارة، أو أشدّ قسوة، فيقولوا: غدًا يندفق على الدولة سيل مهاجري الروملي فتسوق إلينا منهم ألوفًا يأتوننا بشقائهم؟! نعم، لو كان أولئك المهاجرون أرمنًا كما هاجر منهم ألوف إلى حلب الشهباء، لم يكونوا ممّن يأتون سورية بشقائهم، ولا كانت ثقلت وطأتهم على أحد من هؤلاء بسبب نعمة كونهم نصارى! أو لو كان المهاجرون إلى بلادنا من السادة الأوربيين، لَما توقّف أحد عن القول بأنَّ هذه منّة من جلائل المنن التي أسبغها الله على عباده أهل سورية بأن جعل بين ظهرانيهم مَن يعلّمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم ويلقّح بلادهم بمصل الرقيّ الحقيقي، ولو كانت الحقيقة أنه ما يجيء إلى بلادنا إلاّ ليزاحم أهلها على خيراتها ويضع حجر أساس عبوديتهم بيده! وتصوّر أيها القارئ رجلاً عثمانيًّا، بل رجلاً يزعم كونه مسلمًا، بل رجلاً يزعم كونه إنسانًا، يسمع بخبر أناس كانوا وادعين في أوطانهم، ظانّين بأنهم، سواء انتصرت الدولة العثمانية أم انكسرت، فلا خوف عليهم لأنهم عُزَّل من السلاح، قارّون في بيوتهم، فلمّا تقهقر الجيش العثماني بسوء إدارة الوزارة الائتلافية، دخل عليهم أولئك الوحوش البلقانيون الذين لا يشبهون بني آدم إلاّ في الصورة فقط، فذبحوا شبّانهم ذبح الشياه، وخضّبوا شيب الشيوخ بدمّ أفلاذ أكبادهم، وفسقوا بعقائل الصون وكرائم الستر اللائي كنّ لا يرين الشمس إلاّ من كوى المقاصير بحضور بعولتهن وآبائهن وإخوانهن، وأردفوا هذه المعرّات التي الموت من دونها بقتل رجال أولئك المصونات، وسبوا البنات والأطفال، وبقروا بطون الحوامل، وتقاسموا أعراض مسلمي الروملي كما تقاسموا أموالهم وعروضهم، وأحرقوا مساكن المسلمين، وربّما جمعوهم إلى المساجد وأحرقوها بهم وأحرقوهم بها، ولم يدعوا فادحة ولا فظيعة إلاّ وقد ارتكبوها فيهم، وقلبوا مساجدهم كنائس وحملوهم على تبديل دينهم بالسيف

(١) مفردها يُعفور، وهو ظبيٌ بلون التراب، وقيل أيضًا يتوس الضباء.
(٢) الإبل الأبيض، يخالط بياضها شقرة، أو ظلمة خفيّة. (المحقّق)

حتّى نصّروا منهم بهذه الصورة مئات الألوف، وتصوّر ذلك الرجل الذي يدّعي أنه مسلم، بل لا يكثر عليه أن يمنح الإسلام مَن يشاء ويمنع الإسلام مَن يشاء، يقول: لو جاءنا نفر من هؤلاء المنكوبين إلى سورية لَما قبلناهم بين ظهرانينا ولا يعنينا من أمرهم شيء، وسيّان عندنا هتك البلغاري أعراضهم أم احترمها، ولا فرق عندنا بين أن يصيروا نصارى قسرًا أم يبقوا مسلمين. وبالاختصار، فإنّنا لا نريد أن نرى أحدًا من هؤلاء المهاجرين في بلادنا مهما بلغ بهم البؤس والشقاء، لأننا لا نريد أن نشاركهم بشيء من آلامهم حتّى، ولا نريد أن نظهر أدنى توجّع لأحوالهم لئلا يرمينا بعض متعصّبي الإفرنج، أو متعصّبي النصارى على الإطلاق، بتهمة التعصّب الإسلامي الذي أول علاماته عندهم أن يحزن المسلم لمصائب المسلمين، أو أن يستثقل الذلّ للأجنبي، فكلّ مَن كان عنده مثل هذا الشعور من المسلمين دعوه متعصّبًا وجعلوه عرضة مطاعنهم[1] وشتائمهم، وأعطوه لقب "مفرِّق".

والحقيقة أنه لا يوجد مسيحي في الدنيا، شرقيًّا كان أو غربيًّا، إلاّ وهو في نفسه يعلم أنَّ جميع ما أحلّه النصارى بمسلمي البلقان هو ممّا لا تحتمله النفوس البشرية. وأنَّ كلّ مسلم يسايرهم بعدم الانتصار للمنكوبين والتأثّر من أخبارهم، وبعدم الاحتجاج على ظالميهم بسيف أم بقلم، فإنّه في نظرهم ساقط المروءة والفتوّة، معدود من سفلة الهيئة الاجتماعية، ولو تخيّل نفسه راقيًا، ولقّبوه هم متمدّنًا.

وممّا يؤسَف نقله ويجرح في السمعة أثره، ما بلغنا من كون بعض المهاجرين الذين ألقوا بأنفسهم في البواخر لا يلوون على شيء، طالبين بلاد الإسلام، مرّوا بسواحل الشام وهم يتضوّرون جوعًا لعدم ملكهم ما يمسك رمقهم، فلمّا نزلوا إلى البرّ اعترضوا على نزولهم، فانصرفوا وهم في البواخر عيال[2] على مَن هو مسافر فيها من الإفرنج الذين لم يتركوهم يموتون جوعًا.

انظر إلى هذا وإلى مثله من آثار هذه النزعة المؤلمة التي هي من أعظم علامات

---

(١) مفردها المِطْعَن والمِطعَان، الكثير الطعن للعدوّ. (المحقّق)
(٢) بمعنى "عالة".

الانفكاك والسقوط، وقابلْه بما فعله كبار المصريين وصغارهم مع مسلمي الروملي الذين ليسوا بأقرب إلى مصر ممّا هم إلى الشام، وما نقلوه من مهاجريهم ألوفًا مؤلّفة من سلانيك ومن قوالة إلى إزمير وإلى مرسين وإلى الإسكندرية، وما أمسكوه من أرماقهم وأنعشوه من حشاشاتهم وجبروه من خواطرهم وكفكفوه بجميل الصنع من دموعهم، وما نالوه بذلك من جمال الأحدوثة في الشرق والغرب، وما كسبوه من عظيم الحرمة عند الوطني والأجنبي، وعند ذلك تَعْلَمْ ضرر تلك الفلسفة الكاذبة التي يدّعيها بعض أدباء السوريين ويحبّون أن يعملوا بها وأن يحملوا سائر وطنهم عليها. كنّا مرّةً نحادث بعض أولئك المرضى في عقولهم، فقلنا له: أفلا ترون قبول المهاجرين موافقًا لمصلحة البلاد من حيث إنّه يزيد عدد الساكن ويضاعف سواد العامل؟ فأجابنا: كلاّ، فإنّنا لا نحبّ أن يكون بيننا غرباء، ونريد أن تبقى البلاد لأهلها. فقلنا له: فما قولك بمهاجري المغاربة، وهم عرب مثلنا؟ فقال: تلك مسئلة فيها نظر. ثمَّ خاف أن تقوى حجّتي عليه من جهة مناقضة قوله لدعوى العربية والعرب، فعاد قائلاً: أمّا هؤلاء، فنقبلهم عندنا لدى الضرورة، على أننا اضطررنا أن نصرّح له حينئذٍ بأنَّ المهاجرين من أيّ قبيل كانوا، إذا وقع عليهم حيف اضطرّهم إلى الجلاء إلى بلاد الإسلام ليكونوا فيها آمنين على دينهم وعرضهم ومالهم، فإنّهم يقدرون أن يقدموا علينا، وإنّهم يجيئون منّا أهلاً ويطاؤن[1] من بلادنا سهلاً، وإنّهم هم عندنا في بلادهم وليسوا بغرباء، والمسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على مَن سواهم ويسعى بذمّتهم أدناهم، وإنَّ البلاد هي للإمام أمير المؤمنين، وإنَّ ذلك سيكون كذلك رغم أنف ذلك المخاطِب وأنوف أمثاله ممّن هم قائمون بهذه الفلسفات الجديدة التي هي مشتقّة كلّها من فلسفة إيطاء بلادنا للأجنبي لا غير، وإن كانت تظهر لنا بأعراض مختلفة.

على أنَّ هذا وأمثاله كاذبون في قوله إنَّ مهاجري المغاربة عندهم مقبولون، وإنّهم لا يثقلون على طباعهم؛ فإنَّ كلّ مغربي يخرج من بلاده ليوطّن بلاد الشام

---

(1) يطاون.

ثقيل عليهم إذا أصرّ أن يكون عثمانيًا، حتّى إنَّ أربعمائة رجل من أهل شنقيط، من أطراف السنيقال[1]، وهم أشهر من اشتهر بين العرب بالنسب الصريح واللسان الفصيح، كانوا قدموا على طرابلس الغرب مجاهدين، ثمَّ بعد أن حضروا من حربها عدّة مواطن، جاءوا لقضاء فريضة الحجّ، وقفلوا من الحجاز إلى الشام وعوّلوا على الإقامة بها، فلمّا رآهم بعض أولئك المتفلسفة أنكروا مجيئهم وقبحوا هجرتهم. وبلغنا أنَّ رجلاً عالمًا منهم، يُدعى بالسيِّد الأمين، كان يعظ في جامع بني أميّة بدمشق، ويحثّ الناس على نصرة الدولة العثمانية، دولة الخلافة الوحيدة، فتعرّض بذلك إلى خنق عدّة أشخاص كانوا ينظرون إليه شزرًا ثمَّ شرعوا يسمعونه شتمًا وهجرًا، وهو لم يقل شيئًا سوى الحثّ على طاعة الدولة، ذلك هو الحوب[2] الكبير!

فأنت ترى أنهم ليسوا بأعداء الأتراك فقط، بل أعداء كلّ مَن نصر الدولة من مسلمي الآفاق، حتّى أنهم كانوا يردّون على مسلمي الهند تمسّكهم بالدولة واهتمام المسلمين العثمانيين بأمر مسلمي الهند. ومن جملة ما كتبت بعض جرائدهم المأجورة للأجانب، أنه لو كان لمسلمي الهند قوّة لكانوا قادرين على تحرير أنفسهم، فلا ينبغي أن نقيم لهم وزنًا. فكان عجز مسلمي الهند عن تحرير أنفسهم، أو بعبارة أخرى، عن رفض سلطة الإنكليز، سببًا عندهم في سقوط مسلمي الهند الذين هم من أعظم أركان هذه الأمّة ومن أكبر بناة مجدها، بجانب أولئك المخرّبين من أبنائها؛ وهم الذين وقفوا المواقف الجليلة في عضدها، آسوا الدولة بما يقارب مليون ليرة من الإعانات التي جمعوها، ورفعوا أصواتهم بالاحتجاج على خذلان إنكلترة للدولة العثمانية أولاً وثانيًا، حتّى اضطرّوا ـ ساسة إنكلترة ـ إلى التصريح لأوربا مرارًا بأنهم يقدرون أن يتجاوزوا هذا الحدّ مع الدولة خشية أن يؤسفوا مسلمي الهند. وآخر مرّة نطق المستر أسكويت رئيس نظارة إنكلترة بأنَّ الحكومة الإنكليزية لا تقدر أن تمالئ على تركيا مكارمة لأمّة كبيرة من تبعة إنكلترة لا يروق لها أن ترى الحرمين الشريفين في غير يد الدولة العثمانية.

(١) دولة السنغال.
(٢) الإثم.

فالمستر أسكويت والسير غراي، وغيرهما من أساطين السياسة الإنكليزية، يعرفون تأثير الميل الإسلامي بهم وترجيحه في ميزان سياستهم. وهناك صبية من المتسلّقين على جدران الصحافة في سورية ينكرون تأثير إسلام الهند، ويهزأون بالاعتماد على هذا الأمر، ويظنّون في أنفسهم أنهم عالمون بحقائق الأمور. وذلك نظير إنكار بعض متفلسفة المسلمين للجامعة الإسلامية تزلّفًا للأجانب، وظنًّا بأنَّ ذلك يكسبهم سمعة "راقٍ" و"متمّدن" و"غير متعصّب" عند المسيحيين، حال كون أوربا نفسها تُعلِّم الجامعة الإسلامية حقّ العلم، وحال كون إنكلترة استنجدت أثناء ثورة الهند الكبرى السلطان عبد المجيد العثماني، رحمه الله، لاستعمال نفوذه على مسلمي الهند في جلبهم إلى السكون وتفريقهم عن المجوس، فكان للسلطان عبد المجيد من اليد العاملة في تبريد الهند لإنكلترة ما لا تقدر إنكلترة يومًا أن تجحده. وكذلك في ثورة البوكسر بالصين، لمّا علمت أوربا أنَّ للإسلام فيها اليد الطولى هناك رغبت إلى السلطان السابق عبد الحميد في إنفاذ وفد خاص يخاطب مسلمي الصين باسم الخلافة الإسلامية أن يخلدوا إلى السكون ويكفّوا عن الثورة، فذهب وفد خاص من دار السعادة إلى بكين وطاف في هاتيك الأرجاء وأبلغ المسلمين إرادة السلطان ونجع كلامه فيهم، وليس بين العثمانيين وبين أهل الصين أدنى رابطة سوى أنَّ منهم أمّة عظيمة مسلمة وأنَّ السلطان العثماني هو خليفة الإسلام الحاضر، فهم مرتبطون معه من جهة الإمامة الدينية. فإذا كانت أوربا المسيحية المتمدّنة الراقية تعرف حقّ الجامعة الإسلامية ولا تنكر فائدتها عند مسيس الحاجة، فما بال بعض الشرقيين كلّما تلفّظ خاطب أو كاتب بالجامعة الإسلامية شدّدوا عليه النكير ورموه بالتعصّب واتّهموه بالتفريق وقذفوه بكلّ شنيعة؟! أفذكر ذلك الذاكر الجامعة الإسلامية بمعنى أنه تجب ثورة المسلمين عليهم؟ كلا، فلا يوجد عاقل ولا أديب ولا كيِّس يذهب هذا المذهب أو يرضى بالنفرة بين المسلمين والنصارى، فضلاً عن أن يهيِّج هذا التهييج، ولكن إذا وجد المسلم العثماني دولة مضطرّة إلى معاونة العالم الإسلامي بعد تكالب الكثير من دول أوربا عليها، ونادى المسلمين. بل

وسائر الشرقيين بأن ينضمّوا حول حوض الدولة العثمانية ويذبّوا عنها وينضحوا(١) عن استقلالها لتبقى لهم بقيّة، فأيّ تعصّب وأيّ تفريق يؤخذ من هذا القول؟ وأيّ منصف يسلّم بأنّ مَن يدعو إخوانه لمعاضدته في مواقف حياته ومواطن المناضلة عن خيط رقبته يُعدّ متعصّبًا ومفرّقًا، وأنّ المعترض عليه والطاعن فيه، مما يضيق صدره من دعوته، لا يكون هو المتعصّب الحقيقي، والمفرّق، والمفسِد؟! والذي يريد أن يرى بعينه دعائم الدولة العثمانية منهارة من كلّ جهة ولا يجد لها من الأنس ولا الجنّ داعمًا ولا ممسكًا، فهو يجود على كلّ مَن خذلها من أبنائها بلقب "متنوّر" و"متمدّن" و"متهذّب" وما شبه ذلك، ويرمي مَن قام يناضل عنها المعتدين عليها، ومَن يدعون الغافلين إلى التماسك ببقيّة مجدهم والاحتفاظ بثمالة استقلالهم بكلمات "متعصّب" و"مفسد" و"مفرّق" وهلمّ جرًّا، وكنّا نحبّ من بعض أبناء وطننا ممّن لا يفتأون يعزون إلينا وإلى إخواننا التعصّب والتفريق بين العناصر بمجرّد ذكر الإسلام والمسلمين والخلافة والدين، أن يتكلّموا مع أبناء دينهم من الإفرنج الراقين العالمين المهذّبين المتمدّنين غير المفرّقين، ولا المميّزين بين أصناف العالمين، في إلغاء الدعوة الدينية، والتجانف(٢) عن إدامة تذكار النصرانية، وأن لا يظهر رجال إنكلترة شدّة استمساكهم بالنصرانية، ولا تعلن فرنسا حمايتها دائمًا لنصارى الشرق الذين لا جامعة بينهم وبينها سوى الدين، وأن لا تعلن دول البلقان علينا حرب الصليب قولاً وفعلاً، وأن لا يقول ملك رومانيا، وهو أكثرهم اعتدالاً، إنّه لم يقدر أن يقاوم بلغاريا في أول الحرب مع تركيا، إذ كان ذلك مخالفًا لواجباته تجاه النصرانية، وأن تخفّف الروسية من غلوائها شيئًا في إعلانها علينا الحرب باسم الصليب، وفي سفك دماء البشر، باَسم مَن يقول أتباعه إنّه قد سفك دمه في خلاص البشر، وهو رسول السلام وداعية الإخاء العام، كما لا يخفى، بحيث قال شوقي شاعر الوقت:

يا حامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت علينا باَسمك الآلام

(١) دافعوا.
(٢) العدول.

فمتى قاموا بهذا العمل وأثبتوا أنهم لا يفرّقون بين المسلم والمسيحي، وأنَّ البشر عندهم سواء، وأنهم مقتدون فعلاً بهدى السيِّد المسيح (صلوات الله عليه) الذي لا شكّ أنه غير راضٍ عن شيء ممّا فعله البلقانيون باَسمه مع مسلمي الروملي، ولا يزالون يفعلونه، فعند ذلك يتوفّر لهم حقّ التكلّم بكوننا متعصّبين ومفرّقين وداعين إلى الشقاق؛ فأمّا وأوربا المتمدّنة، التي هي قدوتنا الآن في كلّ عمل، لا تزال رافعة لواء الدين ومتّسمة بسمة التفريق، فكيف يسوّغ لنا أن نسبق أوربا في المدنية والمساواة وهي قدوتنا فيهما؟! لا جرم أنَّ كلامنا في أمر الإسلام ليس فيه شيء من الغرابة ولا من التهوّر، بل هو من قبيل الاقتداء بالمتمدّنين والنسج على منوال الأوربيين، ولعمري أنهم هم يعلمون ذلك حقّ العلم، ولا يخفى عليهم وجه الحقّ ولو ثقل عليهم؛ ولهذا نجد الطعن بنا والتحامل علينا، وما نراه في بعض الصحف السورية المطبوعة في سورية ومصر وأميركا من الشتائم الموجّهة إلينا، والمغامز والمطاعن بحقّنا من أجل هذا الموضوع هو التعصّب بعينه، والظلم بحذافيره، ولا نحمل ذلك من هذه الشرذمة إلاّ على أمر واحد وهو، كأنهم أصبحوا يرجون انهدام بنية الإسلام بتمامها، وقد لاحت لهم بوارق هذا الأمل من خلال غيوم الحوادث الأخيرة؛ فهم يخشون بالكلام في ذلك أن يثيب المسلمون من غفلتهم هذه قبل القضاء الأخير على ملكهم، فتراهم ضائقة صدورهم بأيّ قول رمى إلى تنبيه المسلمين من غفلتهم وإيقاظهم من رقدتهم، متأجّجة صدورهم تلك حقدًا وأحنةً[1] على كلّ مَن جسر أن يدعو إلى هذا الانتباه، ولو لم يكن فيه أدنى مسّ بحقوق النصرانية ولا أقلّ إشارة إلى تنفير المسلمين من المسيحيين، فكأنه يجوز عندهم لأعداء الدولة العليّة الإسلامية الوحيدة أن يستبيحوا أعراض المسلمين ودماء المسلمين وأملاك المسلمين، ويتكالبوا على الدولة مثنى وثلاث ورباع، شاهرين على الإسلام سيوف الاستئصال، وتقف لهم بعض الدول العظام مواقف العضد والمحاماة، وتُقاتِل الإسلام بجنود من الضغط والتضييق لا يقلّ بأسها

---

(1) ضغينة.

عن جنود الحرب والنزال، ولا يجوز لمسلم يجول دم الآباء في عروقه [أن] يصرخ لمصائب قومه، ولا أن يئنّ من الألم لنكبات إخوانه، وإذا تألّم بحركة غير اختيارية لما يلقاه قومه من هذه المظالم والفواحش التي يخل بمثلها تاريخ القرون الوسطى، قام بعض أبناء وطنه يرمونه بكلّ عضيهة[1] ويهيّجون عليه الأحقاد والضغائن، و[قد] لقّبوه بالمتعصّب، ونعتوه بالمارق، وذهبوا إلى الأجانب يقولون لهم: أفما ترون الخطر الواقع عليكم من مقالات فلان وفلان؟ أفلا تقرأون ما يُكتب بحفكم؟ أفلا تنظرون إلى تهييج بعض كتّاب المسلمين لحفائظ المسلمين؟ أفلا تشعرون بحركة الجامعة الإسلامية؟! إلى غير ذلك من الأقوال، مع أنه ليس ثمّة سوى أنين من الألم وصراخ من الظلم، واستطارة من الذبح، واستغاثة برجال الإنسانية الصحيحة، ودعوة إلى التزام جادّة العدل والإنصاف، فإن كان أهل المدنية يطمعون أن يمنعوا الإسلام مجرّد الأنين والحنين ويذكّرونا بقول القائل:

أغار إذا آنّست في الحيّ أنّة حذارًا عليه أن تكون لحبّه

فلقد حجروا واسعًا، وحاولوا مرتقى صعبًا، وأوجدوا هم الاتّحاد الإسلامي من العدم ووضعوا حجر زاويته بأيديهم! فإنّ الاتّحاد الإسلامي إلى يومنا هذا لم يقع في التصوّر، ولا كان إلاّ من قبيل الغول والعنقاء اسمًا بلا مسمّى، يخيّله للأوربيين الرعب، وتمثّله في أذهانهم شدّة الحرص، ويلوح بشبحه فرط الغيرة والغلو في الأثرة! أمّا إذا بقيت أوربا تعامل الإسلام بقاعدة عدم المساواة، وبقي بعض النصارى من أبناء وطننا ينفثون من مكنونات الصدور ما ينفثون، غير مراعين وجه العدل ولا الإنصاف، ولا مقدّرين قدر آلام أبناء وطنهم من المسلمين، ولا متبصّرين في كون أمّة هي ثلاثمائة مليون لا يمكنها أن تموت، فإنّ اتّحاد الإسلام ينتقل حينئذ من الخيال إلى القول، ومن القوّة إلى الفعل، ولا يمكن أن تقوى أوربا على إطفاء نوره، وسدّ فجاجه[2]، بل هو يجد كثيرًا من عناصر أوربا مؤيّدًا وناصرًا، لأنّ في

---

(١) الإفك والبهتان والكلام القبيح.

(٢) الطريق الواسع الواضح بين جبلين.

باطن أوربا فِرَقًا كثيرة نامية، أخصّها الاشتراكية، قد ملّت اعتداء الأوربيين على المسلمين وتجاوزها الحقوق العمومية المتّفق عليها بين الدول وعلمت أنَّ شدّة الضغط تورث الانفجار، فهي تحمل على حكومات أوربا حملات شدادًا تزداد وطأتها مع الأيام. كما أننا قد وجدنا في الأيام الأخيرة تضامنًا عامًّا بدت تباشيره بين جميع الشرقيين؛ فاليابانيون، أبعد الأمم عنّا مكانًا، يحنّون إلى سائر أهل الشرق ويودّون لو تفوز الدولة العثمانية على كلّ مَن ناواها من الإفرنجة والصقالبة. والصينيون يصرّحون بأنهم من أصل واحد هم والأتراك، كما أنَّ المجوس في الهند قد أصبحوا يميلون كلّ الميل إلى مواطنيهم المسلمين، بل إلى الدولة العثمانية التي لا يربطها بهم رابط سياسي ولا ديني، وكلا الفريقين كانا مبتهجين بانتصار اليابان على الروسية! فأنتَ ترى أنه لا يمكن ابتلاع أهل آسية وأهل أفريقية جميعًا مهما بلغ من ضعفهما في العصر الحاضر، وأنه ليس أمام دول أوربا لاتّقاء خطر الاتّحاد الإسلامي، أو الخطر المسمّى عندهم بالخطر الأصفر، سوى الإنصاف في معاملة المسلمين والتوقّف عن قهر الدولة العثمانية وإعناتها[1] والغارة على أملاكها.

وإنّنا لسنا نعجب من كتابات بعض أفراد من نصارى المشرق في نسبة التعصّب إلى مَن لا يريد سوى دفع الظلم عن قومه. ما نعجبه [هو] من بعض أفراد من حزب اللامركزية يقولون إنّهم مسلمون، وكلّما رأوا أحدًا من أبناء هذه الملّة استصرخ هذه الملّة لإغاثة المستضعفين من أبنائها الواقعين في تلك المصائب المحرقة للأكباد، المؤثّرة في الصمّ الصلاد[2]، قاموا عليه يسلقونه بألسنة حداد، ويقولون له: كفاك أيها المفرّق تفريقًا، أفلا علمت أننا نحن تركنا النسبة الدينية؟ أفلا عرفت أننا لا نريد أن تتّخذ غير الجنسية دينًا؟ أفلا وقفت عن ذكر الإسلام والمسلمين؟! إلخ، حتّى أنه روى لنا شاعر من تونس زار المدينة المنوّرة، فنظم فيها قصيدة في الحضرة النبوية ومعاني الزيارة، وأتى بها على ذكر الإسلام والمسلمين بما لا يخرج عن

(١) إيقاعها في شدّة أو إثم (آرامية). (المحقّق)

(٢) الصلب.

الحثّ على الانتباه وتذكّر الأيام السالفة، فعرضها على جريدة في دمشق أصحابها من المسلمين لأجل نشرها، فقالوا له: إنّنا ننشرها لك بشرط أن تحذف منها ذكر الإسلام! والشاعر إلى الآن حيّ يُرزق، وهو من أفاضل الناس وثُقاتهم ومقيم بنفس دمشق.

على أنهم إذا كانوا حقًّا لا يقولون إلاّ بدعوة جنسية ولا تهمّهم الجامعة الإسلامية، بل الجامعة العربية فقط، فما بالهم يتمنّون لو دخل جميع العرب تحت سلطة الأجانب؟ ما بال آحاد منهم هنّأوا مراكش، الدولة العربية الوحيدة، بدخولها تحت حكم فرنسا؟ ما بال بعضهم لا يزالون يسفرون بين إيطاليا وبين عرب بني غازي في أمر إطاعة العرب لإيطاليا؟ ما بال جريدة "الأهرام" اللامركزية هي لسان حال إيطاليا، حتّى إنّ منهم مَن لم يكفه ما يبثّه من السموم في عرب سورية وما يزيّنه لهم من الحكم الأجنبي حتّى صار يقصد إيطاليا من الشام لأجل أن يتبرّع بخدمة الطليان في استمالة عرب طرابلس إليها؟ ما بال حميّة هؤلاء على الجنسية العربية لا تظهر إلاّ عندما يكون العرب بإزاء الترك وحدهم، فإذا صاروا بإزاء أمّة أوربية ارتفعت حينئذٍ الفروق وهوت جميع أفئدة اللامركزيين إلى إعلاقهم حبال تلك الأمّة الأوربية، وإدخالهم في طاعتها، وهنّاؤهم[1] على نعمة استيلائها عليهم وسعادة انقيادهم إليها؟ فإنّ الترك مهما بعدوا عن العرب فليسوا بأبعد عنهم من الأوربيين ولا أشدّ خطرًا منهم. وهناك عذر جديد من فلسفة اللامركزيين يكاد يقيء الإنسان لسماعه، ولا يصدّق صدوره عن قوم زعموا أنهم مطّلعون على أحوال عصرهم ومصرهم، وهو أنهم أبدًا يقولون إنّنا نحن عارفون بكلّ ما يجري على الإسلام من التحامل، غير جاهلين شيئًا ممّا تحاوله النصرانية في شأن الإسلام، لكنّنا لو جئنا تدافع عن الإسلام من جهة الرابطة الدينية لهاج ذلك علينا تعصّب المسيحيين فأضرّوا بنا، وتألّبوا علينا، وأجلبوا وجلبوا الويل والدمار وجرّوا إلينا الاحتلال الأجنبي، وهو مبدأ الهون والصغار؛ فنحن نخاتلهم مخاتلة مَن يعلم

---

(١) هنأوهم.

حقيقة مقاصدهم، ونتزيّا لهم بغير زيّنا الحقيقي، وندعوهم إلى الاجتماع معنا بالاجتماع بالجامعة العربية والنسب القحطاني مداهنة منّا ومصانعة، ونجود عليهم بحقّ المناصفة معنا في أعضاء عدد المجلس العمومي خداعًا لهم عن جرّ الاحتلال الأجنبي، ومراودة لهم عن إثارة فتنة في برّ الشام يكون ضررها أعظم من ضرر التساهل ببعض الحقوق؛ فإنّهم على هذا الشرط يقرّون ويستكنّون ويتركون النزوع إلى أوربا، وبدونه لا نأمن من كيدهم، وإنّما نحن رقباء عليهم لئلاّ ينفردوا بالعمل، إلى غير ذلك من الأقوال التي طالما كرّروها وزادوا عليها ما لا يحسن إيراده بحقّ المسيحيين، أبناء الوطن، الذين يلقونهم بمظاهر الإخاء، ويرمونهم في غيابهم بما لا يرمي به غير الأعداء، والجواب على كلّ ذلك هو هذا:

إنَّ هذه الفلسفة إمّا أن تكون صادقة أو كاذبة، وإنَّ هذه الحركة إمّا أن تكون مناصحة أو مداجاة، فإن كانت هذه الحركة صحيحة على ظاهرها فإنَّ جمهور المسلمين لا يقبلونها أصلاً، ولا يرضون أن يعطوا النصارى نصف المجلس العمومي عندما لا يكون لهم إلاّ حقّ الخمس أو السدس، وهم يعلمون أنَّ أول ضمانة لبقاء الأمن والنظام وحسن المعاشرة في البلاد هو المساواة التامّة بين الطائفتين في الحقوق وإخراج الانتخابات على نسبة العدد. كما أنَّ العقلاء من النصارى لا يطمعون في أكثر من حقوقهم الثابتة.

وإن كانت تلك الحركة رثاءً وخدعة، فإنَّ المسيحيين في بلادنا هم أجلّ وأعقل من أن ينخدعوا بهذه الخزعبلات، وفيهم رجال بلغوا مبالغ الجماعة اللامركزيين في العلم والسياسة، فلن تختفي عليهم هذه الصنعة، ولن يجرّهم هؤلاء إلى ما يعلمونه مخالفًا لمصالحهم.

وإن كان يوجد في أبناء وطننا من المسيحيين مَن يصبو فعلاً إلى دخول دولة أجنبية، فلن يتوقّف عن ذلك برشوة المسلم له بحقّه في المجلس العمومي، بل هناك مَن لو أعطيته المجلس العمومي كلّه ما راق له إلاّ مشاهدة البرطلة حاكمة في سورية.

كما أنَّ منهم مَن هو خير مِن كثير من المسلمين في حبّ الوطن وكراهية التسلّط الأجنبي، ومَن يرضى من المسلمين بالعدل والمساواة ولا يهمّه الاشتراك في النسب القحطاني حتّى يصدق في وطنيته، وحتّى يتمنّى أن تبقى البلاد لأهلها. وسواء كان الشقّ الأول أو الثاني، فالأطفال الصغار يعلمون أنَّ أوربا لا يوقفها عن احتلال بلادنا اتّفاق النصراني مع المسلم، ولا إعطاء النصراني أزيد من حقّه، بل [إنَّ] مسئلة احتلال إحدى الدول للشام هي غير متعلّقة بأهل سورية، فإن قرّ قرار دولي على ذلك، فإنَّ تلك الدولة تقدم بدون انتظار أهل سورية، وتفعل ولو كان النصارى أسبق من المسلمين إلى مقاومتها وحمل السلاح في وجهها. وإن لم تكن السياسة الدولية العامّة تسمح بالتعرّض لسورية، فإنَّ تلك الدولة تلزم احترام سورية ولو لم يأخذ النصارى نصف المجلس العمومي، حتّى ولو لم يعتدهم المسلمون من بني قحطان، بل عدّوهم من سلائل السريان والفينيقيين؛ أفكان في طرابلس الغرب نصارى عندما هاجمتها إيطاليا أم كان اعتداؤها على تلك الولاية بعد أن سمحت لها أوربا بهذه الغارة إتمامًا لمعاهدات سابقات بين الدول؟!

كلّما ذكر لهم ذاكر هذه الحقائق قالوا له: قد عرفنا من أسرار سياسة أوربا في أمر سورية ما لم يعرفه بابك العالي نفسه، ويا ليت شعري ما هي تلك الأسرار؟ وماذا عرف هؤلاء ممّا يعجز عن معرفته أمثال جاويد وطلعت، وغيرهما من دهاة الدنيا، وممّن لا تُخفى عليهم خافية من حركات أوربا؟ ومهما كان هناك من الأسرار، فلا تخرج عن قضيّة اتّفاق أوربا علينا وعدمه، فإن تيسّر بين الدول هذا الاتّفاق ولم يخشين من حرب عمومية تشبّ من وراء تصفية هذه التركة العظيمة عاجلاً أم آجلاً، فإنَّ سورية تصير إلى ما صار إليه غيرها، ولا يدفع هذا الخطب عنّا صدق اسكندر عمون معنا، ولا الشميِّل، مهما كانا صادقين، حتّى ولا جميع إخواننا نصارى الشام مهما صدقوا معنا، وإلاّ ـ وهو الأقرب ـ فإن كانت لقمة سورية صعبة المساغ يخشى منها على السلم العام لئلاّ تكون مبدأ لحرب طاحنة، فلا خوف على سورية من غارة أجنبية، ولا حاجة في رقيّنا وصيانة ذمارنا إلى غير

نشر العلم وإفاضة العدل ومعاملة المسلم للنصراني كما يعامل نفسه، وهذا وحده كافٍ في النصح وبالغ حدّ المصلحة، فأمّا ذلك الخداع البارد فلا معنى له.

ومن المضحك أنه كما ادّعى هؤلاء المسلمون خداع النصارى، فقد كان بعض النصارى يصرّحون أنهم هم أيضًا إنّما يخادعون المسلمين لأجل أن يحدثوا حدثًا بين العرب والترك ويخلصوا من الفريقين معًا! ولا نعلم أية هاتين الشرذمتين كانت أحكم صنعة من الأخرى، لكنّنا نعلم أنَّ كلاًّ من الطائفتين الإسلامية والنصرانية هي أجلّ من أن تختار هذه السياسة العوجاء، وأنَّ مسلمي سورية ونصاراها هم أبناء وطن واحد هو لهم جميعًا في الواقع، لا يعمر إلاّ بالعدل والمساواة، ولا يُوقى خطر الشقاء والهبوط إلاّ بتعزيز الدولة الشرعية، دولة آل عثمان، وبتجنّب الحركات المضرّة والفرفرات الأليمة والفتن المؤدّية إلى سفك الدماء وخراب البيوت. ومَن كان يخاطب أبناء وطنه بغير ما في ضميره فإنّه جدير بأن يسقط من نظرهم ويُتّهم في صدق نيّته.

على أنه لا يُنكر أصلاً أنَّ بعض جرائد إخواننا المسيحيين، سواء في أميركا أو في مصر أو في نفس سورية، قد صارت تصرّح في كتاباتها بأمور لم يتعوّد إلى اليوم مسلمو سورية أن يسمعوها من مسيحي. وبعد أن كانت تقتصر في حملاتها على الدولة وحدها، ويشاركها في ذلك أولئك النفر من المسلمين أنفسهم، عادت تحمل على الإسلام بأجمعه. ورأى أولئك الأغرار من المسلمين أنهم بما فعلوه بحقّ دولتهم وخلافتهم لم يجرّئوا الناس على الدولة والخلافة فقط، بل جرّأوهم على الإسلام كلّه وعلى أنفسهم، وأصبحوا معهم في موقع ضنك، لأنهم إن عادوا عليهم بالمعاتبة أو اللوم قائلين لهم: حقًّا، قد تجاوزتم الحدّ في إهانة دولتنا وإنّنا لسنا لنجاريكم في ذلك إلى تلك الغاية، عرف المتهوّرون من النصارى أن يجاوبوهم: إنّنا لسنا آلة في أيديكم تصرفونها كيف تشاءون[1]، فمتى غضبتم على دولتكم دعوتمونا أن نغضب معكم ونحمل عليها وإيّاكم، ومتى قضيتم بعض وطركم من

(1) تشاوون.

الدولة ورأيتم المصلحة في السكوت جئتم تطالبوننا بما تقضي به مصلحتكم! فإنّنا نحن معاشر النصارى لنا مصالح أيضًا لا بدّ لنا من مراعاتها، وكذلك الحمل على الإسلام بأسره والغمز في كلّ ما يتعلّق بالأمّة الإسلامية، لا حقّ لهؤلاء النفر من مسلمي المؤتمر الباريزي أن يغضبوا منه أو يجدوا شيئًا من ورائه، ومَن خرق ستار حرمته بيده فهو جدير بأن لا يستر عليه غيره، وكذلك متى كان نفر من مسلمي بيروت ومن نصاراها ممّن لا يكاد الواحد منهم يعرف البطن الذي فوق جدّه ينتحلون النسب القحطاني ويعقدون جمعيّة عربية بزعمهم مبدأوها[1] تقديم العربية على الإسلام، وإذا قيل للمسلمين منهم لماذا آثرتم قحطان على عدنان، وكلاهما جدّ القبيلين الكبيرين من العرب، أجابوك: إنّنا لا نريد الانتساب إلى عدنان لكونه جدّ قُريش التي منها النبيّ (ﷺ)، وإنَّ قحطان هو الجدّ الجامع بيننا وبين النصارى، اجتهادًا من هؤلاء العلماء بالتاريخ بأنَّ النصارى الذين في برّ الشام هم من ذرّية قحطان، وذلك لكون غسّان هم من عرب اليمن، وأنَّ غسّانًا كانوا في حوران ولبثوا نصارى إلى ما بعد الإسلام ونسلوا كلّ هذه الأمم، فلا يبقى بعد هذا حقّ لأحد من هؤلاء المسلمين أن يطالب أحدًا من النصارى باحترام الدين الإسلامي لأنهم هم الذين فتحوا باب الجرأة على ما كان إلى اليوم محترمًا مهابًا. ولا عجب إن صارت تُرمى الأوراق المتضمّنة الطعن في الدين الإسلامي في أسواق بيروت بعد أن كانت من قبل تطرح في شوارع مصر فقط. فإنَّ صدور الأمور مؤذنات بإعجازها، ولم ينقدح في خاطر عاقل عارض من شكّ بأنه منذ جارى هؤلاء النفر المسلمون على دولتهم أثناء الحرب، وشرعوا في عقد الاجتماعات في باريز، واجتهدوا في إيجاد شيء يسمّونه بالمسئلة العربية، وحاولوا أن يستعينوا على دولتهم بدول أوربا ويدخلوها بين الدولة وأهالي سورية في قضيّة داخلية صرفة، أنه لا بدّ أن تنتهي المسئلة بتطاول الأجانب ليس على الدولة العثمانية فقط، بل على الدين الإسلامي نفسه؛ فإنَّ الدولة العثمانية والدين الإسلامي هما أمران متلازمان لا يمكن احترام الواحد منهما بدون احترام الآخر، ولا إهانة الواحد دون إهانة

(١) مبدؤها.

الآخر، وما كانت تلك الحركة العربية نزعة قحطانية، بل نزعة شيطانية جاءت بجميع ما يتصوّره العقل من المبادئ المباينة للدين وللمصلحة! فقد روى أناس ثقات عن بعض أولئك القحطانيين أنهم كانوا يعلنون ترجيح العربية على الإسلام، ولو خالف ذلك الشرع الآمر بنبذ العصبيّات وعدم التفضيل إلا بالتقوى. وقد قيل مرّة لمَن يلوّث العمامة منهم: ماذا تقول إذًا في التركي المسلم والعربي المسيحي؟ فقال: إنّني لا أعتقد بإسلام رجل غير عربي. وعند ذلك أمسك السائل عن محاورته لِما وجده عليه من السقوط عن مواقع الحوار بعد هذا الكلام، وهذا كلّه هو من مآثر الحركة اللامركزية التي قام بها أولئك الذين يدعون الإصلاح، والذين نصّبوا أنفسهم لإفادة المسلمين في جرائدهم ومجلاّتهم. ومن الغريب أنَّ رجلاً يجاهر في القول بأنه لا يعتقد بإسلام غير عربي، ورجلاً آخر يشهد عليه بعض أصحابه ومَن هم الآن من حزبه أنه قال: إنَّ كتاب بانتام الإنكليزي في أصول الشرائع أفضل من القرآن، لا يكثر عليهما أن يكفّرا المسلمين ويُخرجا من الإسلام مَن يريدان ويُدخلا فيه مَن يريدان، ومثلهما خلق كثير نجدهم مارقين من الدين مروق السهم من الرمية، مجاهرين في تخطئة المبادئ الإسلامية علنًا، غير راجعين إلى نصاب صدق في الإسلام، ولا في أصل ولا في فصل، ومع ذلك يحكمون بالإسلام لزيد وينفونه عن عمرو، ويسيرون فيه مسير مَن يظنّ الإسلام مُلكًا لهم يتملّك، أو حاجة يضعها الإنسان في جيبه فيمنعها مَن شاء، وما يعلمون أنَّ الإسلام لم يكن مُلكًا لأحد، وأنَّ ليس لمسلم أن ينكر إسلام أحد يقول الشهادتين ويقيم حدود الله وأنَّ البابا نفسه، وهو المسلّط على النصرانية الكاثوليكية، وأصحابه يعتقدون فيه العصمة في الأمور الدينية لم يكن له أن يطرد أحدًا من الدين الكاثوليكي ما دام متمسّكًا به، فكيف جاز لمن يجاهر بمخالفة أحكام دينه من المسلمين أن يتصرّف في الإسلام بالترجيح والتجريح ويتعاور المسلمين، هذا بالإدخال وذاك بالإخراج، وهو أَولى بأن يكون الخارج والمارق، وأجدر بأن يُنسب إليه الكفر والنفاق وعدم إقامة حدود الله؟! ولولا ميلنا إلى طيّ كثير من الفضائح على غرّها

لذكرنا كيف أنَّ كثيرين ممّن يدّعون القطع والوصل في الإسلام رضوا أن يجعلوا أولادهم في مدارس النصارى وأن يشهدوهم صلاة المسيحيين! ولمّا وضعت بعض المدارس الأجنبية في بيروت قاعدة وهي سؤال كلّ طالب داخل فيها كلّ صباح: هل أنت مسيحي؟ وإلزامه الجواب بنعم، بنعمة الله مسيحي، وُجِدَ من هؤلاء مَن رضي بأن يجاوب ولده هذا الجواب، واعتذر بأنه لا يقدر أن يُخرج ولده من المدرسة لهذا السبب حرصًا على تعليمه، مع أنه لا يوجد نصراني واحد، حتّى من رعاعِ الناس، مهما بلغ به الحرص على تعليم ولده يرضى أن يضعه في مدرسة إسلامية [illegible] بشرط أن يصلّي صلاة المسلمين ويجاوب عن نفسه أنه بنعمة الله مسلم

الذين لو عكف ناشرو الإصلاح مئين[1] من السنين على قراءة أصول الشرائع، أو روح الشرائع، أو أصول الثورة، أو كتب "مونتسكوا"[2] و"روسو"، وطالعوا جميع ما وضعه الأوربيون في علم تهذيب الأخلاق وتزكية الأنفس، لِما تحقّقوا بعشر معشار الفضل والنشاط اللذين كانوا عليهما على حين لا عمدة لهم سوى القرآن [الكريم]، ولكن، لسوء حظّ الشرق، يتعلّم الواحد من أهله بعض كليمات يظنّ أنه بلغ بها منتهى العلم، حتّى إذا سقط على كتاب من الكتب الأجنبية في موضوع اجتماعي زعم أنه مطابق بجملته لحالتنا الحاضرة، وأخذ ما في ذلك الكتاب من المبادئ والأفكار وطفق يطبّقها على ما نحن فيه ويجزم بعقم غيرها، أشبه بمن يدّعي الاجتهاد وهو يظنّ فهم الجملة الواحدة كافيًا للاجتهاد المطلق. ومن جملة ما هم قائمون به الآن القول باتّحاد أمراء العرب واستعدادهم للنهوض لإعادة مجد العرب، إلى غير ذلك من الأمور المتعلّقة بالعرب! ويا حبّذا لو صحّت الأحلام وكان هذا القول يتحقّق فعلاً، فإنّه لا يوجد بشرى أعذب موقعًا في أسماع المسلمين وأندى على أكبادهم من بشرى اتّحاد أمراء العرب يدًا واحدة ونهوضهم لإعادة مجد العرب! فإنّه ممّا لا مشاحة فيه أنه لو سدّد الله أمراء جزيرة العرب إلى هذا العمل العظيم، لوطّدوا دعائم الإسلام وزحزحوا عنه هذا العذاب الذي هو فيه مع الأمم الأجنبية؛ فإنّ الأمّة العربية في الجزيرة وما جاورها لا تقلّ عن ١٢ مليون نسمة، كلّهم شعب واحد، إذا استنفروا للقتال خرج منهم ثلاثة ملايين مقاتل يحمي بعضهم ظهور بعض؛ أسرع الأمم إجابةً لصريخ، وأشدّهم إقدامًا على خطر، وأربطهم جأشًا وقد طارت القلوب شعاعًا، وأطولهم أناة على البيداء، وأعظمهم صبرًا وجلدًا على حمر المنايا، وأكثرهم استخفافًا بالحياة، وأحسنهم تحمّلاً لجميع أنواع المشاق. فأمّة هذه مناقبها في الحرب، وذاك ولوعها بالطعن والضرب، وتلك درجة احتقارها للحياة، وأكثرها، إن لم نقل كلّها، مسلّح بالسلاح الجديد، بصيرٌ بتقليبه، قد دلّت حرب طرابلس الأخيرة من عمل أبنائها في أفريقية على ما تقدر

(١) جمع مذكور لـ "مائة"

(٢) فعلاً المقصود مونتيسكيو.

أن تعمله إذا نفرت إلى القتال، وهي في وسط حماها وسرة بطحائها لا شكّ أنها لا تؤخذ إلاّ من قبيل شقاق واختلاف كلمة، وأنه لا خوف على جزيرة العرب ولا على الحرمين الشريفين ما دامت هذه الأمّة من حولهما، فلا بشرى تعدل إذًا عند المسلمين بشرى اتّحادها واتّفاقها ونبذ ضغائنها وأحقادها لا سيّما إذا علمنا أنّ مكالمة بعضهم مع بعض في أمر الاتّفاق إنّما كان لأجل حوطة الجزيرة وحماية الحرمين، وقصر كلّ يد تمتدّ إلى داخل البلاد من الخارج، ووقف كلّ طمع يحوم حول الاستيلاء على مهد الإسلام بحيث يكون العرب يومئذٍ، مع شدّة تشعّبهم وتفرّقهم، عصبة واحدة لا خلل بينها، وكتلة لا جوف لها على عدوّ الأمّة والدين؛ هذا قرار أمراء العرب وعلماء العرب وجميع مَن اهتمّ بشأن العرب، وهم مجمعون على عضد الدولة العليّة التي هي نظام ألفتهم وسلك وحدتهم، وبدونها يُخشى مَن تنافسهم وتحاسدهم وتفرّق كلمتهم عن حماية البيضة. فإنّ كل أمير من أمراء الجزيرة لا يخضع لجاره، ولا يقرّ بالسيادة لنظيره، مع أنّ كلّهم مُقرّ بخلافة ابن عثمان، راضٍ بسيادته، مطاطئ الرأس أمام بابه العالي، عالم بأنّ لا غنى للإسلام عن الدولة العليّة، وفي هذا العام، عندما كان مولاي عبد الحفيظ سلطان العرب في الحجّ ونظّمته عرفة مع أمير مكّة وكثير من كبار الإسلام، ذكر أمير مكّة مناقب آل عثمان وإحرازهم قصب السبق على جميع مَن تقدّمهم من دول الإسلام العربية والعجمية في خدمة الحرمين الشريفين وتوقير آل البيت المصطفوي والاعتناء بسكّان الحجاز وبالعرب؛ وختم كلامه أمام سلطان المغرب بقوله: فنحن بعد هذا جميعًا لا نألف أن نكون عبيدًا لمولانا السلطان محمَّد رشاد. أمّا تلك الفئة المعدودة، فإنّها لا تزال تذكر اتّفاق أمر العرب وتنوّه بحنينهم إلى تأسيس جامعة عربية، مشيرة بذلك إلى عقدها غيظًا بالترك ومناواة[1] للدولة، حال كون جلّ مقصد العرب هو تعزيز الدولة والقيام مقامها في الذود عن الحرمين فيما لو ناشبها الأعداء حربًا من حروبهم الصليبية هذه في جوار الأستانة بما يحول دون إمدادها

(١) المقصود بها مناوأة.

الجزيرة، كما جرى لها في مسئلة طرابلس؛ فإنّها لولا الحرب الصليبية البلقانية وتحفّز روسية من وراء البلقانيين لَما تركت الدولة طرابلس أصلاً ولبقيت تناضل عنها إلى ساعتنا هذه. فمن الواجب، بعد أن علمنا مقدار الحقوق الدولية في أوربا، أن لا نتّكل على شيء من عهود الدول، وأن نرصد في كلّ ولاية من ولايات الدولة، لا سيّما في الولايات العربية وفي جوار الحرمين الشريفين، القوّة الكافية من السلاح والذخيرة للدفاع عنها، وأن نَكِلَ[1] إلى الأهالي الأشدّاء والعشائر المخيّمة في هاتيك الفلوات أمر المكافحة عن بيضة الإسلام، إذا طرق طارق أو نعق ناعق، وأن تكون الدولة هي الرأس في ذلك العمل والنظام الجامع لما تفرّق من أدواته. فهذا ما عليه العرب من هذا القبيل لا ما يحبّ أن يخيّله بعض تلك الفئة من كون اتّحاد العرب هو بغضًا منهم بالترك وقيامًا على الترك؛ تجد مضامين ذلك في جرائدهم ومجلاّتهم، كأنه لا يروق لهم اتّحاد العرب إلاّ لمناوأة الترك وحدهم، فأمّا مناوأة الإفرنج الذين هم أثقل على العرب من الترك، وأعظم خطرًا ألف مرّة، فإنّك لا تجد واحدًا من الفئة اللامركزية، أو على رأيهم، الإصلاحية (والله يعلم المصلح من المفسِد)، مَن يرغب فيها أو يصبو إليها، لا بل هم أضداد كلّ مقاومة للأوربي، وأينما كان اللامركزي فهو حزب إخضاع المسلمين للأوربيين، إن لم يكن علنًا، فقلبًا! ولا أعلم، لعمري، ما هي لذّتهم بركوب الأجانب فوق مناكب المسلمين، وماذا يأتيهم من الخبر في عبوديتنا لأوربا وقد شاهدنا آلام غيرنا ممّن أُدركوا في تلك الهوّة بأسباب شبيهة جدًّا بالأسباب التي تخلقها الآن العصابة اللامركزية، وقد يكابرون في صحّة هذه النسبة إليهم وينكرون كونهم حزب خضوع الشرق لأوربا، ويحاولون التمويه والتغطية جهدهم، ولكن فاتهم أنَّ كلّ حركة من حركاتهم، وكلّ إشارة من إشاراتهم، دالّة على مكنون صدورهم ومعقود نيّاتهم، وأنَّ زمان السفسطة قد مضى، وأنَّ دور المغالطة قد انقضى!

(١) من نَكَلَ، وهو الإحجام عن الشيء والامتناع عنه. والمقصود هنا، أن يكون أمر الدفاع عن الإسلام في يد الدولة لا في يد الأفراد مهما علا شاوهم في القتال.

وما بال أعضاء من لجنة اللامركزية بمصر لا شغل لهم سوى الذهاب إلى درنة، والإياب من درنة، والمداخلة مع عرب الجبل الأخضر لغاية استيلاء إيطاليا على هاتيك الديار، بدون إعطاء السنوسية شيئًا من الامتيازات الملكية التي تضمن صيانة أراضي العرب، وعدم تبسّط الملايين من جياع إيطاليا في بقاعهم، ممّا يؤول إلى طردهم من أوطانهم؟! أهذه هي المنافع التي يعد بها طلاّب مجد العرب وحفاظ حقوق العرب إخوانهم عرب أفريقية؟! وما بال جريدة «الأهرام» التي هي من أهمّ مقاول اللامركزية، هي الداعية الكبرى لإيطاليا في طرابلس، الناصحة أبدًا للعرب بقبول حكم هذه الدولة التي ليست من قحطان ولا غسّان؟! فيا ليت شعري، وما بال هؤلاء لا يصيرون عربًا إلاّ لأجل عداوة الترك؟ وما جوابهم على هذا وقد طارحناهم السؤال عنه مرارًا فلم نجد منهم إلاّ الخرس المطلق والصمت المغلق؟! وإنّما لدى هذا السؤال يحملون علينا من جهة أخرى بالطعن والقذف، ويتحاملون بالبهتان والافتراء، شأنهم في كلّ مواقفهم، ودأبهم عندما يلزمهم مناظرهم الحجّة، ولا يجدون ممّا دخلوا فيه مخرجًا! أفكلّما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، أو كلّما وقف الإنسان عن مجاراتكم في أهوائكم وضلالاتكم لجأتم إلى المهاترة والشتم تتّخذونهما أحدّ سلاحكم وأمضى نصالكم في نضالكم؟! وما بالكم تتكلّمون عن العرب وعن قحطان وتنصّبون أنفسكم وكلاء عن هذه الأمّة وتقارعون باسمها الترك؟ فهل أخذتم التفويض من عرب الآفاق بهذا العمل؟ وهل أبناء قحطان أنفسهم، وهم يملأون اليمن وقسمًا من نجد أو الحجاز والعراق والبحرين، ومنهم سكّان البلقان وعرب غزّة وفلسطين، ومنهم أكثر عرب الصعيد أبناء لخم وجذام، قد أحالوا عليكم قضيّة مخاصمة الترك ومشاغبة الدولة العثمانية أثناء الحرب، ونبذوا واجبات الإسلام ظهريًّا؟ وهل قال لكم هؤلاء الملايين من بني قحطان إنّهم عرب قبل كلّ شيء، وإنَّ الإسلام هو عندهم بالدرجة الثانية حتّى جئتمونا بهذه النغمة الجديدة باسم قحطان؟! وها هم أبناء قحطان في منبت أسلة قحطان - الذي هو اليمن - يواصلون الرسائل إلى سورية بالنصيحة بعدم شقّ

العصا، وبالانضمام حول الدولة العثمانية، وينكرون ويكبرون اتّخاذ الأجانب أولياء من دون العثمانيين، والأوربيين من دون المسلمين، ولقد بلغ أمراء العرب أنَّ الدولة في حلمها وصفحها وميلها إلى إسكات القالة وصبرها على أخلاق هذه الأمّة ريثما تكون عرفت واجباتها، قد رضيت أن تتفاوض مع الجماعة الذين اجتمعوا في باريز، وأن تتجاذب وإيَّاهم أحاديث الإصلاح، فانتقدوا هذا الحلم ورأوا أضراره أكبر من نفعه، وأنكروا وكالة أولئك النفر عن العرب، حتّى لقد صرّح بهذا اللوم الشريف عبد الله بك، نجل أمير مكّة، لوالي سورية عارف بك المارديني، بحضور جمّ غفير من سادات العرب في المدينة المنوّرة! وكيف كان الأمر، فإنَّ الدولة لم تستنكف أن تدخل في المفاوضة مع بعض أبنائها، وإنَّ جمعيّة الاتّحاد والترقّي لم تأنف من استعتاب أولئك الأشخاص واسترضائهم، ومن دعوتهم إلى الوفاق. ومع علمها بما كان بعضهم يفعلونه ويكيدونه وما يلقونه إلى الأجانب من مفاوضاتها العثمانية الصرفة معهم وما يستظهرون به على دولتهم من مداخلة أعدائها، فقد طوت على كلّ هذه العظائم كشحًا، وتدرّعت بالصبر الجميل وأظهرت قبول العذر والتجاوز عن الوزر، وكفّت من غرب الحفيظة، وطمأنت من جانب، الموجدة[1] ذهابًا مع الحكمة والتزامًا لقاعدة المداراة، لا سيّما والدولة مشغولة من مقارعة البلغار ومكافحة اليونان، ومن الاستمساك أمام الثقل الروسي الملقى بكلكله عليها بما لم يبق مجالاً للاشتغال بمعاتبة أبنائها؛ فارتضت بدعوتهم إلى الأستانة وأكرمت مثواهم وأحسنت مقدّمهم وظنّت أنَّ الأمر قد انتهى، أو كاد، وأنَّ الجماعة كانوا يبتغون مخرجًا ممّا أدخلوا أنفسهم فيه، فوجدت لهم مخرجًا شريفًا ولو على أعين الخلق، فظهر بعد هذا كلّه أنَّ جماعة من هذه الفئة ازدادوا بهذه المعاملة غرورًا! وبعد أن سقط في يدها وكادت تقطع كلّ أمل من نجاحها، عادت إلى سابق لهجتها واستأنفت ماضي غيّها، ومَن شكَّ في ذلك فعليه أن يراجع جرائد هذه الفئة، ويتأمّل خلال السطور منها ليعلم الروح التي تُنفث في روعها والطوية التي تُملى عليها أنهم كانوا يكرهون أن تفوز الدولة في قضيّة أدرنة خوفًا

(١) الغضب.

من أنَّ استرداد أدرنة يستردّ هيبتها في قلوب الأمّة، وهم يريدون خرق حجابها! إنّهم كانوا لا يتمالكون أنفسهم من إظهار الفرح بكلّ نكاية تصيب قلب الدولة، أو سهم ينفذ في أحشاء الأمّة. إنَّ بعضهم كان يتجاهل حوادث اعتداء البلقانيين على مسلمي الروملي ويعمسها[1] قصدًا ويطمسها عمدًا، ولا يزال يتسقّط روايات تكذيبها حتّى إذا وقع على أقلّ فريّة[2] من هذا القبيل بادر بنشرها تغطية لعسف أوربا وتغافلاً عن تعصّبها الذي يزيد الشرقيين تعصّبًا لحوزتهم، حال كون أصحاب هذه الجرائد إنّما يريدون تزيين السلطة الأوربية لكلّ شرقي، وإقناع كلّ مسلم بأنَّ شريعته لم تتوفّق في يوم من الأيام إلى توطيد أمن ولا إلى رفع بناء ثابت، فإذا خافت افتضاح سرائرها تجاه الأمّة التي هي تخدعها نشرت بعض مقالات دفاعية تقصد بها إثبات صدقها وعصبيتها، فجاءت بالمتناقضات وظهرت في شكل أبي قلمون: «وربَّ ابن صار أبًا»! ولقد اتّخذت نغمة واحدة تتغنّى بها في كلّ مقال، وهي أنها لم تكن لتكره الدولة ولا لتسعى في توهينها، وإنّما تلك مساع إصلاحية جلّ المقصد منها تقوية الدولة وتعزيز الملّة، ولكنَّ الترك يجهلون مصلحة أنفسهم فلا بدّ أن يساقوا إلى الإصلاح قسرًا ويجرعوا كأس اللامركزية كما يجرع العليل مرّ الدواء! ففضلاً عن كون هذا الدواء هو الآن سمًّا ناقعًا[3] للعليل، لا نسلّم أصلاً بمحبّتهم للدولة وتمسّكهم بكيانها ما دامت عيونهم تنمّ عليهم وألفاظهم تبدر بخلاف دعواهم. ولقد كنّا نحادث مرّة أحد فضلاء الهند ممّن هو مداخل للأجانب، مواطئ لهم على كثير من مقاصدهم، فأخذ يذكر لنا حجج مَن عرفهم من رؤساء هذه الفئة، إذ كان اجتمع معهم في مصر، ونحن نردّها له واحدة واحدة إلى أن نشدناه الله أن يصدقنا القول: هل هذه الفئة مسرورة بارتباط قلوب مسلمي الهند بالدولة ومعاونتهم لها إذا كانت صادقة للدولة كما تقول؟ فاضطُرّ حينئذٍ أن يقول لنا: كلاّ، لا يحبّون هذا الارتباط ولا يغتبطون به.

---

(١) عَمَسَ: أخفى.

(٢) افتراء.

(٣) السمّ الناقع: بالغٌ قاتلٌ ثابتٌ.

قال لنا هذا وهو صاحبهم وقسيمهم في الأفكار وشريكهم في كثير من المنازع! فلم تكن المسئلة إذًا مسئلة إصلاح أو شكل في الإدارة يودّون تغييره، بل ما هناك سوى دسائس يقصدون بها ثلم بنيان الدولة وإدخال الأجانب في البلاد لتكون لهم الحظوة عندهم، وهم يطلقون على ذلك ألقابًا مختلفة من قبيل إصلاح ولامركزية، ونهضة ورقيّ، وغيره، والألفاظ لا تغني من الحقّ شيئًا! ومن قبلهم قام أعداء الاتّحاديين فألّفوا جمعيّة سمّوها بالجمعيّة المحمَّدية، تقرّبًا بهذا الاسم الشريف إلى قلوب العامّة، ولم يكن المقصد منها خيرًا، وقيل إنّها كلمة حقّ أريد بها باطل؛ فالدعاوى لا تغيّر حقائق الأشياء والأسماء لا تصدق إلاّ إذا اقترنت بالأفعال! وقد يخدعون الأغبياء ويتغفّلون العوام الذين لا يعلمون ما وراء الأكمّة، فأمّا الذين عندهم مسكة عن عقل، أو حصاة من رويّة، فإنّهم لا ينخدعون بهذه الألفاظ ولا يغترّون بذلك الطلاء، وهم يعلمون أنَّ الدولة، سواء طالبوها هم أم لم يطالبوا بالإصلاح، فقد كانت عازمة على تغيير شكل الإدارة؛ وإنَّ القيام بهذه العربدة التي قاموا بها على الدولة في أثناء مكافحتها لأعدائها على أبواب عاصمتها لا يفيد شيئًا من الإصلاح، ولا من التقوية، وإنّما يورث الدولة زيادة الضعف وطمع العدوّ واستئساده، وإنّه إن كان لا بدّ من المطالبة والمراجعة، فقد كان لهم مندوحة عن الاجتماع في باريز والاعتضاد بالأجانب على دولتهم الشرعية! وما أحسن قول الشاعر:

لقد رانني من عامرٍ أنَّ عـامرًا ... بعين الرضى يرنو إلى مَنْ قَلانيا[1]!

يلتمسون عذرًا للإدريسي على خروجه وعصيانه، وأغرب منه أنهم لا يقبّحون ممالأته للطليان حينما كان الطليان يقاتلون المسلمين ويخرجونهم من ديارهم، بل يقاتلون العرب الذين الإدريسي منهم، وذلك لأنهم يجدون كلّ ذنب مغفورًا في جانب الخروج على الدولة.

---

(1) المقصود قَلاني، أي كَرِهني. والألف هنا جاءت للضرورة الشعرية. (المحقّق)

يضمرون لأبطال الاتّحاديين، مثل طلعت وأنور وفتحي، من البغض والشنآن ما لا يضمرونه للروس ولا للبلغار ولا لليونان، لا بل تجدهم يعلنون هذه البغضاء ولا يُجمجمونها في صدورهم، مع أنَّ السيِّد السنوسي وجميع خلفائه وحلفائه، وجميع رؤساء العرب في طرابلس وبرقة، قد بلغوا من حبّ أنور وفتحي وتوقيرهما مبلغًا لا يعلمه إلاّ مَن عَرف أحوال هاتيك البلاد! ولا نظنّ في الدنيا عثمانيًّا منصفًا، لا بل إنسانًا عادلاً يمكنه أن يبغض هؤلاء الأبطال الذين باعوا أنفسهم من أوطانهم، والذين قد وقّر لهم الأجانب حقّ التوقير والإعزاز.

يتّهمون الاتّحاديين بكونهم أرادوا تتريك العناصر ومحو العربية والعرب، ورفيق بك العظم يقول لعبد الرحمن بك اليوسف في مصر إنّه على ثقة تامّة من هذا القرار الذي قرّره الاتّحاديون في سلانيك لأنه قد تلقّى خبره حتّى من البلغار أنفسهم.

انظروا إلى هذا الإسناد البلغاري الذي يخجل الإنسان من ذكره في قضيّة واقعة بين العرب والترك، وتأمّلوا كيف يدّعي بعضهم المعرفة والمنطق وهو يستشهد بكلام أعدائنا البلغار ويتّخذه حجّة على فريّة غير معقولة ويبني عليه حكمًا طويلاً عريضًا!

مهما بلغ بالاتّحاديين الغرور، أو تمادى بهم الاستئثار، فلن يجهلوا تعذّر حمل سائر العناصر العثمانية على الاندماج في التركية، بل لقد وجدنا الأتراك أشدّ الناس تقريظًا[1] في حفظ عنصرهم، ورأيناهم ـ والله ـ يهملون تتريك طائفة من مسلمي الروملي اسمها البوماق، تركوها بدون تعليم اللغة التركية، حتّى إذا غلب البلغار على بلادها هذه المرّة في قرجة على جمعه وبالاً، حملوها على النصرانية بالسيف وتزوّجوا بناتها قسرًا، زاعمين أنهم إنّما أعادوا البوماق إلى دينهم الأصلي ولم ينصّروا الترك الذين لم يكن أصلهم نصارى، وأنَّ الدليل على كون البوماق بلغاريين في الأصل هو جهلهم اللغة التركية وعدم معرفتهم غير البلغارية.

(١) مدحًا.

فالأتراك يحكمون في الروملي منذ ستمائة سنة ولا يفكّرون في أن يدمجوا في التركية طائفة كالبوماق عددها ١٥٠ ألفًا وهي بين أظهرهم، ولا يحاولون تتريك الأرناؤوط ولا البوشناق، هذه الأمم الصغيرة، ويقوم هؤلاء الذين في قلوبهم مرض - وقد زادهم الله مرضًا بعد هذه الحرب - فيقولون إنّهم قرّروا تتريك العرب الذين هم أكثر منهم عددًا، والذين [هم] أصل الإسلام في كلّ شيء! وهكذا تجدهم دائبين في تمزيق هذه الأمّة المسكينة التي لم تكفها بلايا أوربا في جوانبها حتّى قاموا هم يقطعون في أحشائها ويفرّقون من أوصالها بالأراجيف والأكاذيب والأخبار الموضوعة؛ فيقولون للنصراني إنَّ الاتّحاديين أو الأتراك يريدون محو النصرانية من البلاد ويدعوننا إلى إحياء التعصّب الديني، ونحن مسلمي العرب لا نقبل منهم ذلك، فلهذا هم يكرهوننا. ويقولون للمسلم العربي إنَّ الأتراك لا يريدون ضعف النصارى في البلاد العربية لأجل أن يجعلوهم شغلاً شاغلاً لنا عن مقاومتهم، ويقولون لطالب الرفاعي وأهل البصرة إنَّ الأتراك يريدون الرضيخة ببلادكم للإنكليز والألمان، وهم يبيعون بلاد الإسلام كما باعوا طرابلس الغرب، فيقوم هؤلاء هناك وينادون وإسلاماه! كيف تقبلون أيها المسلمون أن تُباع بلادكم من الأجانب وأن يخفق فوقكم علم الصليب؟! ويرسلون إلى ابن سعود قائلين له إن لم تأخذ الإحساء وقطر وسائر لواء نجد فإنَّ الباب العالي سيعطيها قريبًا إلى الإنكليز! ويكونون في الوقت نفسه ذاهبين جائين في السفارة إلى الإنكليز يخبرونهم بما عندهم من أخبار سورية واليمن وعسير والحجاز التي مآلها أنَّ العرب بأجمعهم ناقمون وقائمون وأنهم يريدون الحماية الإنكليزية والخلاص من الحكم التركي. إلى أن روى صاحب جريدة «بيسه أخبار» في الهند أنَّ إنكليزيًا كبيرًا في مصر - لا نريد أن نسمّيه - قال له: اذهب إلى الشام لتعلم أنه لا يوجد عربي واحد إلاّ وهو يفضّل حكم إنكلترة على حكم تركيا. واذهب إلى الحجاز لتشهد بعينك كيف أنَّ العرب يتقرّبون إلى الله تعالى فيه بقتل التركي. وهذه الأقاويل هي كلّها نتيجة ما يلقيه هؤلاء الجماعة في آذان الإنكليز صباح مساء.

ويقولون للعربي إنَّ الأتراك قرّروا تتريك كلّ العناصر العثمانية، فبدار إلى الخروج عليهم قبل أن يباشروا إجراء قرارهم بالفعل! فهم يهيّجون بذلك أحقاد العرب ويتغفّلون كثيرًا من أغرار العرب ولا يخافون الله فيما يفترون وما يضعون، ولا يتّقونه في ملّتهم، ولا في وطنهم، ولا في أنفسهم، وهم يعلمون ما في هياج العامّة العمياء من الخطر العام، وما وراء تناحر العناصر من سقوط الجميع في هاوية الاستيلاء الأجنبي؛ على حين لو عاد هؤلاء الأغرار المتهوّرون إليهم فيما بعد قائلين لهم: أين الدولة العربية التي وعدتمونا؟ وأين اللامركزية التي قلتم لنا إنّها مرحلتها الأولى؟ وأين السعادة التي زعمتم أنها مستقبلنا؟ فما نحن اليوم إلاّ تبعة دولة أجنبية لا ترقب فينا ألاً ولا ذمّة بفضل فرفرتكم هذه، ووالله، لَنار الأتراك ولا جنّة الأوربيين، لنفضوا أيديهم منهم وقالوا لهم: إنّنا أبرياء منكم (قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريء منك) ويا ليت شعري، ماذا يفيد اللوم يومئذٍ؟ وماذا يقدر هؤلاء المساكين من هذه الأمّة المغرورة أن يثاروا من أولئك المغرّرين وقد سبق السيف العُذَّل وانتهى كلّ شيء، وأصبح قصارى مَن عرف خطأ نفسه يومئذٍ أن يقول ألا لعنة الله على المفسدين، ألا لعنة الله على المتسبّبين.

يذيعون من جملة أكاذيبهم لتهييج العوامِ أنَّ الدولة هي في أيدي الاتّحاديين، وأنَّ هؤلاء كلّهم من يهود سلانيك. ولا يزالون يكرّرون أنَّ جاويد هو يهودي، وأنَّ رجمي هو يهودي، وأنَّ كلّ مَن خرج مِن سلانيك هو يهودي، حتّى إنَّ أناسًا من كبار الاتّحاديين ليسوا من سلانيك أصلاً قالوا إنّهم يهود أيضًا، وغيّروا قلوب جمّ غفير من عامّة الناس بهذه الأقاويل التي ما جعل الله لها من نصيب من الصحّة؛ فالاتّحاديون الذين يعنونهم هم أحسن الناس إسلامًا وأشدّهم بالإسلام تمسّكًا، وجاويد بك الذي يقولون إنّه يهودي هو، والله، أصدق إسلامًا وأقرب إلى رضى الله ورسوله من أكثر أولئك الذين قاموا ينفخون في بوق العنصرية ويزرعون بذور الشقاق بين العرب والترك ويقولون نحن عرب أولاً ومسلمون ثانيًا، مخالفين قول صاحب الإسلام، عليه الصلاة والسلام! وليس جاويد الذي هو مسلم، بل

يهود سلانيك أنفسهم هم أخلص لدولة الإسلام ولاءً من هؤلاء الذين لم يجدوا فرصة للقيام على الدولة ومشاغبتها باَسم المطالبة بالإصلاحات سوى فرصة إحاطة الأعداء بها وحصارهم لعاصمتها، وأَخْذ الأعداء بمخنق الإسلام، وارتكاب البلقانيين بمسلمي الروملي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا كتاب روى من الفظائع والفجائع! إنَّ يهود سلانيك هم إلى يومنا هذا ينوحون على أيام الدولة العثمانية ويراجعون دول أوربا في إعادة سلانيك إلى الدولة، وقد عاتبهم ملك اليونان على ما ظهر من حزنهم لدى دخول عساكره إلى سلانيك، فقال له حاخامهم: إنَّ الذي يفقد والده لا بدّ أن يلبس عليه أثواب الحداد مدّة وإلاّ لا يكون إنسانًا! ونحن نعدّ الدولة العثمانية أبًا لنا، لأنه لمّا طردنا الإسبانيول من إسبانيا لم نجد لنا ملجأ إلاّ في أكناف الدولة العثمانية التي أنزلتنا في الأستانة وفي سلانيك وإزمير. هذا كلام الحاخام اليهودي لملك اليونان عندما يكون منّا سادة، يدّعون أنهم من آل البيت النبوي، مداخلين الأجانب على دولتهم؛ عندما نكون متزلّفين إلى الأجانب بمصر بقولنا لهم إنَّ عرب الشام والحجاز يفضّلون الحكم الأوربي على الحكم التركي وينتظرون الخلاص على أيديكم.

ألا فليعلم هؤلاء المغرورون أنَّ الإسلام ليس عقارًا يرثه الإنسان عن والده، ولا وقفًا يحتكره، ولا لقبًا يتلقّب به، ولا بضاعة يحوزها فيمنعها [عن] غيره، إنَّ الإسلام حالة روحية مَن تحقّق بها وراعى شروطها المبيّنة في كتاب الله وسنّة رسول الله كان هو المسلم المرتضى عند الله ورسوله، ولو كان فرنسويًّا أو إنكليزيًّا أو روسيًّا، بل لو كان زنجيًّا رأسه زبيبة. وإنَّ بيرلوتي ولاون أوستروروغ وغيرهما من النصارى المحبّين للدولة والإسلام من فضلاء أوربا هم أعلى درجة عند الله ورسوله من أولئك الذين يدّعون الإسلام ظاهرًا ويعملون على قتله باطنًا، ثمَّ ينقلبون على المسلمين المخالفين لهم بالتكفير والتفسيق كلّما جاؤهم بما لا تهوى أنفسهم! ومن جملة نكاتهم في هذا الموضوع أنَّ اَبن شيخ الصقر، وهم قبيلة من العرب تنزل بأرض بيسان في الغور، كان محبوسًا في دمشق الشام بسبب من الأسباب، فبعد

التدقيق في قضيّته تبيّنت براءته فأُطلِق سراحه، وكان لبعض الاتّحاديين يد في هذا الإفراج، فحضر والده من الغور اليه فرحًا مسرورًا وقال له: مَن ذا الذي أنقذك من الحبس يا بنيّ وصنع إليك هذا الجميل؟ فقال له: هم الاتّحاديون يا أبتاه! فقال له، وقد أخذت منه الدهشة كلّ مأخذ: كيف تقول هذا والناس يقولون إنَّ هؤلاء هم كفّار يكرهون الإسلام ويدينون بدين الفرماسون، وإنّهم يريدون استئصال جرثومة العرب؟ فقال له ولده: كلاّ يا والدي، فإنَّ ما بلغك عنهم هو افتراء محض؛ فإنَّ إخواني هؤلاء هم من أصدق الناس إسلامًا وإيمانًا، ومن أقربهم إلى فعل الخير، وإنّك لتعلم ذلك من كشفهم هذه الغمّة عنّي. فأخذ شيخ الصقر يعجب من ذلك البهتان العظيم الذي سمعه بحقّ الاتّحاديين ويكرّر اللعنة على الظالمين.

ولقد كانت الحكومة استدعت مؤخّرًا نوري بن شعلان، شيخ قبيلة الرولة الكبيرة من عرب الشام، فتخلّف عن الحضور، وبعد الفحص عن السبب وجدت عنده كتب من بعض تلك الفئة تحذّره من المجيء وتؤكّد سوء نيّة الدولة بحقّه وتروى له روايات ما أنزل الله بها من حقّ. وهكذا فإنّهم لا يتركون فرصة لإفساد أفكار الناس من بدو أو من حضر إلاّ وتوردوها.

وحسبك مراسلاتهم مع الإدريسي الثائر بعسير، وإطماعهم إيّاه أحيانًا بالخلافة وتحذيرهم من الإخلاد إلى السكون والطاعة. ولقد كنّا في الأول نرتاب فيما يُنقل إلينا من أخبار هذه التسويلات منهم ونظنّها من جملة وساوس الأتراك ونكره صدور هذه الأقوال منهم وننزّه أيًا كان عن مراسلة الإدريسي في شيء من مقاومة الدولة، إلاّ أننا أخيرًا علمنا أشياء انزاحت بها الشكوك وثبت بها فساد أولئك الذين لا قلوب في صدورهم تمنعهم من تفجير دماء المسلمين وتعريض جزيرة العرب للاستيلاء الأوربي غيظًا بالأتراك أو انتقامًا من الاتّحاديين.

إنَّ الإدريسي ظهر في الأول بمظهر الدين والصلاح وارتدى حلّة التقوى، وخلب بسحره كثيرًا من سكّان تلك البلاد واستجلبهم إليه بالمواعظ، وأقنعهم بأنه

مجتهد يسعى في إقامة الشريعة الغرّاء وإجراء حدود الله، وقد ساعده على ذلك سوء إدارة بعض العمّال العثمانيين وخلو القطر من القوّة الكافية ومن الحكومة بالمرّة في بعض الأماكن بما لا تزال هذه الدولة مشغولة به من الخطوب الأوربية، وما يحول دون توفّرها على إصلاح بلادها من نفاد الأموال في ميرة الجيوش المرصدة للدفاع عن حريم الدولة مع تنائي ذلك الإقليم الشاسع عن مركز الخلافة؛ فأصبح الإدريسي ذا يد باسطة وكلمة مسموعة في أكناف عسير، وكان الإمام يحيى إذ ذاك لم يأتلف مع الدولة، فأرسل إلى الإمام يعرض عليه أن يكون من قِبَله في عسير، فأرسل الإمام إليه تفويضًا بالأمر بالنيابة عنه؛ وما زال كلّ منهما يجاذب الدولة الحبل من جهته حتّى فوجئت الدولة بحرب طرابلس، فقال الإمام: أمّا وقد اعتدى العدوّ على بلاد الإسلام، فحاشا أن أحمل السلاح في وجه الدولة. وأبلغ الدولة أنه هادنها إلى ما بعد الحرب مع إيطاليا. فلمّا بلغ الدولة ذلك وأيقنت أنه جدير بأن يكون أميرًا من أمراء الإسلام حقيقًا بأن يركن إليه ويعوَّل عليه ارتضت بالصلح معه، وقرّرت معه من الصلح ما استقرّ به أمر اليمن في نصابه، وكفى الله المؤمنين من الجانبين شرّ هذه الفتنة. إلاّ أنَّ الإدريسي لم يزل على ضلاله وفساده وغدره بالعساكر العثمانية ممّا حدا الإمام إلى أن يكاتبه مذكّرًا إيّاه بما يحظّره عليه الشرع الذي يدّعي أنه مجتهد فيه من مقاتلة المسلمين عندما يكونون في حرب مع الأعداء، ويكون العدوّ هو المهاجم لهم، فلم تحك النصيحة فيه، ولم يكتفِ بقول المسلمين حتّى مدَّ يد المصافحة إلى إيطاليا، فأرسلتْ إليه بالذخيرة والعدّة والنقود والمدافع، وتقبّلها مبتهجًا مسرورًا وقاتل بها المسلمين ووضع العساكر العثمانية بين نارين في سواحل قنفدة، فكان الطلياني يقاتلهم من البحر، والإدريسي من البرّ، كما شهد بذلك ألوف من عرب اليمن، ومن العرب الذين في الجيش العثماني، ومن عرب الحجاز. ولمّا بلغ الإمام يحيى ذلك أرسل إليه يقول: أفلا تخشى الله؟! أفلا تستحي من رسول الله؟! أفلا تخجل من أن تستمدّ النصارى على المسلمين وتقاتل أمّة محمَّد بسلاح أعدائها؟! فأجاب: إنّني إنّما أخذت الأسلحة من النصارى لأقاتلهم

بها، أي النصارى! وكان جوابًا، كما ترونه، ملفّقًا. وعند ذلك شهر الإمام عليه الحرب من جهة اليمن، كما أنَّ أمير مكّة كان شهرها عليه من جهة الحجاز، وصار كلّ منهما يزحف إليه قوّةً، ولولا اتّساع عسير ووقوف الدولة عن متابعة هذه الحرب بما شغلها من حرب البلقان، لَكان انتهى أمر الإدريسي.

وأمّا الفئة المعهودة، فلم يغضبها على الإدريسي قتاله للمسلمين حينما يكون خمس دول نصرانيات مقاتلات للدولة العثمانية، ولا نفّرها منه اتّفاقه مع الطليان وقتاله المسلمين بسلاحهم، ولا غيَّر لهجتها بحقّه عفو الدولة عنه وإصراره على الحرب، بل الإدريسي هو الإمام المجتهد المجدّد المرشّح للخلافة، القائم بالفرض والسنّة، بل نقموا جدًّا على الإمام يحيى وعلى الشريف حسين، أمير مكّة، مقاتلتهما للإدريسي؛ وقد سمعنا منهم بآذاننا ما لفظته أفواههم من البغضاء لهما. وأغرب من خيانة الإدريسي هذه في أطراف اليمن خيانة كلّ مَن انتسب إليه، حتّى أبناء عمّه الذين في صعيد مصر، ممّن كانت مراسلته من تلك الفئة هي بواسطتهم، وممّن لم يقتصروا على خدمة إيطاليا في البحر الأبيض، وكانوا في مقدّمة كلّ من الوفدين اللذين أنفذا من الإسكندرية إلى درنة لإقناع سيدي أحمد الشريف السنوسي بترك المقاومة وتسليم السلاح والطاعة لإيطاليا، وأن يأخذ عوض ذلك مالاً كثيرًا.

هذا هو السيِّد الإدريسي الشريف المنتسب إلى أشرف عترة، وهذه هي أفعاله، وهذا هو ضلاله، وهذه هي مساعي أبناء عمّه الذين يجرّون ذيول السيادة ويلوّثون عمائم الشرف، ولكنَّ رسول الله بريء من الولد العاق الذي يخالف أمره وينبذ دينه، ولا ينهض بالإنسان نَسَبه إذا كبا به عمله.

إذا لم تكن نفس الشريف كأصله ... فما هي إلاّ حجّة للنواصب

وسينكر مَن أشرنا إليهم مداخلتهم الإدريسي وفرحهم بما يعمل ورضاهم عمّا يأتي، شأنهم في كلّ أمورهم، وهو التشبّث بأذيال الإنكار والتحريك من وراء الأستار، ولكن هذا الإنكار لا يفيدهم شيئًا وفي بعض كتاباتهم فضلاً عن مشافهاتهم

التصريح بكونه مجتهدًا، وأمّا ما هناك من المراسلات السرّية بواسطة أولاد عمّه الذين في الصعيد، فكاد يكون معلومًا عند الجميع، وفي يد الإدريسي مكاتبات كثيرة يقرأها للناس ويكتم مصادرها ويضع يده أحيانًا على تواقيعها.

ومن هذه الطائفة من أعمالهم ما ظهر منهم من الشماتة يوم سقوط أدرنة في أيدي البلقانيين، فإنّهم فرحوا بذلك فرحًا شديدًا كتمه عقلاؤهم وأظهره سفهاؤهم، وكان بعضهم يبشّر بعضًا حينما عساكر البلغار تفتك بالمسلمين وضبّاطهم تنتخب لهم كرائم البيوتات الإسلامية للافتراع، والعَلَم العثماني يُنكّس عن حصون أدرنة، والصليب يرتفع فوق مآذن جامع السلطان سليم، وألوف من جثث المسلمين مطروحة بالعراء! وساعة وقوع الإسلام في هذه الفتن التي هي كقطع الليل المظلم، نعم، في هذه الساعة العظيمة كان أناس يقولون إنّهم عثمانيون وآخرون يدّعون الإسلام «وربّما نفوا منه مَن يشاءون[1]»، فرحين مستبشرين، يختالون فرحًا ويمشون في الأرض مرحًا وقد حدّثوا عن ضابط من ضبّاط الجيش العثماني ـ ويا للخجل ـ أنه خرج من قهوة ديار بكر في محلّة شمبرلي، طاش وأخذ يقبّل يد مَن أبلغه بشرى سقوط أدرنة تقبيلاً مكرّرًا، وجرى من أمثال هذه الفضيحة أمثال عديدة في جميع أنحاء السلطنة! وإنّه لأعظم سقوط في أخلاق العثمانيين والمسلمين إلى هذه الدركات التي مَن سقط إليها لم يعجب الناس من فشله في الحروب وخجله بين الأمم؛ ولقد أخبرني أحد رجال الدولة من المسيحيين، وممّن ليسوا اتّحاديين، أنه بعد قتل ناظم باشا جاءه في جوف الليل بعض ضبّاط من أبناء العرب وهم يحرقون غضبًا ويتوهّجون حنقًا، قائلين له: إنّنا لا بدّ من أن نأخذ بثأر ناظم باشا. فأجابهم: ما أجدركم يا أولادي بأن تأخذوا بثأر وطنكم المغلوب وبثأر دولتكم المقهورة، وأن تتركوا هذه الانتقامات الشخصية إلى ما بعد الحرب على الأقلّ.

---

[1] يشاؤون.

والله إنَّ من أخفى الأسرار الاجتماعية وأعضل الأمراض التي شاهدناها في هاتين السنتين، أن يشاهد بعض العثمانيين ما حلّ بهم وببلادهم وبإخوانهم، وأن يصابوا في شرفهم وعرضهم وفي أغلى شيء لديهم، وتبقى لهم حشاشات متوفّرة على بغض بعضهم بعضًا والتعصّب للأحزاب ومناصبة فريق منهم الفريقَ الآخر العداوات والتفكّر والانتقام! فقد ثقل على أولئك الضبّاط أن يناموا على ثأر ناظم باشا. وهو الذي، بغروره واستبداده برأيه - رحمه الله - كان أكبر سبب في هذا الخزي الذي أصاب المسلمين، ولم يثقل عليهم أن يناموا على الثأر الذي لهم عند البلغار واليونان!

ومن جملة فصولهم العجيبة القيامة التي أقاموها على قضيّة الدفاع عن أدرنة؛ فما كنت تسمع إلاّ تنديدًا ولومًا، وما كنت تحسّ منهم إلاّ ازدراءً وسخطًا، وتارةً يقولون ما لنا وللحرب؟ وما بسياسة العواطف يأخذ الرجال! وكلّ ذلك لكون كامل باشا مال إلى تسليم أدرنة؛ فكامل باشا هو المصيب، بل هو الصواب المجسم، بل هو الحقّ الذي يتكلّم، وكامل باشا هو الشيخ المحنّك الذي، وإن ذهب أكثر المملكة في أيامه، فهو أدهى الدهاة والقطب الذي تدور عليه رحى السياسة، ومهما فعل فهو الحكمة، ومهما نزل به على البلاد فإنّما هو في خير الأمّة.

والمصيبة أنهم لقفوا بعض كلمات مقتضبات قالها قائلوها في محلّها فظنّوها قاعدة مطّردة وشرعوا يطبّقونها على كلّ شيء، وظنّوا أنهم أصابوا المحزّ وطبقوا المفصل. فكلّما قام الاتّحاديون، وهم العرق الوحيد النابض في هذه الملّة، بعمل يقصدون به حفظ شرف الدولة والفداء الذي بدونه لا يكون أمّة ولا وطن، قالوا: ما لهؤلاء القوم ماشين بنا على سياسة العواطف، وفاتهم أن ليس هناك سياسة عواطف، بل سياسة حفظ الشرف الذي مَن فاته فليس له وجود في هذه الدنيا، ومَن فاته المعنى فاتته المادّة أيضًا؟!

نعم، انكسرت فرنسا وأُخذ أمبراطورها أسيرًا، وتبدّد جيشها وأحاط الألمان بعاصمتها وصارت جميع مقاوماتها عبثًا مع ذلك، واتّفقت جميع الأمم على أنَّ

إصرارها على الدفاع كان واجبًا لأنَّ الأمّة التي لا تدافع عن شرفها فليس لها بقاء ولا أرض ولا سماء، وأنَّ الناس الذين لا يحافظون على عواطفهم لا يقدرون أن يحافظوا على أموالهم ومرافقهم. فما قاومته فرنسا بعد انقطاع كلّ أمل في نجاحها في حرب ألمانيا لم يزدها إلاّ شرفًا وعزًّا.

وكذلك الروسية بقيت تكافح اليابان كفاح المستميت وهي واثقة بعقم كلّ حركة من حركاتها، وقد طوّحت بأسطول البلطيك[1] إلى بحر الشرق الأقصى وهي على يقين بأن سيناله من أسطول اليابان ما ناله، لكن لم تجد بدًّا من إيصال شعبها إلى درجة اليأس التامّ خوف انتقاضه عليها، ولم يلمها أحد على ما فعلت ولا ازدادت إلاّ رفعة في نظر العدوّ والصديق.

فأمّا العثمانية، فليس لها أن تحافظ إلى الآخر على شرفها ولا أن تدهق الكأس إلى أصبارها، بل يجب أن تبادر إلى قطع الأمل وتتجرّد من جميع العواطف ولا يكون لها إسوة ببقيّة الأمم لأنَّ عندها مَن يقرأ عليها فلسفة جديدة؛ مع أنه لو أخذ البلغار أدرنة بدون حرب، كما كان تقرّر مع المرحوم كامل باشا، لَما كان جرى بين الحلفاء البلقانيين ما جرى من الخلاف الذي اهتبلنا من ثناياه الغرّة[2] التي أعادت لنا أدرنة وقسمًا من شرفنا. وذلك أنه لمّا أخذ البلغار أدرنة قَوِيَ عزم اليونان على استبقاء سلانيك، وطمع الصرب في الاحتفاظ بمناستر لأنفسهم، فلمّا قام البلغار يزاحمونهم عليهما بالمناكب أجابوهم بقولهم: حسبكم أدرنة التي أخذتموها ولم تكن داخلة في الحساب! فقال البلغار: هذه قد استولينا عليها بسيوفنا. فقال الصرب: إنّنا أنجدناكم لأخذها بنحو سبعين ألف جندي، وأرسلنا من عساكرنا إلى حدّ شتالجة. وقال اليونان: لولا مشاغلتنا للدولة العثمانية من الغرب وسدّنا عليها باب البحر الأبيض لَما تسنّى لكم أن تأخذوا أدرنة ولا غير أدرنة، فوقع بينهم من المشاحنة بسبب أدرنة ما أعاد الجدال جدالاً وانحلّ ما كان

---

(1) البلطيق.

(2) الغفلة.

انعقد من حلفهم انحلالاً غريبًا، كان لنا فرصة لاسترداد ثلثي تلك الولاية ورجوعنا دولة أوربية بعد أن كانت الأستانة قد أصبحت لا تصلح عاصمة للعثمانية وصار وسطنا طرفًا.

ولا نعيد الآن ما بدا منهم يوم استرجاع أدرنة من العذل والتنديد، وما ردّدوه في جرائدهم من الكلمات الدالّة على غصّتهم بهذا الشرف الذي تسلّت به الأمّة العثمانية على عظيم بلاياها، فقد أشرنا إليه سابقًا ولكنّه سيبقى إلى ما شاء الله سمعة عار على هذا الوطن التاعس الذي لم تضربه أوربا بحروبها ولا الأمم السلافية بهجماتها ضرر هذه الأرواح الخبيثة في جنباتها.

وسيقولون لك: هذه أمثال قلائل في أمّة كبيرة لا تخلو منها أمّة ولا وطن، وهذه مفاريد حواديث لا يُبنى عليها حكم، وما كنّا بأقلّ من الاتّحاديين أسى على سقوط أدرنة ولا أقلّ فرحًا باستردادها، إلى غير ذلك ممّا اعتادوا التمويه به! والجواب أنَّ هذه الأعراض المخجلة التي ظهرت في الأمّة العثمانية إنّما كانوا هم أعظم أسباب ظهورها، وأنَّ هذه اللامركزية التي قاموا بها في هذه المدّة وأصحبوها الحملات الشنيعة على الحكومة هي التي أوجدت في أكثر المعارضين للحكومة روحًا لا تليق إلاّ بأمّة يتخطّبها الشيطان من المسّ، إن لم تكن خائنة ساقطة.

ولا نقول إنَّ كلّ المعارضين وكلّ اللامركزيين كانوا منوطين على هذه السرائر ـ حاشا الله ـ ولكنّنا نقول إنَّ مئات منهم أو ألوفًا كانوا يشتفون بخسائر الدولة ومصائبها وهزائم إخوانهم غيظًا بالاتّحاديين، وإنَّ في ذلك من العار والإثم ما هو كافٍ، وما لا يمهّد له عذر ولا يغتفر له وزر. ومَن دقّق في جرائدهم وأنعم النظر في كتاباتهم لم يُخفَ عليه أنهم كانوا شامتين، بل كانوا كأنهم ليسوا من هذه الأمّة المقهورة.

وزِدْ على ذلك أنَّ حركتهم لم تبطل، ومشاغبتهم لم تقف عند حدّ، ولا يزالون يترقّبون كلّ فرصة؛ وإن كانوا أبدوا التوقّف والتريّث، فلم يكن ذلك منهم

ضنًّا بالمصلحة ولا رفقًا بالدولة، ومنهم عصابة يعملون على هدمها من أساسها، ولكنْ خافوا إذا ظهرت سرائرهم بتمامها أن يقوم عليهم العامّة الذين خدعوا كثيرًا منهم بقولهم إنّهم إنّما يريدون ليصلحوا الأمور ويخفّفوا عن عواتقهم أحمال سوء الإدارة.

وبينما الدولة ترضى أن تفاوضهم في الأمور العامّة، ولا تأنف من معاملتهم معاملة الأب لأولاده بعدما جرى من الأفعال، إذ نشروا رسالة سمّوها «بيانًا للأمّة العربية من حزب اللامركزية»، عادوا فيه إلى نغمتهم الأولى، ولم يكتفوا بما لا يزال محيطًا بالدولة من الأخطار والمشاكل وبما يبرز من الروسية من الحركات الموجّهة لاضمحلال الدولة والإسلام، وبقيامها، بعد تخليص الروملي من أيدينا، إلى فتح مسئلة في الأناضول تكون لنا مكدونية[1] ثانية وتؤول إلى تقسيمنا نظير العجم، حتّى أوحت إليهم قلوبهم الجاسية أن يشاقوا الدولة أيضًا في هذه الأزمة، كأنهم آلوا على أنفسهم أن لا يدعوا أزمة تقع فيها الدولة إلاّ كانوا أول من صبّ على نارها زيتًا، فجاءونا[2] برسالة استهلّوها بقولهم: «من المعلوم أنَّ الأمّة العربية المستظلّة براية الهلال العثماني من أخلص الأمم للدولة العلية... إلخ»، وهذه حقيقة مسلَّمة؛ فإنَّ كلّ العرب مخلصون للدولة، وإنّما يخلصون بذلك لأنفسهم وما خلص منهم من الإخلاص للدولة إلاّ أولئك النفر الذين هبّوا يثيرون عليها المشاكل ويمشون إلى بلاد الأجانب مستعينين بهم على الدولة المتبوعة. ثمَّ قالوا: «صبرت الشعوب العربية العثمانية على ذلك طويلاً، وللصبر حدّ ينتهي آنه. ولمّا رأت هذه الشعوب أنَّ الالتجاء إلى رابطة عامّة دَخَلَها الوهن والسكوت على مرض بلغ حدّ الأعضال ليس من الإخلاص للدولة التي يودّون بقاءها في شيء، هبّ عقلاؤهم والمفكّرون فيهم إلى البحث عن أقرب الطرق المؤدّية إلى السلامة...».

يعنون بذلك، كما هو ظاهر، أنَّ الرابطة العثمانية دخلها الوهن فلا بدّ من

(١) مقدونية.

(٢) فجاؤونا.

الاعتياض منها برابطة أخرى، وهذا ظاهر لا يحتاج إلى تأويل ولا يقبل مماحكة. ويا ليت شعري إذا انحلّت هذه الرابطة بالوهن الذي لم يدخل إلاّ بوجود المشاقين في الأمّة، فإنَّ الرابطة التي يَعِدون الناس بها ويخيّلونها كفيلة بالنهوض هي أشدّ وهنًا وأسرع انحلالاً وأوهى أساسًا! ومَن عرف دخائل الأمّة العربية وتَبَطَّن سرائر سورية خاصّة، فَهِمَ كيف أنَّ تلك الرابطة التي يسعون إلى إقامتها مقام الرابطة العثمانية ليست سوى ربقة يهيّئون لها أعناق أبناء جلدتهم؛ فهم مطوّقون، وجامعة يجمعون إليها أيدي أولاد وطنهم، فهم مقمحون، والسعيد مَن اتّعظ بغيره، والعاقل مَن قاس يومه على أمسه، والبصير مَن أبصر ما حواليه وأحسّ بما يجري تحت رجليه! ثمَّ قالوا: «إنَّ أدواء الوطن والأمّة كثيرة ترجع كلّها إلى أمر واحد، هو شكل الإدارة التي تدار بها المملكة...».

لا نزاع أنَّ شكل الإدارة محتاج إلى التبديل، وأنَّ المركزية الشديدة، خصوصًا في أمر المعارف والأشغال العمومية هي غير مساعدة للترقّي، ولكن هذا الأمر قرّرته الدولة قبل اجتماع حضراتهم في باريز، وقبل وجود اللجنة العليا والسفلى، ولذلك لم يكن من حاجة إلى تلك الجلبة التي لم يكن لها فائدة سوى زيادة ضغط الأجانب على الدولة، وتحيُّفهم جوانب الأمّة. فأمّا كون أدواء الأمّة كثيرة وكون مرجعها كلّها شكل الإدارة، فليس بصحيح؛ فإنَّ مرجع الأمراض والعلل هو في الحقيقة كون الدولة دولة إسلامية وحيدة بين دول عديدة تخالفها كلّها في المذهب وتطمع في توارثها، فهي ترهقها من كلّ جانب حتّى لا تقدر على لمِّ شعثها، وهي حقيقة كنّا نودّ لو استغنينا عن التصريح بها تحاشيًا لنسبة التعصّب، لكن ـ لسوء الحظّ ـ هي الحقيقة الوحيدة، وما دام كثير من الأوربيين يصرّحون بها، فلا عجب إذا قَفَوْنا في ذلك إثرهم.

ثمَّ ذكروا عدم استفادة المملكة من كنوزها الطبيعية، وتأخُّر البلاد من كلّ وجه؛ وهذا، وإن كان رجال الباب العالي أنفسهم لا ينكرونه، فإنَّ فيه إغراقًا كبيرًا لأنَّ التقدّم المادّي والمعنوي أمر مشهود، لا سيّما في الشام، ولأنَّ صعود الأثمان

والأسعار وازدياد المحاصيل وتضاعف أعداد طلاّب العلوم في جميع أقطار سورية بدون استثناء هو فائق أمثاله في كلّ صقع آخر، حتّى في مصر، فلا يصحّ أن يعدّ ذلك تأخّرًا ويكون من باب كفران النعمة وإنكار الحقائق المعزّزة بالأرقام. وللدولة نفسها في هذا الرقيّ اليد الطولى خلافًا لِما يتشدّق به المتفقّهون الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم! ثمَّ أشاروا إلى عدم كفاية الموظّفين الذين يقذف بهم المركز إلى الولايات. وهذه قضيّة منها قسم كبير صحيح، ولا إنكار في أنَّ في انتخاب المأمورين تساهلاً يجب النظر في العدول عنه، ولكن علمنا بالتجارب أنَّ المأمورين الذين في ولاياتنا ليسوا إلى اليوم أعلى درجة في الكفاية من الذين يقذف بهم المركز ويقذف بحقّهم هؤلاء المتعنّتون، وهذه هي المجالس البلدية في كلّ الولايات متمتّعة بأوسع الحرّية ومنتخبة من أماثل مَن عندنا، ولا نظنّ دائرة من دوائر الدولة أشدّ تأخّرًا من دوائر البلديّات التي كان ينبغي أن تكون، بحسب زعمهم، مصدر سعادة البلاد لتوفّر شروط العمل فيها، وكونها على حدّ قول المتنبّي:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئًا   كنقص القادرين على التمام

هذا، والنادر لا عبرة به.

ثمَّ قالوا: «إنَّ عقلاء العرب فكّروا فيما يجب عمله لأجل ملافاة الخطر، فلم يجدوا طريقة للسلامة إلاّ بأن يناط بأهل كلّ ولاية النظر في شؤونها الإدارية والتعليمية».

والجواب عليه، أنَّ الدولة ضمنت هذا الغرض للولايات العربية وغيرها بقانون الولايات الجديد الذي فيه أكثر ممّا ذكروا لِمن أراد أن يتدبّر وينصف، لا لِمن أراد أن يتعنّت ويتعسّف، وعلى فرض أنه لم يزل فيه بعض النقص، فكان يمكن لمجلس الأمّة عند التئامه أن يسدّده.

قالوا: «كذلك تأسّس في مصر حزب اللامركزية الإدارية وارتاح إليه جميع المخلصين... إلخ»؛ نعم، ارتاح إلى هذه الحركة كلّ مَن يتربّص بالدولة الدوائر،

وكلّ مَن يرود للأجانب في بلاد الشرق، وكلّ مَن ينتظر شبوب الفتنة بين العرب والترك، وأفراد قلائل ممّن خدعتهم تمويهات هؤلاء الأساتذة من دجّالي الإصلاح، ولم نعلم أنَّ الأمّة العربية ارتاحت إلى تلك الحركة، لا سيّما في الظروف الزمانية والمكانية التي اختاروها لها.

ثمَّ قالوا: «لم يشذّ عن مشاركتنا بهذا الشعور إلاّ أفراد من عبَّاد المنفعة في الأمّة العربية».

فحاشا الله أن يكون بلغ الانحطاط من أخلاق الأمّة العربية إلى أن يكون الشعور السائد فيها هو مشاغبة الدولة في أشدّ أزماتها، وانتهاز فرصة ضعفها لأجل المطالبة بالاستقلال الإداري، ورفع نعرة الجنسية على نعرة الدين التي لولاها لم يكن شيء، والتي بها قامت دولة العرب.

وعَقْد المؤتمرات في بلاد الأجانب ومراجعتهم بصورة رسميّة في الأمور الداخلية الصرفة التي لا ينبغي أن تدور مذاكراتها إلاّ بين العثمانيين فقط، حاشا ثمَّ حاشا أن يكون موافقًا جمهور العرب على هذه المساعي التي إنّما تليق بأصحابها المعهودين! ولقد أثبت جمهور العرب، إلاّ شذاذًا قلائل ليسوا في العير والنفير، أنَّ هذه الأفكار هي بعيدة عنهم بُعْدَ الأرض عن السماء، وأنهم جميعًا يطلبون الإصلاح ولكنّهم لا يطلبونه على هذا الشكل، ويريدون تبديل شكل الإدارة ولكن لا يطرقونه من هذا الباب، وهؤلاء هم أمراء العرب، وسادات العرب، وغطاريف العرب، وصناديد العرب، من الشام ومصر والحجاز ونجد واليمن واليمامة والعراق والجزيرة والغرب!

ليقل لنا هؤلاء القائلون مَنْ مِنْ هؤلاء أرسل إلى اللجنة اللامركزية في مصر يقول لها: قد أحسنتِ فيما فعلتِ من هذا القيام في هذا الوقت الصعب؟ ومَنْ فتح الأبواب التي فتحتها على الدولة في سورية وفي البلاد العربية؟ أو مَن منهم أبرق إلى مؤتمر باريز، الملقّب بالعربي، قائلاً: إنّنا نحن قد وكّلناك عنّا وفوّضنا إليك أمر

المطالبة بحقوقنا؟ وإنّما كانت هذه الفئة عبارة عن أفراد قلائل في بعض مدن سورية جمعتهم على هذه الأفكار أسباب متعدّدة، واستمدّوا القوّة من ضعف الدولة ومصائب الإسلام، وكسبوا المكانة التي كسبوها، لا بأهمّيتهم في قومهم، ولا بموازرة عنصرهم، لهم، بل بمراجعتهم الدول الأجنبية ووضع أيديهم في أيدي العناصر المقاومة للدولة، وكفاهم بذلك خزيًا لو كانوا يشعرون! وأمّا قولهم الذي لا يزالون يكرّرونه بأنَّ مقاومي حركتهم إنّما هم من عبّاد المنفعة، فالله يعلم أنَّ مقاوميهم هم أشرف منهم نفوسًا وأعلى هممًا وأزهد في الدنيا وأبعد عن المنافع الشخصية، وأنهم لم يقوموا لإبطال سحرهم وتضليل كيدهم طمعًا في جاه ولا مال، ولا استذلالاً لنعمة أو منحة، ولكن خوفًا على بلادهم من الهزاهز والفتن، وريبةً بأوطانهم عن أن تجرّ إليها هذه الحركات ما جرّته إلى غيرها؛ فإنَّ استمرار النزاع بين الأحزاب والعناصر، وتمادي الأخذ والردّ، والإيجاب والسلب، لا يمكن إلاّ أن يؤدّيا إلى فتنة داخلية تكون سببًا لتدخّل أجنبي في سورية، وربّما تَبع هذا التعرّض الأجنبي لسورية تعرّض لدول أخرى من قبيل التعويضات، على رأيهم، فنكون فتحنا بأيدينا باب تقسيم السلطنة العثمانية، فضلاً عن أن نكون اقتدحنا زند فتنة في سورية ترمي علينا بشرر كالقصر؛ فخفنا على بيوتنا ورجالنا، وأشفقنا على أعراضنا ودمائنا، وعلمنا ما عندنا من الحزازات والأحقاد الكامنة إلى يوم انفجار الدم، فهل لنا أن يصيبنا ما أصاب المسلمين والنصارى في الروملي، أو أن تعاد فينا الفتن السابقة، وما يوم حليمة بسرّ، فنقع في الدواهي التي تصفرّ منها الأنامل، عندما يكون أولئك الذين أشعلوا هذه النار جالسين من حول حديقة الأزبكية ينظرون إلى الفرارات[1] الكهربائية العادية ويقرأون الصحف والبرقيّات الآتية بأخبار خراب الوطن وتناحر الجيران، حين لا ينفع النادمين ندم ولا يغني عن اللائمين لوم؟! هذه أسباب مقاومتنا لهذا الفساد لا غير، وهؤلاء القوم لا يزالون يفترون على الناس ويرمونهم بالتملّق إلى الدولة والتزلّف إلى الترك والممالاة على

(١) كلمة مأخوذة عن الفرنسية phare، وتعني "منارة". (المحقّق)

العرب طمعًا في كسب مال أو نيل منصب، ويشيعون أنَّ مقاومي فسادهم أخذوا الأموال الجزيلة والبدر المصرورة، وأنهم أثروا من مال الدولة وأنعلوا أفراسهم بنعماها عسجدًا، إلى غير ذلك ممّا يعلم الله وملائكته، بل يعلم الناس في سورية أنه لا نصيب له من الصحّة. ولو تأمّل هؤلاء المفترون قليلاً، لوجدوا أنه لو صحّ شيء ممّا يقولون لكان أصغر جرمًا وأخفّ تبعة من أخذ بدر الأجانب ومدّ اليد إلى عدوّ الوطن لقبض المال الذي يتمكّن به من مدّ اليد إلى الوطن نفسه.

ثمَّ يقولون إنَّ جمعيّة الاتّحاد والترقّي التركية أرسلت مندوبًا من قِبلها للاتّفاق مع أعضاء المؤتمر، بعد أن نحلوه اسم العربي، وجعلوه نائبًا عن الشعب العربي الكريم، وحقيقةً أنه لا يمكن أن يقال إنَّ جمعيّة الاتّحاد والترقّي تركية، بل عثمانية، وهناك فرق ظاهر، وهي التي ضمّت من العرب سادة لا يقاس بواحد منهم أحد من جماعة اللامركزية، بل هي التي كان من جملة أعضائها هؤلاء الذين قاموا اليوم ينصبون لها العداوة. وأمّا كون هذه الجمعيّة ممّا يليق بصدقها للدولة وينطبق على مبادئها في ضمد الجراح العثمانية أن لا نأنف من المفاوضة مع بعض شبّان من تبعة آل عثمان تهوّروا بسبب من الأسباب في عثرة يرجون إقالتها، ودخلوا في مسئلة أصبحوا ينشدون منها مخرجًا شريفًا، فأرسلتْ إليهم مَن ينصحهم ويثير فيهم عواطف العثمانية، ويذكّرهم بواجباتهم الوطنية، إن لم تكن واجباتهم الدينية، لعلّهم يتّخذونها فرصة للإنابة، فهذا لا محلّ فيه للانتقاد. فأمّا ما ذكروه من أمر الاتّفاقية مع بعض التحوير، ومن قضيّة الإصلاح، فالحقيقة فيه أنَّ جمعيّة الاتّحاد والترقّي لم تكن تجهل حقيقة مؤتمرهم هذا، وإنّهم لم ينوبوا فيه إلاّ عن أنفسهم وعن زمرة صغيرة ممّن شاكلهم، ولكنّها ظنّت بالتساهل مع بعض أبناء الوطن الوصول إلى سدّ هذا الباب، وإماطة ذلك العار، ورضيت بما رضيت به على هذا الأمل، ولكنَّ الحكومة هي غير الجمعيّة، فلم تقدر أن تجاري هؤلاء المطالبين في جميع أهوائهم، وإنّما نشرت بعض القرارات تسكينًا لخواطرهم؛ ولم تكن قراراتها هذه نشأة جديدة أحدثها مؤتمرهم الباريزي، ولا لجنتهم العليا، بل

هي أمور مقرّرة عندها من قبل، ارتضت نشرها على الملأ أثناء مجيئهم إلى الأستانة حتّى لا تدع محلاً للائمة ولا مجالاً لتهمة كبرى على أبنائها، فجعل هؤلاء ينفخون في أبواق عظمتهم مردّدين كلّ يوم ذكر الاتّفاق بين الجمعيّة والمؤتمر، وناشرين قرار مجلس الوكلاء والإرادة السنية، إيهامًا بأنه لولاهم لم تكن في هذا الموضوع إرادة سنية ولا قرار وكلاء، وأنهم هم الذين استدرّوا كلّ هذه العطايا واستنزلوا جميع هذه النعم، ومع هذا فإنّهم لولا حرج موقف الدولة وإشفاقهم على الوطن لم يكونوا ليرضوا بها، فرضاهم بها إنّما مؤقّت! وكلّ هذا منهم تزيُّد بما ليس فيهم وتعاظم في عيون العامّة. وما تَزَيَّدَ متزيِّد إلاّ لنقص يجده في نفسه!

ثمَّ نشروا برنامج حزبهم وأردفوه بالاتّفاقية التي عقدت مع الشبيبة وصدّقها مؤتمر باريز، وأردفوا ذلك ببيان الحكومة بموجب برقيّة صادرة من نظارة الداخلية، حتّى يخال القارئ أنَّ كلّ هذه القرارات سلسلة متّصلة؛ فلولا الاتّفاقية التي صدّقها مؤتمر باريز لم تكن برقيّة نظارة الداخلية، ثمَّ لم تكن الإرادة السنية بالإصلاحات العربية! وأيّ دليل بعد هذا أعظم من هذا الدليل على فضل اللجنة العليا على الأمّة العربية؟! فليقدّسوها وليسبِّحوا بحمدها، وليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف! لا جرم أنَّ فضل هذه اللجنة على العرب لكفضل النيل على مصر، ما بقيت عندنا في ذلك مرية! ثمَّ إنّهم أجروا المقابلة بين هاتيك الاتّفاقيات وبين بيان الحكومة، واستخرجوا منها الفروق المهمّة التي آلت إلى توقّف حزب اللامركزية عن إرسال وفده إلى الأستانة كما كان قُرِّر، ونشروا صورة كتاب أرسل به رفيق بك العظم إلى «أحد أركان الدولة» يقول فيه: إنّه مع تكذيب جمعيّة الاتّحاد والترقّي في جريدة «طنين» لخبر الاتّفاق الذي حصل بصورة مهينة لطلاّب الإصلاح، فإنَّ اللجنة كانت باقية على عزم إيفاد الوفد لاعتبارها أنَّ الحقائق هي التي تنشد لا الألفاظ، لكنَّ الحكومة ببيانها الأخير شوّهت مواد تلك الاتّفاقية تشويهًا أدخل اليأس من جديد في نفوس أعضاء حزبهم، وهو، أي رفيق بك، يخاطب ذلك الركن من أركان الدولة بصفته من شهود ذلك الاتّفاق بأنَّ اللجنة

عوّلت على إيقاف الوفد حتّى ترضى الحكومة بتطبيق الاتّفاقية بالحرف، أو إيداع مسئلة اللامركزية إلى رأي الأمّة؛ وإن كانت الحكومة لا ترى لا هذا ولا ذاك، فقد عوّل رفيق بك العظم، الركن الآخر من أركان الأمّة، على المضي في الوجهة التي رسمها الحزب لنفسه، تاركًا تقدير النتائج المترتّبة على ذلك إلى ضمائر القابضين على زمام الأمر اليوم...، إلخ.

يتهدّدون الدولة بأنها إن لم تجبهم إلى مطالبهم، فإنّهم يحدثون أحداثًا ويخلقون مشاكل ويجرون غوائل، ويا حبّذا لو كانوا يتهدّدونها بأهمّيتهم وبما لهم من النفوذ والتأثير في العرب، ولكن كلّ تهديدهم وصلفهم وجميع تدلّلهم وتعجرفهم هو مبني على اعتقادهم حرج مركز الدولة ووجودها بإزاء دول عظام كلّ منها يجاذبها الحبل من جهة، والدليل على ذلك أنه ما ظهرت منهم هذه القوّة إلاّ عندما ظهر ضعف الدولة، وأنهم ما تورّدوا هذا الإصلاح الذي ملأوا الأرض بألفاظه الضخمة إلاّ من ثنايا هزائم الجيش العثماني، وأنهم لو علموا أنَّ الأمّة تجيب ندائهم لَما أحجموا عن شيء من الحركات التي تفتّ في عضد الدولة إجبارًا لهم على إرضائهم، لكنّهم خافوا أن يفتضح أمرهم أكثر ممّا افتُضح، فظهروا بمظهر المناصح الذي كظم الغيظ حبًّا بسلامة الناس، ولكن لا يفتأون ينذرون الدولة ويتوعّدونها لأقلّ حادثة، علمًا بوفرة مشاكلها وكثرة أعدائها والاعتماد على غيرها والاعتزاز بضدّها، ولَبئسَ ما ارتضوه من هذا الموقف لأنفسهم لو كانوا يعقلون!

ثمَّ رموا في الفلسفة إلى أبعد شأو المرتمي، فجاءونا[1] بآيات جديدة في تاريخ الأمّة العربية، ورجعوا بنا إلى مشترعين غير محمَّد بن عبد الله بن عبد المطّلب (ﷺ) ممّا يؤكّد ما طالما سمعناه منهم وعنهم من المبادئ الذين[2] يريدون أن يزرعوها في الأمّة العربية، فقالوا:

«إنَّ الأمّة التي استمدّ منها العالم القديم روح المدنية والتشريع منذ ستّة آلاف

(١) فجاؤونا.

(٢) التي.

سنة، أي من عصر حمورابي، وكان العالم الجديد مدينًا في مدنيّته لها من ألف سنة، أي في عصر الرشيد والمأمون وما بعدهما، لا يجوز العدل والإنسانية أن تُسحق بأقدام الطامعين والسياسيين. وإنَّ الأوطان التي أنبتت حمورابي، أول واضع للشرائع المدنية، وأخرجت مثل موسى وعيسى ومحمَّد، عليهم الصلاة والسلام، الذين قلبوا نظام العالم الإنساني وأخرجوه من ظلمات الوثنية والرذائل إلى نور التوحيد والفضائل، لا يجوز أن تكون أوطانًا لغير أهلها النابتين من ترابها... إلخ".

أولاً ـ إنَّ الإسلام قد نهانا عن مفاخرات الجاهلية، وإنَّ الشرع لا يعلم لدى سلب الإسلام فضيلة مذكورة. فالاعتزاء إلى حمورابي والاعتزاز بحمورابي ليسا من روح الإسلام في شيء.

ثانيًا ـ إن جاز الفخر بفرسان الجاهلية أو بإشراف الجاهلية، أو غير ذلك ممّا قبل الإسلام، فلن يجوز الفخر بشريعة زعم اللامركزيون هؤلاء أنها من وضع العرب قبل الإسلام، وأنها أول شريعة وضعها الناس، فإنّه لا شرائع للمسلم مع الشريعة المحمَّدية كما لا يخفى.

ثالثًا ـ إن زعموا أنَّ مقصدهم بالتنويه بشريعة حمورابي هو بالنسبة إلى ما قبل الإسلام، أو على رأيهم، العالم القديم، وأنه كان مدينًا بالمدنية لحمورابي، فما معنى قولهم إنَّ العالم الجديد مدين للأمّة العربية بالمدنية منذ ألف سنة؟ ولماذا لا يقال إنَّ العالم الجديد مدين بالمدنية للعرب منذ ألف وثلثمائة سنة، أي منذ بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام؟!

رابعًا ـ ظهر أنَّ مرادهم بتحديد ابتداء مدنية العرب منذ ألف سنة فقط لا ألف وثلثمائة سنة، تاريخ ظهور الإسلام، أنهم لا يعتدّون ظهور الإسلام مبدئًا للمدنية، ولا صاحب الدين هو المعلّم الحقيقي للخير، وإنّما يعتدّون مبدأ التمدّن العربي خلافة الرشيد والمأمون، حسبما صرّحوا به، لكون الرشيد والمأمون هما اللذين أمرا

بتعريب كتب اليونان، وعُنِيَا بفلسفتهم. فالمدنية بزعمهم لم تبدأ بالقرآن، بل بفلسفة اليونان، كما لا يخفى على كلّ مَن تأمّل في عبارتهم.

خامسًا ـ بعد أن ذكروا حمورابي مرّتين في فقرة واحدة وجعلوه أول واضع للشرائع المدنية، عادوا فستروا الدسيسة بذكر أصحاب الشرائع الثلاث، موسى وعيسى ومحمَّد، صلوات الله وسلامه عليهم، فجعلوا للنبي الأعظم حصّة من جملة حصص في مكان لا يجوز أن يُذكر فيه معه غيره، لأنه مخصوص بالتشريع، ولأنَّ الشريعة المحمَّدية هي أكمل الشرائع بإقرار الجميع.

سادسًا ـ إذا كان محمَّد (ﷺ) نقل الناس من ظلمات الوثنية والرذائل إلى نور التوحيد وفضائله، فما معنى هذه المفاخرة بالعرب قبل الإسلام؟ وما وجه تذكار ذلك التاريخ العربي المملوء بفظائع الجاهلية وسفّاحها ووأد بناتها وعبادة عزاة ومناتها وما لا يزالون يكرّرونه على أسماعنا بكرة وأصيلاً من كون العربية هي مقدّمة على الإسلام، وأنَّ الإسلام طارئ عليها مع أنه ما اعتزّت العربية إلاّ بالإسلام؟!

سابعًا ـ لنترك كلّ العقائد الدينية ولننظر إلى المسئلة نظر أجنبي غير متعصّب، فإنّنا نجد عندئذٍ أنَّ شريعة حمورابي التي أشاروا إليها إنْ هي إلاّ بصيص ضعيف من نور خفيف لا يذكره عاقل بجانب شمس الإسلام المشرقة، وأنَّ القوانين المنسوبة إلى حمورابي لم تكن سوى بعض اصطلاحات من قبيل العين بالعين والسنّ بالسنّ، وممّا اصطلح البدو وأشباههم على ما هو أرقى منه في درجات المدنية، فأين هذا من الشريعة المحمَّدية التي لا تزال شرائع الدنيا عيالاً عليها؟ حتّى إنَّ أوربا الراقية العالية لتستمدّ منها ما ينقصها من الأحكام إلى يومنا هذا، ولا تأنف حكوماتها أن تراجع مشيخة الإسلام في الأستانة في معرفة كثير ممّا خلت منه شرائعها تمامًا مع أنه مبذول في كتب فقهائنا.

ثامنًا ـ غاية ما وصل إليه التحقيق إلى هذا اليوم من أمر مشترع اللامركزيين

الجديد هو أنه ملك من ملوك بابل وُجد في نواحي العراق سنة ٢٢٥٠ قبل ميلاد المسيح، ويقال إنّه وحّد المدن البابلية مملكة واحدة وكانت لغته ولغة قومه بابلية. والبابليون خليط من أمم مختلفة يُظنَّ أنهم لا يرجعون إلى أصل سامي. ويذهب بعضهم إلى أنَّ طائفة من العرب هاجرت إلى أرض بابل وأنَّ لغتها غلبت على لغة أهلها، وعلى هذا لا يمكن أن يُجزم بأنَّ البابليين هم عرب، والعرب ساميون. وإنّه على فرض كان امتزج بهم قوم من العرب ممّن يسمّى بالنبط، فلا يكونون بذلك عربًا! قال المتنبّي:

بها نبطيٌّ من أهل السواد يدرس أنساب أهل الغلا

وهل صار قصارى أمرنا بأن نفتخر بكوننا نبطًا من سواد العراق قبل الإسلام؟ ولو فرضنا أنَّ حمورابي هو عربي النسب أصلاً، فلم يبقَ عربيًّا بعد أن صار ملكًا لأمّة غير عربية، فإنَّ المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد، وإنَّ كثيرًا من فرسان العربية اليوم ليسوا منها، ولا قلاّمة ظفر، ومع هذا فهم يتكلّمون بلسانها وهم مستعربون.

ثمَّ قالوا إنّهم لا يعلّمون عربيًّا مخلصًا تظلّه راية الهلال العثماني إلاّ وهو يريد البقاء للدولة والحياة مع إخوانه الأتراك تحت راية واحدة، كما أنه لا يوجد عربي يعقل معنى الحياة يرضى أن يكون مكانه من هذه الدولة مكان العبد المملوك من المالك. والجواب، أننا لم نجد في كلامهم من أوله إلى آخره جملة واحدة نقبلها بدون اعتراض سوى هذه الجملة، ولكنَّ الطريق الذي ساروا إليه لأجل بقاء الدولة والحياة مع إخواننا الأتراك، ولأجل أن لا يكون العربي مع التركي بمنزلة العبد من السيِّد، ليس هو الطريق المؤدّي إلى سلامة عربيّ، ولا تركيّ، بل هو الطريق الموصل إلى هلاك الاثنين معًا، والنافذ إلى عبودية كلّ منهما إلى شخص ثالث هو الإفرنجي! ويا حبّذا لو شاهدنا من هذه الفئة ربع هذه الحميّة العربية في رفع ربقة الأجنبي من أعناق العرب الذين أصبح منهم ما يقرب خمسين مليونًا تحت سلطنة

إنكلترة وفرنسا وإيطاليا... إلخ؛ فنحن نقول قبلهم إنَّ أوطان العرب لا يجوز أن تكون أوطانًا لغير أهلها.

ثمَّ عادوا إلى الجعجعة بالفارغ، فقالوا إنّه في اليوم الذي يصدر فيه منشورهم هذا «تهتزّ أسلاك البرق وتنبض عروقه بين عاصمة الدولة وجميع الولايات العثمانية العربية والجاليات العربية العثمانية في الممالك الأجنبية، فتشعر حكومة العاصمة بما تنبض به قلوب العرب العثمانيين في مشارق الأرض ومغاربها؛ وإنّه في ذلك اليوم تستوي الشمس على كرسيها من القبّة الزرقاء، وفخامة الصدر الأعظم مستوٍ على كرسيه في الباب العالي، ووفود طلاّب اللامركزية من العرب واقفون في إدارات التلغراف في سورية وفلسطين والجزيرة والعراق، وفي أوربا، وفي أميركا، يخاطبون فخامته بما نصّه...» (وذكروا صورة تلغراف ورد يومئذٍ إلى الصدر وناظر الداخلية بطلب اللامركزية).

إنّنا نرى جعجعة ولا نرى طحنًا، وإنّنا نأبى أن يقع مثل هذا الكلام باسم العرب الذين لو كانوا بالفعل قائمين بهذه المطالبة ـ حسب زعمهم ـ لهزّوا أركان الأرض فضلاً عن أركان الدولة العثمانية، إلاّ أنَّ العرب لم يطالبوا الدولة بما زعم هؤلاء الجماعة، وما هبّ منهم إلى هذه المطالبة والمشاغبة سوى أفراد معدودين، كما قدّمنا آنفًا، ولذلك استوت الشمس على كرسيها في القبّة الزرقاء ولم يحصل شيء سوى تقديم تلغراف بصورة واحدة من دمشق الشام فيه نحو ٥٠ توقيعًا من بعض الناقمين والمخالفين لأسباب شخصية تدلّ على قلّتهم؛ وضع اسم الأب وابنه، والأخ مع أخيه لا، بل مع أخويه معًا، وتلغرافات من بعض قصبات سورية وفلسطين، كتلغراف من نابلس فيه بعض تواقيع، وآخر من جنّين فيه خمسة إمضاءات، وآخر من جبّاثة الخشب ـ قرية من قرى القنيطرة في حوران ـ وآخر من بعلبك، ولم نعلم أنَّ هؤلاء هم العرب وأنهم ممّن يقيم الأرض ويقعدها، بل هم من بعض العرب وليس لهم أن يتكلّموا إلاّ عن أنفسهم. ولم تكن الأمّة العربية الكريمة لترحّب بحركات مصادرها أوربا ومراميها ضعف الدولة العثمانية،

ولذلك، ولعلم الباب العالي مَن هم العرب، وما هي أفكار العرب، لم يهتزّ أصلاً بحركة الكهرباء ذلك اليوم ولو نبضت أسلاكه ببعض برقيّات جاءت على نغمة واحدة من بضعة أماكن! فكان على المتصدّرين للكلام بأسم العرب أن يراجعوا كبار الأمّة وأعيانها وعلماءها وأهل الحلّ والعقد فيها، وأرباب السنان والعنان منها، وسكّان الحجاز واليمن ونجد مِمَن هم سنام العرب، ولا يظنّوا أنَّ العرب هم موتى، وأنَّ شرذمة من المهاجرين إلى مصر وإلى أميركا يقدرون أن ينوبوا عن الأمّة العربية ويسلبوها حقوقها ويبيعوا ويشتروا عنها.

ثمَّ ختموا بيانهم ذاك بتهديد وتحريض قالوا فيه «ومَن أراد الحياة الطيّبة الشريفة لا يُلام، وإذا سعى لها سعيها نالها بسلام أو غير سلام، ومتى أرادت الأمّة فعلت، ومتى سارت وصلت».

آه، ما أشدّنا شعورًا بالحياة الشريفة الطيّبة! وما أشوقنا أن نرى العرب متمتّعين بها، ولكن في كلّ البلاد العربية لا في الشام وحدها، ولا بإزاء الترك وحدهم، بل في مصر والسودان وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وشنقيط وزنجبار ومصوع وغير ذلك! وآه، ما أشدّنا خجلاً عندما نرى أناسًا من قومنا أسدًا على الأتراك، وعلى الإفرنج نعائم، وصقورًا بإزاء إخوانهم، وبإزاء أعدائهم حمائم! ويا ليت شعري متى صار اللامركزي يقول «نالها بسلام أو بغير سلام» إلاّ بعد أن أنس ضعف الدولة على أثر حرب البلقان، وأيقن أنها من مشاغلها العظيمة وكروبها المدلهمة في شغل شاغل عنه؟! فقد كنّا نودّ لو ظهرت منّا هذه الرجولية في عنفوان أمر الدولة وعنجهية سلطان الترك لأننا، معاشر العرب، نأنف أن نقاوم الترك في أثناء غرّة، ونخجل من أن نطالبهم بالحقوق في إحناء نبوة، ولكن، حاشا للعرب أن يهدّدوا الدولة في يوم بؤسها وأن يكونوا للسلاف ردءًا في موالاة خطوبها! نعم، إنَّ الأمّة العربية متى أرادت فعلت، ولكن ليست لجنة اللامركزية هي التي متى أرادت فعلت! فإنَّ هناك أمّة عربية كريمة تدافع عن الدولة وعن الخلافة وتدافع عن أخلاقها معًا.

سيقولون إنّنا استضعفنا شعور الأمّة من جهة الدين فحرّكنا وتر الاعتقاد واستظهرنا به على دفع نظريّاتهم الواهية، ويطيلون القول في هذا الصدد؛ فما كان عليهم إلاّ أن يدفعوا دعاوينا هذه بمبادئ الإسلام الصحيحة التي ليس فيها فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلاّ بالتّقوى، وأن يكتفوا بالمساجلة بآثار محمَّد عن آثار حمورابي في وضع شريعة مدنية.

وسيميلون علينا إلى جهة المسيحيين ميلة واحدة، كما جرت لهم عادة أن يفعلوا، ويقولون لهم إنّنا إنّما نهيِّج التعصّب الديني الذي يبغون هم إزالته ودحض أدرانه من هيئة العرب الاجتماعية؛ والحال أننا أصدق منهم لإخواننا المسيحيين، وأننا لا نسرّ لإخواننا المسيحيين خلاف ما نظهره، ولا ندّعي أمامهم بغير ما نحن منطوون عليه، رغبة منّا في إخاء، ولا نحاربهم ونؤاخيهم معًا ونقول إنّما نحن عليهم رقباء، ولكنّنا نحبّ أن نعيش وإيّاهم بسلام وولاء، وأن نتساكن ونتعاشر معهم على أتمّ وئام وصفاء، وأن يأخذوا حقوقهم، بل زيادة على حقوقهم برضى بيننا متبادل، وأن نكون وإيّاهم جميعًا أصحاب البلاد وحماة الأوطان، وإنّنا لَنعدّهم إخوانًا وأعضادًا ونجدهم أقرب الناس إلينا مودّة، كما قال الله تعالى، والله يعلم أننا نكره من إساءة المسيحي ما نكره من إساءة المسلم، ونعلم أنْ لا سعادة لهذا الوطن إلاّ بالتناصف والتساوي في الحقوق، وبالتوادّ والتصافي في الاجتماعات، ولكن لا يدخل في بروغرامنا هذا شيء من رفض إخاء أخينا التركي، ولا من ترجيح سلطة الأجنبي مهما وضعت لنا في قالب من الإصلاح، ولا من إيثار الجنسية على الدين حينما تكون أوربا لا تريد أن تعرفنا مساوين لأبنائها في الحقوق، ولا من سائر المنازع التي هبّ بعضهم لإحيائها في هذه الأيام، سابقين بها أوربا نفسها التي لا تزال تعرف جامعة الدين. وربّما قال قائل: لا غبار على هذا الكتاب في شيء سوى كونه شديد التعصّب للإسلامية، قائل بالدعوة الدينية؛ وجوابه: لنترك الدين جانبًا وننظر إلى نقطة استقلال الوطن، فنجد أنْ لا أمل بنجاة الشرق أجمع من السقوط في هاوية العبودية الأوربية إلاّ ببقاء الدولة العليّة، ولا بقاء للدولة العليّة

إلاّ ببقاء الإسلام، ولكن ذلك لا يفهم منه بغض المسيحيين الشرقيين والنفور منهم مع وجود الرابطة الوطنية الجامعة بينهم وبين المسلمين، والتي هي جامعة للمصالح، ناظمة للمنازع، مُنزِلة أبناء الوطن الواحد منزلة أبناء البيت الواحد، وعلى كلّ حال فهذا هو اعتقاد جمهور المسلمين، والأولى بأبناء الوطن أن يفهموا الحقائق كما هي وأن يستعمل بعضهم مع البعض الصراحة وعدم التمويه، إذ ذلك أدعى إلى التفاهم وأبعد عن التخاصم، ومَن كان منصفًا علم أنَّ المصارحة هي أولى من المداجاة، وأنَّ مَن يعالن برأيه منذ البداية هو أولى بأن يوثق بودّه ويركن إلى عهده ولو حمل عليه المتعصّبون، وأنَّ مَن يحاول تغطية الحقائق والمكابرة فيما عليه جمهور الأمّة، والتزيّي بغير زيّه وإرضاء أبناء وطنه بالكلام الفارغ والتزلّف إلى جيرانه بالرئاء وكتمان السريرة الصحيحة، هو أولى بأن يُنبذ ويُهمل وبأن لا يُعوَّل عليه في خصام ولا في وفاق! ولقد أغنانا الله، ولله الحمد، عن المداجاة والرئاء ولو ساء وقع ما نقول عند بعض مَن لا يحبّون أن يسمعوا إلاّ ما يشتهون، وسيفزعون إلى طريق الطعن والشتم، ويلجأون إلى الافتراء والبهتان، ظانّين أنهم بنحت أسلات الصادقين يحولون دون رفع أصواتهم بالنكير؛ فليعلموا أنَّ الشتم هو أوهى سلاح المقاتل وأهون حجج المُناظِر وأنه لا يخلو ممّن يذود بمثل سلاحهم ويناظر بشبه سبابهم، ولئنّ صبر عليهم الناس أول مرّة عندما لاذوا من ضعف حجّتهم بمعاقل الهجر وهجروا مراجع العقل، فيوشك أن لا يصبر جميع الناس إلى الآخر على عدوانهم، ويكيل لهم بعض أبناء الوطن بمثل صاعهم ومدّهم، ويقفوهم في تطوّحهم عند حدّهم، وإن كان لا يكفيهم هذا البيان عمّا فعلوه في عام الشدائد هذا وكانوا يكابرون فيما هنا من الحقائق، فإنّنا نزيده إن شاء الله شرحًا، وعند ذلك نفصّل ما أجملناه ونقيّد ما أهملناه. وإنّنا آلينا على أنفسنا أن لا نسكت على هذه الترّهات وأن لا نقبل إصلاحًا إلاّ بالاتّفاق مع الدولة، ومع مراعاة موقف الخلافة منحصرة في بني عثمان، وأن لا تأخذنا في الحقّ لومة لائم، وأن نحذّر ممّن يضلّ، ونقاتل مَن يبغي حتّى يفيء[1] إلى أمر الله. (انتهى)

[1] ماضيه فاء، بمعنى ترجع (رَجَعَ). (المحقّق)

فهرست المحتويات



١٨٦٩ ـ ١٩٤٦

بديهي أنَّ اختلاف الأديان واللغات وافتراق الأصول والأجناس هما ممّا يُورث المناظرات والمنافسات، ويقف حائلاً دون الالتحام التامّ والالتئام الذي يكمل به النظام، وممّا يُوجِد الوحشة بين القلوب ويمنع أنسة الأجناس بعضها ببعض، فلذلك طرأ على عصبيّة الدولة العثمانية من الوهن وداخلها من الاسترسال ما تظهر لنا آثاره يومًا بعد يوم، وما، لو كان في مملكة أخرى، لانحلّ نظامها وانتثر سلكها ودخلت في خبر كان منذ أزمان، ولكن الذي نسأ في أجَل الدولة العثمانية مع ما هي مصابة به من أمراض الداخل ومحاطة به من دسائس الخارج، هو كون مادّتها الكبرى هي الإسلام، وأنَّ المسلمين مهما افترقت أجناسهم وتباينت لهجاتهم يجمعهم الدين جمعًا لا يجمع أمّة غيرهم، ويزيل من الفروق العميقة والأبعاد السحيقة بينهم ما لا يزيله شيء، وأنَّ المسلم العربي يرى المسلم التركي والمسلم الأرناؤوطي أخًا له نظير أخيه العربي بدون فرق، عملاً بمحكم الكتاب الذي نزل فيه ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾، واقتداءً بسنّة الشارع الأعظم (ﷺ) القائل: "ترى المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كالجسم الواحد إذا تألّم منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".



١٨٦٩ _ ١٩٤٦

بديهي أنّ اختلاف الأديان واللغات وافتراق الأصول والأجناس هما ممّا يُورث المُناظرات والمُنافسات، ويقف حائلاً دون الالتحام التامّ والالتئام الذي يكمل به النظام، وممّا يُوجد الوحشة بين القلوب ويمنع أنسة الأجناس بعضها ببعض. فلذلك طرأ على عصبيّة الدولة العثمانية من الوهن وداخلها من الاسترسال ما تظهر لنا آثاره يومًا بعد يوم، وما، لو كان في مملكة أخرى، لانحلّ نظامها وانتثر سلكها ودخلت في خبر كان منذ أزمان، ولكن الذي نسأ في أجل الدولة العثمانية مع ما هي مصابة به من أمراض الداخل ومحاطة به من دسائس الخارج، هو كون مادّتها الكبرى هي الإسلام، وأنّ المسلمين مهما افترقت أجناسهم وتباينت لهجاتهم يجمعهم الدين جمعًا لا يجمع أمّة غيرهم، ويزيل من الفروق العميقة والأبعاد السحيقة بينهم ما لا يزيله شيء، وأنّ المسلم العربي يرى المسلم التركي والمسلم الأرناؤوطي أخًا له نظير أخيه العربي بدون فرق، عملاً بمحكم الكتاب الذي نزل فيه ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾. واقتداءً بسنّة الشارع الأعظم (ﷺ) القائل: "ترى المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كالجسم الواحد إذا تألّم منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".

شكيب أرسلان